تفسير

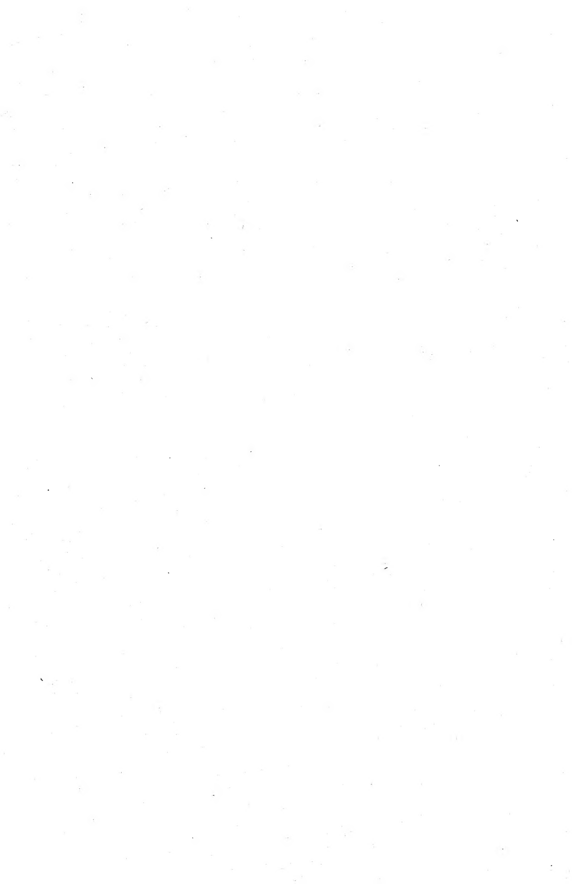
التحرير والتنوير

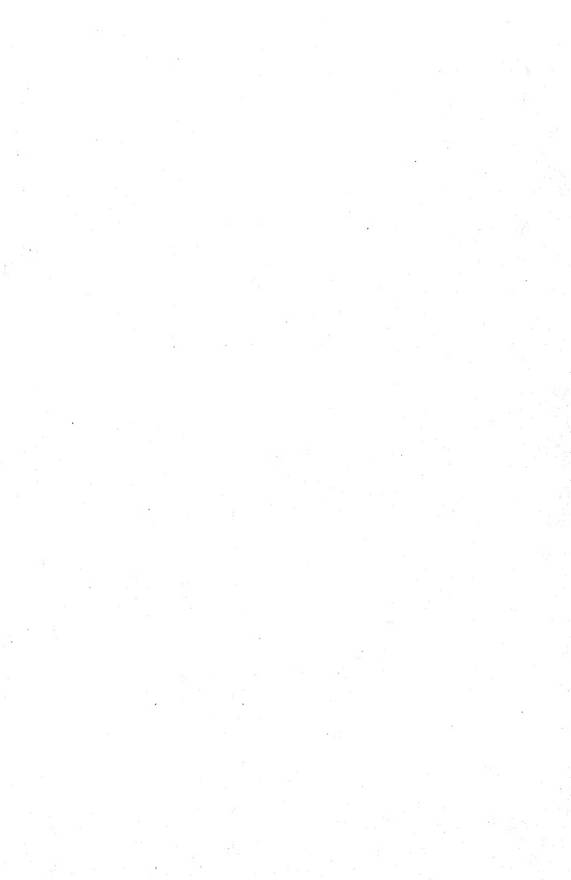
تأليف

سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

الجزء الثالث عشر

الدار التونسية للنشر





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيَ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [53]

ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلام امرأة العزيز ، مضت في بقية إقرارها فقالت « وما أبرّىء نفسي » . وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها « ذلك ليَعْلَم أني لم أخُنْه بالغيب » من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادعاءٌ بأن نفسها بريئة براءة عامة فقالت « وما أبرّىء نفسي » ، أي ما أبرىء نفسي من محاولة هذا الإثم لأن النفس أمّارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنه لم يقع .

فالواو التي في الجملة استئنافية ، والجملة ابتدائية .

وجملة « إن النفس لأمّارة بالسوء » تعليل لجملة « وما أبرىء نفسي » ، أي لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب ، لأن النفوس كثيرة الأمر بالسوء .

والاستثناء في « إلاّ ما رحم ربّي » استثناء من عموم الأزمان ، أي أزمان وقوع السوء ، بناء على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كلّ الأوقات إلاّ وقت رحمة الله عبده ، أي رحمته بأن يقيّض له ما يصرفه عن فعل السوء ، أو يقيض حائلا بينه وبين فعل السوء ، كما جعل إباية يوسف – عليه السلام – من إجابتها إلى ما دعتْه إليه حائلا بينها وبين التورط في هذا الإثم ، وذلك لطف من الله بهما .

ولذلك ذيلته بجملة « إن ربي غفور رحيم » ثناءً على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب ، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب .

وهذا يقتضي أن قومها يؤمنون بالله ويحرمون الحرام ؛ وذلك لا ينافي أنهم كانوا مشركين فإن المشركين من العرب كانوا يؤمنون بالله أيضا . قال تعالى « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خلَق السماوات والأرض ليقولُنّ اللهُ » وكانوا يعرفون البر والذنب .

وفي اعتراف امرأة العزيز بحضرة الملك عبرة بفضيلة الاعتراف بالحق ، وتبرئة البريء مما ألصق به ؛ ومن خشية عقاب الله الخائنين .

وقيل : هذا الكلام كلام يوسف – عليه السلام – متصل بقوله « ارجعْ إلى ربّك فاسْألْه ما بالُ النسوة اللاتي قطّعْن أيديَهُنّ » الآية .

وقوله « قال ما خَطْبُكُنّ إذ رَاوَدْتُنّ يوسف – إلى قوله – وأن الله لا يهدي كَيْد الخائنين » اعتراض في خلال كلام يوسف – عليه السلام – . وبذلك فسّرها مجاهد وقتادة وأبو صالح وابن جريج والحسن والضحّاك والسدّي وابن جبير ، واقتصر عليه الطبري . قال في الكشاف : (وكفى بالمعنى دليلا قائدا إلى أن يجعل من كلام يوسف – عليه السلام – ؛ ونحوُه قوله « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم – ثم قال – فماذا تأمرون » وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم) اه . يريد أن معنى هذه الجملة أليق بأن يكون من كلام يوسف – عليه السلام – لأن من شأنه أن يصدر عن قلب مليء بالمعرفة .

وعلى هذا الوجه يكون ضمير الغيبة في قوله « لم أخُنْه » عائدا إلى معلوم من مقام القضية وهو العزيز ؛ أي لم أخن سيدي في حرمته حال مغيبه .

ويكون معنى « وما أبرّئ نفسي » الخ .. مثل ما تقدم قصد به التواضع ، أي لست أقول هذا ادعاء بأن نفسي بريئة من ارتكاب الذنوب إلا مدة رحمة الله النفس بتوفيقها لأكف عن السوء ؛ أي أني لم أفعل ما اتهمت به وأنا لست بمعصوم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ [54] قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [55]

السين والتاء في « أَسْتَخْلِصْه » للمبالغة ، مثلها في استجاب واستأجر . والمعنى أجْعَلْه خالصا لنفسي ، أي خاصّا بي لا يشاركني فيه أحد . وهذا كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه . وقد دلّ الملكَ على استحقاق يوسف — عليه السلام — تقريبَهُ منه ما ظهر من حكمته وعلمه . وصبره على تحمّل المشاقّ ، وحسن خلقه . ونزاهته . فكل ذلك أوجب اصطفاءه .

وجملة « فلما كلّمه » مفرّعة على جملة محذوفة دل عليها « وقال الملك ائتوني به » . والتقدير : فأتوه به . أي بيوسف — عليه السلام — فحضر لديه وكلّمه فلما كلمه .

والضمير المنصوب في « كلّمهُ » عائد إلى الملك، فالمكلّم هو يوسف — عليه السلام — . والمقصود من جملة « فلما كلّمه » إفادة أن يوسف — عليه السلام — كلم الملك كلاما أعجب الملك بما فيه من حكمة وأدب . ولذلك فجملة « قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » جواب « لَمّا ». والقائل هو الملك لا محالة .

والمكين : صفة مشبهة من مكُن — بضم الكاف — إذا صار ذا مكانة ، وهي المرتبة العظيمة ، وهي مشتقة من المكان .

والأمين : فعيل بمعنى مفعول ، أي مأمون على شيء ، أي موثوق به في حفظه .

وترتّب هذا القول على تكليمه إياه دالّ على أن يوسف — عليه السلام — كلّم الملك كلام حكيم أديب فلما رأى حسن منطقه وبلاغة قوله وأصالة رأيه رآه أهلاً لثقته وتقريبه منه .

وهذه صيغة تـولية جـامعة لـكل مـا يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال ، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة ؛ إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليـه ، وبـالقدرة يستطيع فعل مـا يبـدو لـه مـن الخيـر ؛ والأمانـة تستـدعي الحكمـة والعدالة ، إذ بالحكمة يوثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة ، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلهـا . وهذا التنويه بشأنه والثنـاء عليه تعريض بـأنه يريد الاستعـانة بـه في أمـور مملـكته وبـأن يقترح عليه ما يرجو من خير ، فلذلك أجـابه بقولـه « اجعلنـي على خـَزائن الأرض » .

وجملة « قـال اجعلْني على خـزائن الأرض » حـكـاية جوابه لـكلام الملك ولذلك فصلت على طريقـة المحـاورات .

و (على) هنـا للاستعـلاء المجازي ، وهو التصرف والتمـكن ، أي اجعلنـي متصرّفـا في خـزائـن الأرض .

و « خـزائن » جمع خِـزانة ــ بـكسر الخـاء ــ ، أي البيت الذي يختزن فيـه الحبـوب والأمـوال .

والتعريف في « الأرض » تعريف العهد ، وهي الأرض المعهودة لهم ، أي أرض مصر .

والمراد من « خزائن الأرض » خزائن كانت موجودة ، وهي خزائن الأموال ؛ إذ لا يخلو سلطـان من خزائن معدودة لنوائب بلاده لا الخزائن التي زيدت من بعد لخزن الأقـوات استعـدادا للسنوات المعبر عنهـا بقوله « ممـا تحصنون » .

واقتراح يـوسف ــ عليه السلام ــ ذلك إعداد لنفسه للقيـام بمصالح الأمة على سنـة أهل الفضل والـكمـال من ارتيـاح نفوسهم للعمل في المصالح ، ولذلك لم يسأل مـالا لنفسـه ولا عـَرَضا مـن متـاع الدنيـا ، ولـكنـه سأل أن يـوليـه خزائن المملـكة ليحفظ الأمـوال ويعدل في توزيعهـا ويرفق بـالأمة في جمعهـا وإبلاغهـا لمحـالّهـا .

وعلّل طلبه ذلك بقوله « إني حفيظ عليم » المفيد تعليل ما قبلها لوقوع (إنّ) في صدر الجملة فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما ، وهما : الحفظ لما يليه ، والعلم بتدبير ما يتولاه ، ليعلم الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما ، وأنه حقيق بهما لأنه متصف بما يفي بواجبهما ، وذلك صفة الحفظ المحقّق للائتمان ، وصفة العلم المحقّق للمكانة . وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي الناس إلى اتباعه . وهذا من قبيل الحِسبَة .

وشبه ابن عطية بمقام يوسفَ — عليه السلام — هذا مقام أبي بكر — رضي الله عنه — في دخوله في الخلافة مع نهيه المستشير له من الأنصار من أن يتأمر على اثنين . قلت : وهو تشبيه رشيق ، إذ كلاهما صدّيق .

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره لأن ذلك من النصح للأمة ، وخاصة إذا لم يكن ممّن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة . وقد علم يوسف — عليه السلام — أنه أفضل الناس هنالك لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر ، فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب — عليهم السلام — . فلا يعارض هذا ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الرحمان بن سمرة قال : قال لي رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — « يا عبد الرحمان لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتَها عن مسألة وُكلتَ إليها وإن أعطيتَها عن غير مسألة أُعنت عليها » . لأن عبد الرحمان بن سمرة لم يكن منفردا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحا على جميعهم .

ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل وأنه إن لم يُوَلّ ضاعت الحقوق . قال المازري : « يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعي في طلب القضاء إن علم أنه إن لم يلِه ضاعت الحقوق

أو وليه مَن لا يحلّ أن يولى . وكذلك إن كان وَليَه من لا تحلّ توليته ولا سبيل لعزله إلا بطلب أهله » .

وقال ابن مرزوق : لم أقف على هذا لأحد من قدماء أهل المذهب غير المازري .

وقال عياض في كتاب الإمارة . أي من شرح صحيح مسلم . ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة . وظاهر كلام ابن رشد في المقدمات حرمة الطلب مطلقا . قال ابن مرزوق : وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريبا منه للغزالي في الوجيز .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ [56] وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [57]

تقدم تفسير آية « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » آنفا .

والتبوؤ : اتخاذ مكان للبوء . أي الرجوع . فمعنى التبوؤ النزول والإقامة . وتقدم في قوله تعالى « أن تَبَوَّءَا لقومكما بمصر بيوتا » في سورة يونس .

وقوله « يتبوأ منها حيث يشاء » كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحل بغيره لفعل . فجملة « يتبوأ » يجوز أن تكون حالا من « يوسف » . ويجوز أن تكون بيانا لجملة « مكّنا ليوسف في الأرض » .

وقرأ الجمهور « حيث يشاء » — بياء الغيبة — . وقرأ ابن كثير « حيث نشاء » — بنون العظمة — . أي حيث يشاء الله . أي حيث نأمره أو نلهمه . والمعنى متحد لأنه لا يشاء إلا ما شاءه الله .

وجملة « نصيب برحمتنا من نشاء » إلى آخرها تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف – عليه السلام – من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا ، لأن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى .

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع ، لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة وأما التقوى فهي متجددة بتجدّد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان .

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ [58] وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ [59] فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ [60]

طوى القرآن أخبَرة أمر امرأة العزيز وحلولَ سني الخصب والادّخار ثم اعتراء سني القحط لقلة جدوى ذلك كله في الغرض الذي نزلت السورة لأجله . وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء من ذويهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى ؛ ولأنه معلوم حصوله . ولذلك انتقلت القصة إلى ما فيها من مصير إخوة يوسف – عليه السلام – في حاجة إلى نعمته . ومن جمع الله بينه وبين أخيه الذي يحبه . ثم بينه وبين أبويه . ثم مظاهر عفوه عن إخوته وصلته رحمهُ . لأن لذلك كله أثرا في معرفة فضائله .

وكان مجيء إخوة يوسف – عليه السلام – إلى مصر للميرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين منازل آل يوسف – عليه

السلام ـ ، وكان مجيئهم في السنة الثانية من سني القحط . وإنما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره ، وإنما رحلوا للميرة كلهم لعل ذلك لأن التزويد من الطعام كان بتقدير يراعى فيه عدد الممتارين ، وأيضا ليكونوا جماعة لا يَطمع فيهم قطاع الطريق ، وكان الذين جاءوا عشرة . وقد عُرف أنهم جاءوا ممتارين من تقدم قوله « قال اجعَلْني على خزائن الأرض » وقوله الآتي « ألاَ ترون أني أوفي الكيل » .

ودخولهم عليه يدلّ على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة .

وعرف يوسف ـ عليه السلام ـ إخوته بعد مضي سنين على فراقهم لقوة فراسته وزكانة عقله دونهم .

وجملة « وهم له منكرون » عطف على جملة « فعرفهم » . ووقع الإخبار عنهم بالجملة الاسمية للدلالة على أن عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكن منهم ، وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد للدلالة على أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل . وقُرن مفعول « منكرون » الذي هو ضمير يوسف ـ عليه السلام ـ بلام التقوية ولم يقل وهم منكرونه لزيادة تقوية جهلهم بمعرفته .

وتقديم المَجرور بلام التقوية في « له منكرون » للرعاية على الفاصلة. ولِلاهتمام بتعلق نكرتهم إياه للتنبيه على أن ذلك من صنع الله تعالى وإلا فإن شمائل يوسف ـ عليه السلام ـ ليست مما شأنه أن يجهل وينسَى .

والجهاز ـ بفتح الجيم وكسرها ـ ما يحتاج إليه المسافر . وأوله ما سافر لأجله من الأحمال . والتجهيز : إعطاء الجهاز .

وقوله « ايتوني بأخ لكم » يقتضي وقوع حديث منهم عن أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم وإلا لكان إنبَاء يوسف ـ عليه السلام ـ لهم بهذا يشعرهم

أنه يكلمهم عارفاً بهم وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم . وفي التوراة (1) أن يوسف – عليه السلام – احتال لذلك بأن أوهمهم أنه اتهمهم أن يكونوا جواسيس للعدو وأنهم تبرأوا من ذلك فعرفوه بمكانهم من قومهم وبأبيهم وعدد عائلتهم، فما ذكروا ذلك له أظهر أنه يأخذ أحدهم رهينة عنده إلى أن يرجعوا ويأتوا بأخيهم الأصغر ليصدّقوا قولهم فيما أخبروه. ولذلك قال « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي » .

و« من أبيكم » حال من « أخ لكم » أي أُخُوّته من جهة أبيكم ، وهذا من مفهوم الاقتصار الدال على عدم إرادة غيره ، أي من أبيكم وليس من أمكم ، أي ليس بشقيق .

والعدول عن أن يقال: ايتوني بأخيكم من أبيكم ، لأن المراد حكاية ما اشتمل عليه كلام يوسف – عليه السلام – من إظهار عدم معرفته بأخيهم إلا من ذكرهم إياه عنده . فعدل عن الإضافة المقتضية المعرفة إلى التنكير تنابهاً في التظاهر بجهله به .

« ولا تقربون » أي لا تعودوا إلى مصر ، وقد علم أنهم لا يتركون أخاهم رهينة .

وقوله « ألاَ ترون أنّيَ أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين » ترغيب لهم في العود إليه؛ وقد علم أنهم مضطرون إلى العود إليه لعدم كفاية الميرة التي اماروها لعائلة ذات عدد من النّاس مثلهم، كما دل عليه قولهم بعد « ذلك كيل يسير » .

ودل قوله «خير المنزلين» على أنه كان ينزل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة. والمُنْزِل: المُضيف. وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم . والكيل في الموضعين مرادٌ منه المصدر. فمعنى « فلا كيل لكم عندي » أي لا يكال لكم ، كناية عن منعهم من ابتياع الطعام.

(1) الاصحاح 42 من سفر التكوين .

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [61]

وعدٌ بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم وإشعار بصعوبة ذلك. فمعنى «سنراود عنه أباه» سنحاول أن لا يشح به. وقد تقدم عند قوله تعالى « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » .

وجملة « وإنا لفاعلون » عطف على الوعد بتحقيق الموعود به ، فهو فعل ما أمرهم به . وأكدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد .

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [62]

قرأ الجمهور «لفتيته» بوزن فعلة جمع تكسير فتى مثل أخ وإخوة .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف «لفتيانه» بوزن إخوان. والأول صيغة قلة والثاني صيغة كثرة وكلاهما يستعمل في الآخر . وعدد الفتيان لا يختلف .

والفتى : من كان في مبدإ الشباب . ومؤنثه فتاة . ويطلق على الخادم تلطفاً ، لأنهم كانوا يستخفون بالشباب في الخدمة ، وكانوا أكثر ما يستخدمون العبيد .

والبضاعة: المال أو المتاع المعدّ للتجارة . والمراد بها هنا الدراهم التي ابتاعوا بها الطعام كما في التوراة .

وقوله « لعلّهم يعرفونها » رجاء أن يعرفوا أنها عين بضاعتهم إما بكونها مسكوك سكة بلادهم وإما بمعرفة الصّرر التي كانت مصرورة فيها كما في التوراة ، أي يعرفون أنها وضعت هنالك قصدا عطية من عزيز مصر .

والرحال : جمع رحْل . وهو ما يوضع على البعير من متـاع الراكب ، ولـذا سمـي البعيـر راحلـة .

والانقلاب: الرجوع ، وتقدم عند قـوله تعالى « انقلبتم على أعقـابكم » في سورة آل عمـران .

وجملة « لعلهم يرجعون » جواب للأمر في قوله « اجعلـوا بضاعتهم في رحـالهم » لأنه لمـّا أمرهم بـالرجوع استشعر بنفـاذ رأيـه أنهم قد يكونون غير واجـدين بضاعة ليبتـاعوا بهـا الميرة لأنـه رأى مخـايل الضيق عليهم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَـٰأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ [63] قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [64]

معنى « مُنـع منـّا الكيـل » حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل ، لأن رجوعهم بـالطعـام المعبر عنه بـالجَهـاز قرينـة أن المنع من الكيل يقع في المستقبل . ولأن تركيب « منع منـّا » يؤذن بذلك . إذ جعلـوا الكيل ممنـوع الابتـداء منهم لأن (من) حرف ابتـداء .

والكيل مصدر صالح لمعنى الفاعلية والمفعولية ، وهو هنـا بمعنى الإسناد إلى الفـاعل ، أي لن نـكيل. فالممنوع هو ابتداء الكيل منهم . ولمـّا لم يكن بيدهم ما يـكـال تعيـّن تـأويل الكيل بطلبـه ، أي منع منـّا ذلك لعـدم الفـائـدة لأننـا لا نُـمنحه إلاّ إذا وفينـا بمـا وعَدْنـا من إحضار أخينـا . ولذلك صح تفريـع « فأرسل معنـا أخانا » عليه ، فصار تقدير الكلام : منعنـا من أن نطلب الكيل إلا إذا حضر

معنا أخونا. فتعين أنهم حكَوْا القصة لأبيهم مفصلة واختصرها القرآن لظهور المراد. والمعنى: إن أرسلته معنا نَرحَل للاكتيال ونطلبه. وإطلاق المنع على هذا المعنى مجاز، لأنهم أنذروا بالحرمان فصار طلبهم ممنوعا منهم لأن طلبه عبث.

وقرأ الجمهور «نكتل» بنون المتكلم المشارك. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف – بتحتية عوض النون – على أنه عائد إلى «أخانا» أي يكتل معنا.

وجملة «وإنّا له لحافظون» عطف على جملة «فأرسل». وأكدوا حفظه بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.

وجواب أبيهم كلام موجه يحتمل أن يكون معناه: إني آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه، وأن يكون معناه ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قَبْل حتى آمنكم عليه.

والاستفهام إنكاري فيه معنى النفي. فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم «وإنا له لحافظون». والمقصود من الجملة على احتماليها هو التفريع الذي في قوله «فاللهُ خير حفظا». أي خير حفظا منكم، فإنْ حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه.

وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنه مُرسِل معهم أخاهم، ولذلك لم يراجعوه في شأنه.

و «حفظا» مصدر منصوب على التمييز في قراءة الجمهور. وقرأه حمزة والكسائي، وحفص «حافظا» على أنه حال من اسم الجلالة وهي حال لازمة.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَـٰأَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ [65]

أصل المتاع ما يتمتع به من العروض والثياب . وتقدم عند قوله تعالى « لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم » في سورة النساء . وأطلق هنا على إعدال المتاع وإحماله من تسمية الشيء باسم الحالّ فيه .

وجملة « قالوا يا أبانا » مستأنفة استئنافا بيانيا لترقب السامع أن يعلم ماذا صدر منهم حين فجأهم وجدان بضاعتهم في ضمن متاعهم لأنها مفاجأة غريبة ، ولهذه النكتة لم يعطف بالفاء .

و (ما) في قوله « ما نبغي » يجوز أن يكون للاستفهام الإنكاري بتنزيل المخاطب منزلة من يتطلب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى ، أي ماذا نطلب بعد هذا . ويجوز كون (ما) نافية ، والمعنى واحد لأن الاستفهام الإنكاري في معنى النفي .

وجملة « هذه بضاعتنا رُدت إلينا » مبينة لجملة «ما نبغي» على الاحتمالين. وإنما علموا أنها رُدّت إليهم بقرينة وَضْعها في العدل بعد وضع الطعام وهم قد كانوا دفعوها إلى الكيالين، أو بقرينة ما شاهدوا في يوسف — عليه السلام — من العطف عليهم ، والوعد بالخير إن هم أتوا بأخيهم إذ قال لهم « ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين » .

وجملة « ونميرُ أهلنا » معطوفة على جملة « هذه بضاعتنا رُدّت إلينا » ، لأنها في قوة هذا ثمن ما نحتاجه من الميرة صَار إلينا ونمير به أهلنا ، أي نأتيهم بالميرة .

والميرة — بكسر الميم بعدها ياء ساكنة — : هي الطعام المجلوب .

وجملة « ونحفظ أخـانا » معطوفة على جملة « نمير أهلنا » ، لأن المير يقتضي ارتحالا للجلب ، وكانوا سألوا أباهم أن يكون أخوهم رفيقـا لهم في الارتحـال المذكور ، فكانت المنـاسبة بين جملـة « نمير أهلنـا » وجملة « ونحفظ أخـانـا » بهذا الاعتبـار ، فذكروا ذلك تطمينـا لخـاطر فيهم .

وجملة « ونـزداد كيل بعير » زيـادةٌ في إظهـار حرصهم على سلامة أخيهم لأن في سلامته فـائدة لهم بـازديـاد كيل بعير . لأن يوسف — عليه السلام — لا يعطي الممتارَ أكثر من حمل بعير من الطعـام ، فـإذا كان أخوهم معهم أعطاه حِمل بعير في عداد الإخوة . وبـه تظهر المنـاسبة بين هذه الجملـة والتي قبلهـا .

وهذه الجمـل مرتبة ترتيبـا بـديعـا لأن بعضهـا متولـد عن بعض .

والإشارة في « ذلك كيل يسير » إلى الطعام الذي في متاعهم . وإطلاق الكيـل عليه من إطلاق المصدر على المفعول بقرينـة الإشارة .

قيل : إن يعقوب — عليه السلام — قـال لهم : لعلهم نسوا البضاعة فـإذا قدمتم عليهم فـأخبروهم بـأنكم وجدتموهـا في رحـالكم .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

اشتهر الإيتـاء والإعطـاء ومـا يـراد بهمـا في إنشاء الحلف ليطمئن بصدق الحـالف غيره وهو المحلوف لـه .

وفي حديث الحشر « فيعطي الله من عُهود ومواثيق أن لا يسألـه غيره » . كما أطلق فعل الأخذ على تلقي المحلوف له للحلف. قال تعالى « وأخذْن منكم ميثـاقـا غليظـا » و « قدْ أخذ عليكم موثقـا من الله » .

ولعل سبب إطلاق فعل الإعطـاء أن الحالف كان في العصور القديمة يعطي المحلوف لـه شيئـا تذكرة لليمين مثل سوطه أو خـاتمه ، أو أنهم كانوا يضعون عند صاحب الحق ضمـانـا يكون رهينـة عنده . وكانت الحمالة طريقة للتوثق فشبه اليمين بـالحمالة. وأثبت لـه الإعطـاء والأخذ على طريقة المكنيّة ، وقد اشتهر ضد ذلك في إبطـال التوثق يقـال : رَدّ عليه حِلفـه .

والمَوْثِق : أصلـه مصدر ميمي للتوثّق ، أطلق هنـا على المفعول وهو مـا بـه التوثق ، يعني اليميـن .

و « من الله » صفة لـ « موثقا » ، و (مـن) للابتـداء ، أي موثقـا صادرا من الله تعالى. ومعنى ذلك أن يجعلوا الله شاهداً عليهم فيمـا وَعدوا بـه بـأن يحلفوا بـالله فتصير شهـادة الله عليهم كتوثق صادر من الله تعـالى بهذا الاعتبـار . وذلك أن يقولوا : لك ميثـاق الله أو عهد الله أو نحو ذلك ، وبهذا يضاف الميثـاق والعهد إلى اسم الجلالـة كأنّ الحـالف استودع الله مـا بـه التوثق للمحلـوف لـه .

وجملة « لَتَأْتُنَّنِـي بـه » جـواب لقسم محذوف دلّ عليه « موثقـا » . وهو حكـاية لقول يقولـه أبنـاؤه المطلـوب منهم إيقـاعه حكـاية بالمعنى على طريقـة حكـاية الأقـوال لأنهم لو نطقوا بـالقسم لقـالوا : لنأتينك بـه ، فلمـا حكـاه هو ركب الحكاية بالجملة التي هي كلامهم وبالضمائر المناسبة لكلامه بخطابه إياهم .

ومن هذا النـوع قوله تعـالى حكـايـة عـن عيسى – عليـه السلام – « مـا قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ». وإن مـا أمره الله : قل لهم أن يعبـدوا ربـك وربهم .

ومعنى « يُحَاط بـكم » يُحيط بـكم مُحيط . والإحـاطة : الأخذُ بأسْر أو هلاك ممـا هو خـارج عن قدرتهم ، وأصله إحـاطة الجيش في الحرب . فاستعمل مجـازا في الحـالة التي لا يستطـاع التغلب عليهـا ، وقد تقدم عند قوله تعـالى « وظنوا أنهم أحيط بهم » .

والاستثناء في « إلاّ أن يحاط بكم » استثناء من عمـوم أحـوال . فـالمصدر المنسبك من (أن) مع الفعل في موضع الحال ، وهو كالإخبـار بالمَصْدر فتأويـلـه : إلاّ محـاطـًـا بـكم .

وقوله « والله على مـا نقول وكيل » تذكير لهم بـأن الله رقيب على مـا وقع بينهم . وهذا توكيد للحَلِف .

و الـوَكيل : فعيل بمعنى مفعول . أي موكـول إليـه . وتقدم في « وقـالـوا حسبنـا الله ونعم الوكيـل » في سورة آل عمران .

﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

و« قـال يـا بنيّ » عطف على جملة « قـال الله على مـا نقول وكيل » .

وإعادة فعل «قال» للإشارة إلى اختلاف زمن القولين وإن كانا معا مسبَّبَيْن على إيتاء موثقهم ، لأنه اطمـأن لرعـايتهم ابنَه وظهرت لـه المصلحة في سفرهم لـلإمتيار . فقوله « يـا بني لا تدخلوا من بـاب واحد » صادر في وقت إزمَاعهم الرحيل . والمقصود من حكاية قوله هذا العبرة بقوله « ومـا أغني عنـكم من الله من شيء » الـخ .

والأبواب : أبواب المدينة . وتقدم ذكر الباب آنـفـا . وكانت مدينة (منفيس) من أعظم مدن العـالم فهي ذات أبواب . وإنمـا نهـاهم أن يدخلوهـا من بـاب واحد خشية أن يسترعي عـددهم أبصارَ أهـل المدينـة وحُراسها وأزيـاؤهم أزيـاء الغربـاء عن أهل المدينة أن يُوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة فربمـا سجنوهم

أو رصدوا الأعين إليهم ، فيكون ذلك ضرًا لهم وحائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف — عليه السلام — ودون قضاء حاجتهم . وقد قيل في الحكمة : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها ، وعلم أن (بنيامين) يكون في صحبة أحد إخوته لئلا يضل في المدينة .

والمتفرقة أراد بها المتعددة لأنه جعلها في مقابلة الواحد . ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة .

وجملة « وما أغني عنكم من الله من شيء » معترضة في آخر الكلام ، أي وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئا . و « من الله » متعلق بـ « أغني » ،أي لا يكون ما أمرتكم به مُغنيا غَناء مبتدِئًا من عند الله بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله ، فإنْ صادف ما قدره فقد حصل فائدتان ، وإن خالف ما قدَّره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط .

وتقدم وجه تركيب « ومَا أُغني عنكم من الله من شيء » عند قوله تعالى « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » في سورة العقود .

وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبا مع واضع الأسباب ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين ، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها .

وهذا سرّ مسألة القدر كما أشار إليه قول النبيء — صلى الله عليه وسلّم — « اعملوا فكلٌ ميسّر لما خلق له » ، وفي الأثر « إذا أراد الله أمرا يَسّر أسبابه » .

قال الله تعالى « ومن أراد الآخرة وسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » . ذلك أن شأن الأسباب أن تحصُل عندها مسبباتها. وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت واحد ، أو لكون السبب الواحد قد يكون سببا لأشياء متضادة باعتبارات فيخطىء تعاطي السبب في مصادفة المسبّب المقصود . ولولا نظام الأسباب ومراعاتها لصار المجتمع البشري هملا وهمجا .

والإغناء : هنا مشتق من الغَنَاء – بفتح الغين وبالمدّ – ، وهو الإجزاء والاضطلاع وكفاية المهمّ . وأصله مرادف الغِنى – بكسر الغين والقصر – وهما معا ضد الفقر . وكثر استعمال الغناء المفتوح الممدود في الإجزاء والكفاية على سبيل المجاز المرسل لأن من أجزأ وكفى فقد أذهب عن نفسه الحَاجة إلى المغنين وأذهب عمن أجزأ عنه الاحتياج أيضا ، وشاع هذا الاستعمال المجازي حتى غلب على هذا الفعل ، فلذلك كثر في الكلام تخصيص الغَنَاء بالفتح والمد بهذا المعنى ، وتخصيص الغِنى – بالكسر والقصر – في معنى ضد الفقر ونحوه حتى صار الغَنَاء الممدود لا يكاد يسمع في معنى ضد الفقر . وهي تفرقة حسنة من دقائق استعمالهم في تصاريف المترادفات . فما يوجد في كلام ابن بري من قوله : إن الغناء مصدر ناشيء عن فعل أغنى المهموز بحذف الزائد الموهم أنه لا فِعل له مجرّد فإنما عنَى به أن استعمال فِعل غَنِيَ في هذا المعنى المجازي متروك مُمات لا أنه ليس له فعل مجرد .

ولذلك فمعنى فعل (أغنى) بهذا الاستعمال معنى الأفعال القاصرة . ولم يفده الهمز تعديةً ، فلعل همزته دالة على الصيرورة ذا غنى . فلذلك كان حقه أن لا ينتصب المفعول به بل يكون في الغالب مرادفا لمفعول مطلق كقول عمرو بن معد يكرب :

أَغْنِي غَنَاء الذاهبـ ـين أُعَدُّ للحدثان عدّا

ويقولون : أغنى فلان عن فلان ، أي في أجزاه عوضه وقام مقامه ، ويأتون بمنصوب فهو تركيب غريب ، فإن حرف (عن) فيه للبدلية وهي المجاوزة المجازية . جعل الشيء البدل عن الشيء مجاوزا له لأنه حلّ محلّه في حال غيبته فكأنه جاوزه فسموا هذه المجاوزة بدلية وقالوا : إنّ (عن) تجيء للبدلية كما تجيء لها الباء . فمعنى « ما أغني عنكم » لا أجزي عنكم ، أي لا أكفي بدلا عن إجزائكم لأنفسكم .

و « من شيء » نائب مناب شيئا ، وزيدت (من) لتوكيد عموم شيء في سياق النفي ، فهو كقوله تعالى « لا تغني عني شفاعتهم شيئا » أي من الضرّ . وجوز صاحب الكشاف في مثله أن يكون « شيئا » مفعولا مطلقا ، أي شيئا من الغناء وهو الظاهر ، فقال في قوله تعالى « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » ، قال : أي قليلا من الجزاء ، كقوله تعالى « ولا يظلمون شيئا » ؛ لكنه جوز أن يكون « شيئا » مفعولا به وهو لا يستقيم إلا على معنى التوسع بالحذف والإيصال ، أي بنزع الخافض .

وجملة « إن الحكمُ إلا لله » في موضع التعليل لمضمون « وما أُغني عنكم من الله من شيء » . والحكم : هنا بمعنى التصرف والتقدير ، ومعنى الحصر أنه لا يتم إلا ما أراده الله ، كما قال تعالى « إن الله بالغٌ أمره » . وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر ولكن واجبه أن يتطلب الأمور من أسبابها لأن الله أمر بذلك . وقد جمع هذين المعنيين قوله « وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء » .

وجملة « عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » في موضع البيان لِجملة « وما أغني عنكم من الله من شيء » ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكّل الذي يَضل في فهمه كثير من الناس اقتصارا وإنكارا . ولذلك أتى بجملة « وعليه فليتوكل المتوكلون » أمرا لهم

ولغيرهم على معنى أنه واجب الحاضرين والغائبين ، وأن مقامه لا يختص بالصدّيقين بل هو واجب كل مؤمن كامل الإيمان لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

جملة معترضة . والواو اعتراضية .

ودلت (حيث) على الجهة . أي لمّا دخلوا من الجهات التي أمرهم أبوهم بالدخول منها . فالجملة التي تضاف إليها (حيثُ) هي التي تُبين المراد من الجهة .

وقد أغنت جملة « ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم » عن جمل كثيرة ، وهي أنهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم ؛ ولما دخلوا من حيث أمرهم سَلموا مما كان يخافه عليهم . وما كان دخولهم من حيث أمرهم يُغني عنهم من الله من شيء لوْ قدّر الله أن يحاط بهم ، فالكلام إيجاز . ومعنى « ما كان يغني عنهم من الله من شيء » أنه ما كان يرد عنهم قضاء الله لولا أن الله قدر سلامتهم .

والاستثناء في قوله « إلاّ حاجةً » منقطع لأن الحاجة التي في نفس يعقوب — عليه السلام — ليست بعضا من الشيء المنفي إغناؤه عنهم من الله ، فالتقدير : لكن حاجة في نفس يعقوب — عليه السلام — قضاها .

والقضاء : الإنفاذ ، ومعنى قضاها أنفذها . يقال : قضى حاجة لنفسه ، إذا أنفذ ما أضمره في نفسه، أي نصيحة لأبنائه أداها لهم ولم يدخرها عنهم ليطمئن قلبه بأنه لم يترك شيئا يظنه نافعا لهم إلاّ أبلغه إليهم .

والحاجة : الأمر المرغوب فيه . سمي حاجة لأنه محتاج إليه ، فهي من التسمية باسم المصدر . والحاجة التي في نفس يعقوب – عليه السلام – هي حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد . وتعليمُهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله .

وجملة « وإنه لذو علم لما علّمناه » معترضة بين جملة « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم » الخ وبين جملة « ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » .

وهو ثناء على يعقوب – عليه السلام – بالعلم والتدبير ، وأنّ ما أسْداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوءة .

وقوله « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » استدراك نشأ عن جملة « ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم » الخ . والمعنى أن الله أمر يعقوب – عليه السلام – بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدره لهم ، فإن مراد الله تعالى خفيّ عن الناس . وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة. وعَلِم يعقوب – عليه السلام – ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما . فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمرا قَدّره الله وَعَلِم أنه واقع ، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها .

وقد دلّ قوله « وإنه لذو علم لِما علّمناه » بصريحه على أن يعقوب – عليه السلام – عمل بما علّمه الله . ودلّ قوله « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » بتعريضه على أن يعقوب – عليه السلام – من القليل من الناس الذين علموا مراعاة الأمرين ليتقرر الثناء على يعقوب – عليه السلام – باستفادته من الكلام مرتين : مرة بالصراحة ومرة بالاستدراك .

والمعنى أن أكثر الناس في جهالة عن وضع هاته الحقائق موضعها ولا يخلون عن مُضيع لإحداهما . ويفسر هذا المعنى قول عمر بن الخطاب – رضي

الله عنـه – لمّا أمر المسلمين بـالقفول عن عـمَواس لـمّا بلغه ظهور الطـاعون بهـا وقـال لـه أبو عبيدة : أفـرارا من قدر الله ؟ فقـال عمر – رضي الله عنه – : لو غَيْرُك قـالهـا يـا أبَا عبيدة ألسنـا نفرّ من قدر الله إلى قدر الله ... إلى آخـر الخبر .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيَ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

موقع جملـة « ولمـا دخلـوا على يـوسف » كموقع جملـة « ولمـا دخلـوا من حيث أمرهم أبـوهم » في إيجـاز الحذف .

والإيـواء : الإرجـاع . وتقدم في قوله تعـالى « أولئـك مـأواهم النار » في سورة يـونس .

وأطلق الإيـواء هنـا مجـازا على الإدناء والتقريب كـأنه إرجاع إلى مأوى ؛ وإنمـا أدنـاه ليتمـكن من الإسرار إليـه بقولـه « إنيَ أنَا أخوك » .

وجملة « قـال إنّي أنـا أخوك » بـدل اشتمـال من جملـة « آوى إليه أخـاه » . وكلمه بكلمـة مختصرة بليغـة إذ أفـاده أنـه هو أخوه الذي ظنـه أكلـه الذئب . فـأكد الخبر بـ (إنّ) وبـالجملة الاسمية وبالقصر الذي أفـاده ضمير الفصل ، أي أنَا مقصور على الـكون أخـاك لا أجنبي عنك ؛ فهو قصر قاب لاعتقـاده أن الذي كلّمه لا قـرابة بينه وبينـه .

وفرّع على هذا الخبر « فلا تَبْتَئس بمـا كـانوا يعملون » . والابتئاس : مطاوعة الإبئـاس . أي جَعْل أحد بـائسا ؛ أي صاحب بؤس .

والبؤس : هو الحزن والـكدر . وتقدم نظير هذا التركيب في قصة نـوح – عليه السلام – من سورة هـود . والضميران في « كـانوا » و « يعملـون » راجعـان إلى

إلى إخوتهمـا بقرينـة المقـام ، وأراد بذلك مـا كان يجده أخوه (بنيـامين) من الحزن لهلاك أخيـه الشقيق وفظـاظة إخوتـه وغيرتهم منـه .

والنهي عن الابتئـاس مقتضٍ الـكفّ عنه ، أي أزلْ عنك الحزن واعتَض عنه بـالسرور .

وأفـاد فعل الـكون في المضي أن المراد مـا عَملوه فيمـا مضى . وأفـاد صوغ « يعملـون » بصيغـة المضارع أنـه أعمـال متـكررة من الأذى . وفي هذا تهيئـة لنفس أخيـه لتلقي حـادث الصُّوَاع بـاطمئنـان حتى لا يخشى أن يكون بمحل الريبة من يـوسف – عليه السلام – .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّا ذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

تقدم الـكلام على نظير قولـه « فلمّا جَهّزهم بجَهَازهم » في الآيـات قبل هذه . وإسناد جعل السقاية إلى ضمير يوسف مجاز عقليّ ،وإنمـا هو آمر بالجعل والذين جعلوا السقـاية هم العبيد الموكّلون بـالـكيل .

والسقـاية : إنـاء كبير يُسقى به المـاء والخمر . والصُّوَاع : لغة في الصاع ، وهو وعـاء للـكيل يقَدّر بوزن رطل وربع أو وثلث . وكانوا يشربـون الخمر

بالمقدار ، يقدّر كل شارب لنفسه ما اعتاد أنه لا يصرعه ، ويجعلون آنية الخمر مقدّرة بمقادير مختلفة ، فيقول الشارب للساقي : رطلا أو صاعا أو نحو ذلك . فتسمية هذا الإناء سقاية وتسميته صُوَاعا جارية على ذلك . وفي التوراة سمي طاسا ، ووصف بأنه من فضة .

وتعريف « السقاية » تعريف العهد الذهني ، أي سقاية معروفة لا يخلو عن مثلها مجلس العظيم .

وإضافة الصُّواع إلى الملك لتشريفه ، وتهويل سرقته على وجه الحقيقة ، لأن شؤون الدولة كلها للمَلك . ويجوز أن يكون أطلق الملك على يوسف – عليه السلام – تعظيما له .

والتأذين : النداء المكرر . وتقدم عند قوله تعالى « فأذّن مؤذّن بينهم » في سورة الأعراف .

والعِير : اسم للحمولة من إبل وحَمير وما عليها من أحمال وما معها من ركابها ، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة . وأسندت السرقة إلى جميعهم جريا على المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم .

وتأنيث اسم الإشارة وهو « أيّتها » لتأويل العير بمعنى الجماعة لأن الركاب هم الأهم .

وجملة « قالوا » جواب لنداء المنادي إياهم « إنكم لسارقون »، ففصلت الجملة لأنها في طريقة المحاورة كما تكرر غير مرة .

وضمير « قالوا » عائد إلى العير .

وجملة « وأقبلوا عليهم » حال من ضمير « قالوا » . ومرجع ضمير « أقبلوا » عائد إلى فتيان يوسف – عليه السّلام – . وضمير « عليهم » راجع

إلى مـا رجـع إليـه ضميـر « قـالـوا » ، أي وقـد أقبـل عـليهـم فتيـان يـوسف ــ عليه السلام ــ .

وجعلـوا جعلا لمن يـأتي بالصواع . والذي قـال « وأنـا بـه زعيم » واحـد من المقبلين وهو كبيرهم . والزعيم : الكفيـل .

وهذه الآيـة قد جعلهـا الفقهـاء أصلا لمشروعيـة الجعل والكفـالة . وفيـه نظر ، لأن يوسف ــ عليه السلام ــ لم يكن يومئذ ذا شَرْع حتى يستأنس للأخذ بـ (أنَّ شَرْعَ من قَبْلنـا شَرْع لنـا) إذا حـكاه كلام الله أو رسولـه . ولو قدِّر أن يوسف ــ عليه السلام ــ كان يومئذ نبيئـا فلا يثبت أنـه رسول بشرع ، إذ لم يثبت أنـه بعث إلى قـوم فرعون ، ولم يكن ليوسف ــ عليه السلام ــ أتبـاع في مصر قبْل ورود أبيه وإخوتـه وأهليهم . فهذا مـأخذ ضعيف .

والتـاء في « تَالله » حرف قَسم على المختار ، ويختص بالدخول على اسم الله تعـالى وعلى لفظ ربّ ، ويختص أيضا بـالمُقسم عليه العجيب . وسيجيء عند قوله تعـالى « وتـالله لأكيدنّ أصنـامكم » في سورة الأنبيـاء .

وقولهم « لقد علمتم مّا جِئنَا لنُفسدَ في الأرض ومـا كنـا سارقين » . أكدوا ذلك بالقسم لأنهم كانوا وَفدوا على مصر مرة سابقـة واتهموا بالجوسسة فتبينت براءتهم بمـا صدقوا يوسف ــ عليه السلام ــ فيمـا وصفوه من حـال أبيهم وأخيهم . فـالمراد بـ « الأرض » المعهـودة ، وهي مصر .

وأمـا بـراءتهم من السرقة فبمـا أخبروا بـه عند قدومهم من وجدان بضاعتهم في رحـالهم ، ولعلّهـا وقعت في رحـالهم غلطـا .

على أنهم نفوا عن أنفسهم الاتّصاف بـالسرقة بـأبلغ ممـا نفـوا بـه الإفساد عنهم ، وذلك بنفي الكون سارقين دون أن يقولوا : وما جئنا لنسرق ، لأن السرقة وصف يُتعيّر بـه ، وأمـا الإفساد الذي نفوه ، أي التجسس فهو مما يقصده العدوّ على عَدوّه فلا يكون عـارا . ولـكنه اعتداء في نظر العدوّ .

وقـول الفتيـان « مـا جزاؤه إن كنتم كاذبين » تحـكيم ، لأنهم لا يسعهم إلا أن يعيّنـوا جزاء يؤخذون بـه . فهذا تحـكيم المَرء في ذنبـه .

ومعنى « مـا جـزاؤه » : مـا عقابه . وضمير « جزاؤه » عائد إلى الصُّوَاع بتقدير مضاف دل عليه المقـام . أي مـا جزاء سَارقه أو سرقتـه .

ومعنى « إن كنتم كاذبين » إن تبين كذبكم بـوجود الصُّوَاع في رحـالـكم .

وقوله «جزاؤه مَن وُجد في رحله فهو جزاؤه» « جزاؤه » الأول مبتدأ . و (مَن) يجوز أن تـكون شرطيـة وهي مبتدأ ثـان وأن جملة « وُجد في رحلـه » جملة الشرط وجملـة « فهـو جزاؤه » جـواب الشرط . والفـاء رابطة للجواب . والجملة المركبـة من الشرط وجوابه خبر عن المبتدإ الأول . ويجوز أن تـكون (من) موصولة مبتدأ ثـانيـا . وجملـة « وجد في رحلـه » صلة الموصول . والمعنى أن من وجد في رحله الصواع هو جزاء السرقة. أي ذاته هي جزاء السرقة . فالمعنى أن ذاتـه تـكون عـوضا عن هذه الجريمـة . أي أن يصير رقيقـا لصاحب الصواع ليتمّ معنى الجزاء بذات أخرى . وهذا معلوم من السيـاق إذ ليس المراد إتلاف ذات السارق لأن السرقة لا تبلغ عقوبتهـا حدّ القتل .

فتـكون جملـة « فهو جزاؤه » توكيدا لفظيـا لجملـة « جزاؤه من وجد في رحلـه » ، لتقريـر الحـكم وعدم الانفلات منـه . وتـكون الفـاء للتفريـع تفريـع التأكيد على المؤكّد . وقد حـكّم إخوة يوسف — عليه السلام — على أنفسهم بذلك وتراضوا عليه فلزمهم مـا التزموه .

ويظهر أن ذلك كان حُـكما مشهورا بين الأمم أن يسترقّ السارق . وهو قريب من استرقـاق المغلوب في القتـال . ولعلـه كان حـكمـا معروفـا في مصر لِـمـا سيأتـي قريبـا عند قولـه تعـالى « مـا كان ليأخذ أخـاه في دين الملك » .

وجملـة « كذلك نجزي الظـالمين » بقيـة كلام إخوة يوسف — عليه السلام — .

أي كذلك حُكْم قومنا في جزاء السارق الظالم بسرقته ؛ أو أرادوا أنه حكم الإخوة على من يقدّر منهم أن يظهر الصواع في رحله، أي فهو حقيق لأن نجزيه بذلك .

والإشارة بـ « كذلك » إلى الجزاء المأخوذ من « نجزي » ، أي نجزي الظالمين جزاءً كذلك الجزاء ؛ وهو من وُجد في رحله .

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِّعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

« بدأ » أي أمر يوسف – عليه السلام – بالبداءة بأوعية بقية إخوته قبلَ وعاء أخيه الشقيق .

وأوعية : جمع وعاء . وهو الظرف . مشتق من الوعي وهو الحفظ . والابتداء بأوعية غير أخيه لإبعاد أن يكون الذي يُوجد في وعائه هو المقصود من أول الأمر . وتأنيث ضمير « استخرجها » للسقاية . وهذا التأنيث في تمام الرشاقة إذ كانت الحقيقة أنها سقاية جعلت صواعا . فهو كردّ العجز على الصدر .

والقول في « كذلك كدنا ليوسف » كالقول في « كذلك نجزي الظالمين » .

والكَيْد : فعل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفي . والكيد : هنا هو إلهام يوسف – عليه السلام – لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المُصْمَت .

وأسند الكيد إلى الله لأنه ملهمه فهو مسبّبه . وجعل الكيد لأجل يوسف – عليه السلام – لأنه لفائدته .

وجملة « مـا كان ليأخذ أخـاه في دِين الملك إلاّ أن يشاء الله » بيـان للكيد بـاعتبـار جميع مـا فيه من وضع السقـاية ومن حكم إخوتـه على أنفسهم بمـا يلائم مَرغوب يوسف — عليه السلام — من إبقـاء أخيـه عنده ، ولولا ذلك لمَّا كانت شريعة القبط تخوله ذلك ، فقد قيل : إن شرعهم في جزاء السارق أن يؤخذ منه الشيء ويضرب ويغـرم ضعفي المسروق أو ضعفي قيمتـه . وعـن مجـاهد « في ديـن الملك » أي حكمـه وهو استرقـاق السراق . وهو الذي يقتضيه ظـاهر الآيـة لقوله « مـا كان ليأخذ أخـاه في دِين الملك » أي لولا حيلة وضع الصُّواع في متاع أخيه . ولعل ذلك كان حكمـا شائعـا في كثير من الأمم . ألا ترى إلى قولهم « من وُجد في رحلـه فهو جزَاوه » كمـا تقدم ، أي أن ملك مصر كان عادلًا فلا يُؤخذ أحـد في بلاده بغير حق . ومثلـه مـا كان في شرع الرومـان من استرقاق المدين ، فتعين أن المراد بـالدّين الشريعة لا مطلق السلطـان .

ومعنى لام الجحود هنـا نفي أن يكون في نفس الأمر سبب يخول يوسف — عليه السلام — أخذ أخيـه عنده .

والاستثنـاء من عمـوم أسبـاب أخذ أخيـه المنفيـة . وفي الكلام حرف جر محذوف قبل (أن) المصدرية . وهو بـاء السببية التي يدل عليها نفي الأخذ . أي أسبـابه . فـالتقدير : إلا بـأن يشاء الله ، أي يُلهم تصوير حـالته ويأذن ليوسف — عليه السلام — في عَملـه بـاعتبـار مـا فيه من المصالح الجمـة ليوسف وإخوته في الحـال والاستقبـال لهم ولذريتهم .

وجملة « نرفعُ درجـاتٍ مَن نشاء » تذييل لقصة أخذ يوسف — عليه السلام — أخـاه لأن فيهـا رفـع درجة يوسف — عليه السلام — في الحـال بالتدبير الحكيم من وقت منـاجـاتـه أخاه إلى وقت استخراج السقـاية من رحلـه . ورفـع درجـة أخيـه في الحـال بـإلحـاقه ليوسف — عليـه السلام — في العيش الرفيـه والكمـال بتلقي الحكمة من فيـه . ورفـع درجـات إخوتـه وأبيـه في الاستقبـال بسبب رفع درجـة يوسف — عليه السلام — وحنوه عليهم . فـالدرجـات مستعـارة لقوة الشرف من

استعـارة المحسوس للمعقول . وتقدم في قولـه تعـالى « وللرجال عليهن درجـة » في سورة البقرة . وقولـه « لهم درجـات عند ربهم » في سورة الأنفـال .

وجملة « وفوق كل ذي علم عليم » تذييل ثـان لجملـة « كذلك كـدنـا ليـوسف » الآيـة .

وفيهـا شاهد لتفـاوت الناس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مـداه . وأنـه فوق كل نهـاية من علم النـاس .

والفوقيـة مجـاز في شرف الحال ، لأن الشرف يشبّه بـالارتفـاع .

وعبر عن جنس المتفوق في العلم بوصف « عَليم » باعتبـار نسبتـه إلى من هو فوقـه إلى أن يبلغ إلى العليـم المطلق سبحـانـه .

وظـاهر تنـكير « عليم » أن يـراد بـه الجنس فيعم كلّ موصوف بقوة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعـالى . فعمـوم هذا الحكم بـالنسبة إلى المخلوقـات لا إشكال فيه . ويتعين تخصيص هذا العموم بالنسبة إلى الله تعـالى بدليل العقل إذ ليس فوق الله عليـم .

وقد يحمـل التنـكير على الوحدة ويكون المراد عليم واحد فيكون التنكير للوحدة والتعظيم . وهو الله تعـالى فلا يحتـاج إلى التخصيص .

وقرأ الجمهـور « درجـاتِ من نشاء » بـإضافة « درجـات » إلى « من نشاء » . وقرأه حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف بتنوين « درجاتٍ » على أنه تمييز لتعلق فعل «نرفـع» بمفعولـه وهو « من نشاء » .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

لما بُهتوا بوجود الصُّوَاع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت فاعتذروا عن دعواهم تنزههم عن السرقة . إذ قالوا « وما كنا سارقين » . عذرا بأن أخاهم قد تسرّبت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أن أخاه الذي أشيع فقده كان سرق من قبلُ . وقد علم فتيان يوسف – عليه السلام – أن المتهم أخ من أمّ أخرى . فهذا اعتذار بتعريض بجانب أمّ أخويهم وهي زوجة أبيهم وهي (راحيل) ابنة (لابان) خالِ يعقوب – عليه السلام – .

وكان ليعقوب – عليه السلام – أربع زوجات : (راحيل) هذه أم يوسف – عليه السلام – وبنيامين ؛ و (لِيئة) بنت لابان أخت راحيل وهي أم رُوبين ، وشمعون ، ولاوي ، ويهوذا ، وبساكر ، وزبولون ؛ و (بُلْهَة) جارية راحيل وهي أم دانا ، ونفتالي ؛ و (زُلفة) جارية راحيل أيضا وهي أم جاد ، وأشير .

وإنما قالوا : قد سرق أخ له من قبل بهتانا ونفيا للمعرة عن أنفسهم . وليس ليوسف – عليه السلام – سرقة من قبل ، ولم يكن إخوة يوسف – عليه السلام – يومئذ أنبياء . وشتان بين السرقة وبين الكذب إذا لم تترتب عليه مضرة .

وكان هذا الكلام بمسمع من يوسف – عليه السلام – في مجلس حكمه .

وقوله « فأسرها يوسف » يجوز أن يعود الضمير البارز إلى جملة « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » على تأويل ذلك القول بمعنى المقالة على نحو قوله تعالى « إنها كلمة هو قائلها » بعد قوله « ربّ ارجعون لعلّيَ أعمل صالحا فيما تركت » . ويكون معنى « أسرها في نفسه » أنه تحملها ولم يظهر

غضبا منها . وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه . وإلى هذا التفسير ينحو أبو علي الفارسي وأبو حيان . ويكون قوله « قال أنتم شر مكانا » كلاما مستأنفا حكايةً لما أجابهم به يوسف – عليه السلام – صراحة على طريقة حكاية المحاورة . وهو كلام موجه لا يقتضي تقرير ما نسبوه إلى أخي أخيهم . أي أنتم أشدّ شرّا في حالتكم هذه لأنّ سرقتكم مشاهدة وأما سرقة أخي أخيكم فمجرد دعوى . وفعل « قال » يرجح هذا الوجه .

ويجوز أن يكون ضمير الغيبة في « فأسرها » عائدا إلى ما بعده وهو قوله « قال أنتم شر مكانا » . وبهذا فسر الزجاج والزمخشري . أي قال في نفسه . وهو يشبه ضمير الشأن والقصة . لكن تأنيثه بتأويل المقولة أو الكلمة . وتكون جملة « قال أنتم شر مكانا » تفسيرا للضمير في « أسرها » .

والإسرار . على هذا الوجه . مستعمل في حقيقته . وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع .

وجملة « ولم يبدها لهم » قيل هي توكيد لجملة « فأسرّها يوسف » . وشأن التوكيد أن لا يعطف . ووجه عطفها ما فيها من المغايرة للتي قبلها بزيادة قيد لهم المشعر بأنه أبدى لأخيه أنهم كاذبون . ويجوز أن يكون المراد لم يُبدِ لهم غَضَبا ولا عقابا كما تقدم مبالغة في كظم غيظه . فيكون في الكلام تقدير مضاف مناسب . أي لم يُبْد أثرها .

و « شرّ » اسم تفضيل . وأصله أشرّ . و « مكانا » تمييز لنسبة الأشرّ .

وأطلق المكان على الحالة على وجه الاستعارة . والحالة هي السرقة . وإطلاق المكان والمكانة على الحالة شائع . وقد تقدم عند قوله تعالى « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم » في آخر سورة الأنعام . وهو تشبيه الاتّصاف بوصف مّا بالحلول في مكان . والمعنى أنهم لما علّلوا سرقة أخيهم بأن أخاه من قبل قد سرق فإذا كانت سرقة سابقة من أخ أعدّت أخاه الآخر للسرقة . فهم وقد سبقهم أخوانّ

بالسرقة أجدر بأن يكونوا سارقين من الذي سبقه أخ واحد. والكلام قابل للحمل على معنى أنتم شر حالة من أخيكم هذا والذي قبله لأنهما بريئان مما رميتموهما به وأنتم مجرمون عليهما إذ قذفتم أونهما في الجب. وأيدتم تهمة ثانيهما بالسرقة.

ثم ذيله بجملة «والله أعلم بما تصفون». وهو كلام جامع، أي الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم. والمراد: أنه يعلم كذبهم. فالمراد: أعلم بحال ما تصفون.

﴿قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾

نَادَوْا يوسف بوصف العزيز إمّا لأنّ كلّ رئيس ولاية مهمة يدعى بما يرادف العزيز فيكون يوسف – عليه السلام – عزيزا، كما أن رئيس الشرطة يدعى العزيز كما تقدم في قوله تعالى «امرأة العزيز»؛ وإما لأن يوسف ضمت إليه ولاية العزيز الذي اشتراه فجمع التصرفات وراجعوه في أخذ أخيهم.

ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه. وهي: حنان الأبوة؛ وصفة الشيخوخة. واستحقاقه جبر خاطره لأنه كبير قومه أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه؛ فالأوصاف مسوقة للحث على سراح الابن لا لأصل الفائدة لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف – عليه السلام – بخبر أبيهم.

والمراد بالكبير: إما كبير عشيرته فإساءته تسوءهم جميعا ومن عادة الولاة استجلاب القبائل. وإما أن يكون «كبيرا» تأكيداً لـ«شيخا» أي بلغ الغاية في

الكبر من السن . ولذلك فرّعوا على ذلك « فخذ أحدنا مكانه » ، إذ كان هو أصغر الإخوة . والأصغر أقرب إلى رقة الأب عليه .

وجملة « إنا نراك من المحسنين » تعليل لإجابة المطلوب لا للطلب . والتقدير : فلا تردّ سؤالنا لأنّا نراك من المحسنين فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أبا شيخا كبيرا .

والمكان : أصله محل الكون ، أي ما يستقر فيه الجسم ، وهو هنا مجاز في العوض لأن العوض يضعه آخذه في مكان الشيء المعوّض عنه كما في الحديث « هذه مَكانُ حجتك » .

و « معاذ » مصدر ميمي اسم للعوْذ ، وهو اللجَأ إلى مكان للتحصن . وتقدم قريبا عند قوله « قال مَعاذ الله إنه ربي أحسن مثواي » .

وانتصب هذا المصدر على المفعولية المطلقة نائبا عن فعله المحذوف . والتقدير : أعوذ بالله مَعاذًا . فلما حُذف الفعل جعل الاسم المجرور بباء التعدية متصلا بالمصدر بطريق الإضافة فقيل : معاذَ الله ، كما قالوا : سبحان الله ، عوضا عن أسبح الله . والمستعاذ منه هو المصدر المنسبك من « أن نأخذ إلاّ مَن وَجدنا متاعنا عنده » . والمعنى : الامتناع من ذلك ، أي نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا حقّ لنا في أخذه . أي أن يعصمنا من الظلم لأن أخذ من وُجِد المتاع عنده صار حقا عليه بحكمه على نفسه ، لأن التحكيم له قوة الشريعة . وأما أخذ غيره فلا يسوغ إذ ليس لأحد أن يسترقّ نفسه بغير حكم . ولذلك علل الامتناع من ذلك بأنه لو فعله لكان ذلك ظلما .

ودليل التعليل شيئان : وقوع (إنّ) في صدر الجملة . والإتيانُ بحرف الجزاء وهو (إذن) .

وضمائر « نأخذ » و « وجدنا » و « متاعنا » و« إنّا » و« لظالمون » مراد بها المتكلم وحده دون مشارك ، فيجوز أن يكون من استعمال ضمير الجمع في

التعظيم حكاية لعبارته في اللغة التي تكلم بها فإنه كان عظيم المدينة . ويجوز أن يكون استعمل ضمير المتكلم المشارك تواضعا منه تشبيها لنفسه بمن له مشارك في الفعل وهو استعمال موجود في الكلام. ومنه قوله تعالى حكاية عن الخضر – عليه السلام – « فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما » الآية من سورة الكهف .

وإنما لم يكاشفهم يوسف – عليه السلام – بحاله ويأمرهم بجلب أبيهم يومئذ : إمّا لأنه خشي إن هو تركهم إلى اختيارهم أن يكيدوا لبنيامين فيزعموا أنهم يرجعون جميعا إلى أبيهم فإذا انفردوا ببنيامين أهلكوه في الطريق ، وإما لأنه قد كان بين القبط وبين الكنعانيين في تلك المدة عداوة فخاف إن هو جلّب عَشيرته إلى مصر أن تتطرق إليه وإليهم ظنون السوء من ملك مصر فتريّث إلى أن يجد فرصة لذلك ، وكان الملك قد أحسن إليه فلم يكن من الوفاء له أن يفعل ما يكرهه أو يسيءُ ظنه . فترقب وفاة الملك أو السعي في إرضائه بذلك ، أو أراد أن يستعلم من أخيه في مدة الانفراد به أحوال أبيه وأهلهم لينظر كيف يأتي بهم أو ببعضهم . وسنذكره عند قوله « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف » .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٱرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰأَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

« استيأسوا » بمعنى يئسوا فالسين والتاء للتأكيد . ومثلها « فاستجاب له ربه » و « استعصَم » .

واليأس منه : اليأس من إطلاقه أخاهم . فهو من تعليق الحكم بالذات . والمراد بعض أحوالها بقرينة المقام للمبالغة .

وقرأ الجمهور « استيأسوا » بتحتية بعد الفوقية وهمزة بعد التحتية على أصل التصريف . وقرأه البزي عن ابن كثير بخلف عنه بألف بعد الفوقية ثم تحتية على اعتبار القلب في المكان ثم إبدال الهمزة .

و « خلصوا » بمعنى اعتزلوا وانفردوا . وأصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط . ومنه قول عبد الرحمان بن عوف لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – في آخر حجة حجّها حيث عزم عمر – رضي الله عنه – على أن يخطب في الناس فيحذرهم من قوم يريدون المزاحمة في الخلافة بغير حق ، قال عبد الرحمان بن عوف – رضي الله عنه – : « يا أمير المؤمنين إن المَوسم يجمع رَعاع الناس فأمهل حتى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه ... » إلخ .

والنجيّ : اسم من المناجاة . وانتصابه على الحال . ولما كان الوصف بالمصدر يلازم الإفراد والتذكير كقوله تعالى « وإذْ هم نجوى » . والمعنى : انفردوا تناجيا . والتناجي : المحادثة سرا . أي متناجين .

وجملة « قال كبيرهم » بدل من جملة « خَلَصُوا نَجِيا » وهو بدل اشتمال ، لأن المناجاة تشتمل على أقوال كثيرة منها قَول كبيرهم هذا . وكبيرهم هو أكبرهم سنا وهو (رُوبين) بِكرُ يعقوب – عليه السلام – .

والاستفهام في « ألم تعلموا » تقريري مستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه .

وجملة « ومن قبلُ ما فرّطتم » جملة معترضة ، و (ما) مصدرية . أي تفريطكم في يوسف – عليه السلام – كان من قبل المَوثق . أي فهو غير مصدقكم فيما

تخبرون به من أخذ بنيامين في سرقة الصُّوَاع . وفرع عليه كبيرهم أنه يبقى في مصر ليكون بقاؤه علامة عند يعقوب – عليه السلام – يعرف بها صدقهم في سبب تخلف بنيامين ، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبا لولا خوفه من أبيه ، ولا يرضى بقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق .

وقوله « أو يحكم الله لي » ترديد بين ما رسمه هو لنفسه وبين ما عسى أن يكون الله قد قدره له مما لا قبل له بدفعه . فحذف متعلّق « يحكم » المجرور بالباء لتنزيل فعل (يحكم) منزلة ما لا يطلب متعلقا .

واللام للأجل ، أي يحكم الله بما فيه نفعي . والمراد بالحكم التقدير .

وجملة « وهو خير الحاكمين » تذييل . و « خير الحاكمين » إن كان على التعميم فهو الذي حكمه لا جور فيه أو الذي حكمه لا يستطيع أحد نقضه ، وإن كان على إرادة وهو خير الحاكمين لي فالخبر مستعمل في الثناء للتعريض بالسؤال أن يقدر له ما فيه رأفة في رد غربته .

وعدم التعرّض لقول صدَر من بنيامين يدافع به عن نفسه يدل على أنه لازم السكوت لأنه كان مطلعا على مراد يوسف – عليه السلام – من استبقائه عنده ، كما تقدم في قوله « آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك » .

ثم لقّنهم كبيرهم ما يقولون لأبيهم . ومعنى « وما كنّا للغيب حافظين » احتراس من تحقق كونه سرق . وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه .

والغيب : الأحوال الغائبة عن المرء . والحفظ : بمعنى العلم .

وسؤال القرية مجاز عن سؤال أهلها . والمراد بها مدينة مصر . والمدينة والقرية مترادفتان . وقد خصت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة .

والمراد بالعير التي كانوا فيها رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من

أرض كنعان ، فأما سؤال العير فسهل وأما سؤال القرية فيكون بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب بنفسه إن أراد الاستثبات .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

جعلت جملة « قال بل سوّلت » في صورة الجواب عن الكلام الذي لقّنه أخوهم على طريقة الإيجاز . والتقدير : فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقّنه إيّاهم (روبين) قال أبوهم : بل سولت ... الخ .

وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أن يوسف – عليه السلام – أكله الذئب ، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم . قال ابن عطية « ظنّ بهم سوءاً فصدق ظنّه في زعمهم في يوسف – عليه السلام – ولم يتحقق ما ظنّه في أمر بنيامين » أي أخطأ في ظنه بهم في قضية (بنيامين) ، ومستنده في هذا الظن علمه أن ابنه لا يسرق ، فعلم أن في دعوى السرقة مكيدة . فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل . وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف – عليه السلام – فإنه كان قال لهم « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » . ويجوز على النبيء الخطأ في الظنّ في أمور العادات كما جاء في حديث ترك إبّار النخل .

ولعله اتّهم روبين أن يكون قد اختفى لترويج دعوى إخوته . وضمير « بهم » ليوسف – عليه السلام – وبنيامين وروبين . وهذا كشف منه إذ لم ييأس من حياة يوسف – عليه السلام – .

وجملة « إنه هو العليم الحكيم » تعليل لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرقة . حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق .

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَـٰاللهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَىٰ ٱللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

انتقال إلى حكاية حال يعقوب – عليه السلام – في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه . فالتولي حاصل عقب المحاورة . و « تولى » : انصرف ، وهو انصراف غضب .

ولما كان التولي يقتضي الاختلاء بنفسه ذكر من أحواله تجدد أسفه على يوسف – عليه السلام – فقال « يا أسفا على يوسف » . والأسف : أشد الحزن . أسِف كحزن .

ونداء الأسف مجاز . نزّل الأسف منزلة من يعقل فيقول له : احضر فهذا أوان حضورك . وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف .

والألف عوض عن ياء المتكلم فإنها في النداء تبدل ألفا .

وإنما ذكر القرآن تحسّره على يوسف – عليه السلام – ولم يذكر تحسره على ابنيه الآخرين لأن ذلك التحسّر هو الذي يتعلق بهذه القصة فلا يقتضي ذكرُه أن يعقوب – عليه السلام – لم يتحسّر قط إلاّ على يوسف ، مع أن الواو لا تفيد ترتيب الجمل المعطوفة بها .

وكذلك عطف جملة « وابيضّت عيناه من الحُزن » إذ لم يكن ابيضاض عينيه إلا في مدة طويلة . فكان من التولّي والتحسر وابيضاض العينين من أحواله إلاّ أنها مختلفة الأزمان .

وابيضاض العينين : ضعْف البصر . وظاهره أنه تبدّل لون سوادهما من الهزال . ولذلك عبّر بـ « ابيضت عيناه » دون عميت عيناه .

و (من) في قوله « من الحزن » سببية . والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين . وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار كما قال الحارث بن حلزة :

قبل ما اليوم بيّضَتْ بعيون النـــاس فيها تغيض وإباء

وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر . فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار ؛ على أن البكاء من الحزن أمر جبليّ فلا يستغرب صدوره من نبيء ؛ أو أن التصبّر عند المصائب لم يكن من سنة الشريعة الإسرائيلية بل كان من سننهم إظهار الحَزَن والجزع عند المصائب . وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى — عليه السلام — أربعين يوما ؛ وحكت تمزيق بعض الأنبياء ثيابهم من الجزع . وإنما التصبر في المصيبة كمال بلغت إليه الشريعة الإسلامية .

والكظيم : مبالغة للكاظم . والكَظم : الإمساك النفساني ؛ أي كاظم للحزن لا يظهره بين الناس ؛ ويبكي في خلوته ؛ أو هو فعيل بمعنى مفعول ؛ أي محزون كقوله « وهو مكظوم » .

وجملة « قالوا تالله » محاورة بنيه إياه عندما سمعوا قوله « يا أسفا على يوسف » وقد قالها في خلوته فسمعوها .

والتاء حرف قسم ، وهي عوض عن واو القسم . قال في الكشاف في سورة الأنبياء : « التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب » . وسلمه في مغني اللبيب؛

وفسره الطيبي بأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم .

وجواب القسم هو « تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسف » باعتبار ما بعده من الغاية ؛ لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف – عليه السلام – وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف . وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد لأنه لو كان مثبتا لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا .

ومعنى « تفتأ » تفتر . يقال : فتىء من باب علم . إذا فتر عن الشيء . والمعنى : لا تفتر في حال كونك تذكر يوسف . ولملازمة النفي لهذا الفعل ولزوم حال يعقب فاعله صار شبيها بالأفعال الناقصة .

و « حَرَضا » مصدر هو شدة المرض المشفي على الهلاك . وهو وصف بالمصدر ، أي حتى تكون حرضا . أي باليًا لا شعور لك . ومقصودهم الإنكار عليه صدّا له عن مداومة ذكر يوسف – عليه السلام – على لسانه لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه .

وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنه يذكر أمرًا لا طمع في تداركه ، فأجابهم بأن ذكره يوسف – عليه السلام – موجه إلى الله دُعاءً بأن يردّه عليه . فقوله « يا أسفا على يوسف » تعريض بدعاء الله أن يزيل أسفه بردّ يوسف – عليه السلام – إليه لأنه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنه بأرض غربة مجهولة . وعلم ذلك بوحي أو بفراسة صادقة وهي المسماة بالإلهام عند الصوفية .

فجملة « إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله » مفيدة قصر شكواه على التعلّق باسم الله، أي يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن. فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة وهي عبادة لأن الدعاء عبادة . وصار ابيضاض عينيه الناشيء عن التذكر

الناشيء عن الشكوى أثرا جسديا ناشئا عن عبادة مثل تفطّر أقدام النبيء – صلى الله عليه وسلم – من قيام الليل .

والبثّ : الهمّ الشديد ، وهو التفكير في الشيء المُسيء . والحزن : الأسف على فائت . فبينَ الهمّ والحزنِ العمومُ والخصوص الوجهي ، وقد اجتمعا ليعقوب – عليه السلام – لأنه كان مهتمّا بالتفكير في مصير يوسف – عليه السلام – وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفا على فراقه .

وقد أعقب كلامه بقوله « وأعلَمُ من الله ما لا تعلمون » لينبّههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العَالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه ، أي أنا أعلم علما من عند الله علّمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة . وقد تقدم نظير هذه الجملة في قصة نوح – عليه السلام – من سورة الأعراف فهي من كلام النبوءة الأولى . وحكي مثلها عن شعيب – عليه السلام – في سورة الشعراء .

وفي هذا تعريض برد تعرضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالا سيقع .

ثم صرح لهم بشيء ممّا يعلمه وكاشفهم بما يحقق كذبهم ادعاء اتكال الذئب يوسف – عليه السلام – حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى فقال « يا بني اذهَبُوا فتَحسّسوا من يوسف وأخيه » .

فجملة « يا بني اذهبوا » مستأنفة استئنافا بيانيا ، لأن في قوله « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ما يثير في أنفسهم ترقب مكاشفته على كذبهم فإن صاحب الكيد كثير الظنون « يحسبون كل صيحة عليهم » .

والتحسّس – بالحاء المهملة – : شدة التطلّب والتعرّف، وهو أعم من التجسس – بالجيم – فهو التطلّب مع اختفاء وتستر .

والرَّوْح – بفتح الراء : النفَس – بفتح الفاء – استعير لكشف الكرب لأن الكرب والهمّ يطلق عليهما الغَمّ وضيق النفَس وضيق الصدر ، بكذلك يطلق التنفس والتروح على ضد ذلك، ومنه استعارة قولهم: تنفس الصبح إذا زالت ظلمة الليل.

وفي خطـابهم بوصف البُنُوّة منه ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثـال .

وجملـة « إنـه لا ييـأس من رَوح الله إلا القوم الـكافرون » تعليـل للنهي عن اليـأس ، فموقع (إنّ) التعليـل . والمعنى : لا تيـأسوا من الظفر بيوسف – عليه السلام – معتلين بطول مدة البعد التي يبعد معهـا اللقـاء عـادة . فـإن الله إذا شـاء تفريـج كربـة هيّأ لهـا أسبـابهـا ، ومن كان يؤمن بـأن الله واسع القدرة لا يُحيـل مثـل ذلك فحقّه أن يـأخذ في سببـه ويعتمـد على الله في تيسيـره ، وأمـا القوم الـكـافرون بـالله فهم يقتصرون على الأمـور الغـالبـة في العـادة وينـكرون غيرهـا .

وقرأ البزي بخُلف عنه « ولا تـأْيَسُوا – وإنـه لا يَـأيس » بتقديم الهمزة على اليـاء الثـانيـة ، وتقدم في قوله « فلمّا استيـأسوا منـه » .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

الفـاء عـاطفـة على كلام مقدّر دل عليه المقـام ، أي فـارتحلـوا إلى مصر بقصد استطلاق بنيـاميـن من عزيـز مصر ثم بـالتعرض إلى التحسّس من يـوسف – عليه السلام – ، فوصلوا مصر ، فدخلوا على يوسف ، فلما دخلوا عليه الـخ ...

وقد تقدمَ آنفـا وجـه دعـائهـم يـوسف – عليه السلام – بـوصف العـزيـز .

وأرادوا بمسّ الضر إصَابتـه . وقد تقدم إطلاق مسّ الضرّ على الإصابـة عند قـولـه تعـالى « وإن يَمْسَسْكَ الله بضر » في سورة الأنعـام .

والبضاعة تقدمت آنفـا . والمزجـاة : القليلـة التي لا يرغب فيهـا فـكـأنّ صاحبهـا يُزجيهـا ، أي يدفعهـا بـكلفـة ليقبلهـا المدفـوعة إليـه . والمراد بهـا مـال

قليل للامتيار، ولذلك فرع عليه «فأوف لنا الكيل». وطلبوا التصدّق منه تعريضا بإطلاق أخيهم لأن ذلك فضل منه إذْ صار مملوكا له كما تقدم.

وجملة «إن الله يجزي المتصدّقين» تعليل لاستدعائهم التصدّق عليهم.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

الاستفهام مستعمل في التوبيخ.

و (هل) مفيدة للتحقيق لأنها بمعنى (قد) في الاستفهام. فهو توبيخ على ما يعلمونه محققا من أفعالهم مع يوسف – عليه السلام – وأخيه، أي أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ. وهي بالنسبة ليوسف – عليه السلام – واضحة، وأما بالنسبة إلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به مع أخيه يوسف – عليه السلام – من الإهانة التي تنافيها الأخوة. ولذلك جعل ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله «إذ أنتم جاهلون».

وفيه تعريض بأنهم قد صلح حالهم من بعد. وذلك إما بوحي من الله إن كان صار نبيئا أو بالفراسة لأنه لما رآهم حريصين على رغبات أبيهم في طلب

فداء (بنيامين) حين أُخذ في حكم تهمة السرقة وفي طلب سراحه في هذا الموقف مع الإلحاح في ذلك وكان يعرف منهم معاكسة أبيهم في شأن بنيامين علم أنهم ثابوا إلى صلاح .

وإنما كاشفهم بحاله الآن لأن الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله إلى السكنى بأرض ولايته . وذلك كان متوقفا على أشياء لعلها لم تتهيأ إلا حينئذ . وقد أشرنا إلى ذلك عند قوله تعالى « قال مَعاذ الله أن نأخذ إلاّ مَن وجدنا متاعَنا عنده » فقد صار يوسف – عليه السلام – جِدّ مكين عند فرعون .

وفي الإصحاح 45 من سفر التكوين أن يوسف – عليه السلام – قال لإخوته حينئذ « وهو – أي الله – قد جعلني أبا لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلطا على كل أرض مصر » . فالظاهر أن الملك الذي أطلق يوسف – عليه السلام – من السجن وجعله عزيز مصر قد توفّي وخلفه ابن له فحجبه يوسفُ – عليه السلام – وصار للملك الشاب بمنزلة الأب ، وصار متصرّفا بما يريد ، فرأى الحال مساعدا لجلب عشيرته إلى أرض مصر .

ولا تعرف أسماء ملوك مصر في هذا الزمن الذي كان فيه يوسف – عليه السلام – لأن المملكة أيامئذ كانت منقسمة إلى مملكتين : إحداهما ملوكها من القبط وهم الملوك الذين يُقسمهم المؤرخون الإفرنج إلى العائلات الخامسة عشرة ، والسادسة عشرة ، والسابعة عشرة ، وبعض الثامنة عشرة .

والمملكة الثانية ملوكها من الهكسوس ، ويقال لهم : العمالقة أو الرعاة وهم عَرب .

ودام هذا الانقسام خمسمائة سنة وإحدى عشرة سنة من سنة 2214 قبل المسيح إلى سنة 1703 قبل المسيح .

وقولهم « أئنّك لأنت يوسف » يدل على أنهم استشعروا من كلامه ثم من ملامحه ثم من تفهم قَول أبيهم لهم « وأعلَمُ من الله ما لا تعلمون » إذ قد اتضح لهم المعنى التعريضي من كلامه فعرفوا أنه يتكلم مريدا نفسه .

وتـأكيـد الجملـة بـ (إنّ) ولام الابتـداء وضمير الفصل لشدة تحققهـم أنـه يـوسف عليه السلام .

وأدخـل الاستفهـام التقريـري على الجملـة المؤكّدة لأنهم تطلبـوا تـأييده لعلمهـم بـه .

وقرأ ابن كثير « إنك » بغير استفهام على الخبرية . والمراد لازم فائدة الخبر ، أي عرفنـاك . ألا تـرى أن جوابـه بـ « أنـا يـوسف » مجرد عن التـأكيد لأنهـم كانوا متحققين ذلك فلم يبـق إلاّ تـأييـده لذلك .

وقولـه « وهذا أخـي » خبر مستعمـل في التعجيب مـن جمـع الله بينهما بعـد طول الفرقـة . فجملة « قد منّ الله علينا » بيـان للمقصود من جملـة « وهذا أخي » .

وجملـة « إنـه من يتق ويصبر » تعليـل لجملـة « مَنّ الله علينْـا » . فيوسف - عليه السلام - اتّقى اللهَ وصبر وبينـامين صَبَر ولم يعْص الله فكـان تقيـا . أراد يوسف - عليه السلام - تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بـالصبر تعريضا بـأنهم لم يتقوا الله فيـه وفي أخيـه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إيـاهمـا عليهـم .

وهذا من أفـانين الخطـابـة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقـاء الموعظـة ، وهي فرصة تـأثر السامع وانفعـاله وظهـور شواهد صدق الواعظ في موعظتـه .

وذكر المحسنين وضعٌ للظـاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظـاهر أن يقـال : فـإن الله لا يضيـع أجرهُـم . فعدل عنه إلى المحسنين للدلالـة على أن ذلك من الإحسان ، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييـل ، ويدخل في عمومه هو وأخـوه .

ثم إن هذا في مقـام التحدث بـالنعمـة وإظهـار الموعظـة سائـغ للأنبيـاء لأنـه من التبليـغ كقول النبيء - صلى الله عليه وسلم - « إنّي لأتقـاكم لله وأعلمـكم بـه » .

والإيثـار : التفضيل بـالعطـاء . وصيغـة اليمين مستعملـة في لازم الفائدة ، وهي علمهم ويقينهم بأن ما ناله هو تفضيل من الله وأنهم عرفوا مرتبتَه ، وليس المقصود إفـادة تحصيل ذلك لأن يـوسف – عليه السلام – يعلمه . والمراد : الإيثـار في الدنيـا بمـا أعطـاه الله من النعـم .

واعترفوا بذنبهم إذ قـالوا « وإن كنا لخاطئين » . والخـاطىء : فاعل الخطيئة ، أي الجريمـة ، فنفعت فيهـم الموعظـة .

ولذلك أعلمهم بـأن الذنب قد غفر فرفع عنهم الذم فقـال « لا تثريب عليـكم » .

والتثريب : التوبيـخ والتقريـع . والظـاهـر أن منتهى الجملـة هو قـولـه « عليـكم » ، لأن مثل هذا القول مِـمّـا يجري مجرى المثل فيُبنـى على الاختصار فيكتفـى بـ « لا تثريبَ » مثل قولهم : لا بـاس ، وقوله تعـالى « لاَ وَزَرَ » .

وزيـادة « عليـكم » للتـأكيد مثل زيـادة (لَكَ) بعد (سقيـا ورعيـا) ، فلا يكون قولـه « اليوم » من تمـام الجملـة ولـكنـه متعلـق بفعل « يغفر الله لـكم » .

وأعقب ذلك بأن أعلمهُم بأن الله يغفر لهم في تلك الساعة لأنهـا ساعة توبة ، فـالذنب مغفور لإخبـار الله في شرائعـه السالفة دون احتيـاج إلى وحي سوى أن الوحي لمعرفة إخلاص تـوبتهـم .

وأطلق « اليوم » على الزمن ، وقد مضى عند قوله تعـالى « اليومَ يئس الذين كفـروا من دينـكم » في أول سورة العقـود .

وقوله « اذهبـوا بقميصي هذا » يدل على أنـه أعطـاهم قميصا ، فلعلّه جعل قميصه علامـة لأبيـه على حيـاته ، ولعلّ ذلك كان مصطلحـا عليه بينهما . وكـان للعـائـلات في النظـام القديـم علامـات يصطلحـون عليهـا ويحتفظون بهـا لتكون وسائل للتعـارف بينهم عند الفتن والاغتراب ، إذ كانت تعتريهم حوادث الفقد والفراق بـالغزو والغـارات وقطع الطريق ، وتلك العلامـات من لبـاس ومـن كلمات يتعـارفون بهـا وهي الشعـار ، ومن علامـات في البَدن وشَـامـات .

وفائدة إرساله إلى أبيه القميصَ أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر ، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر . ولقصد تعجيل المسرة له .

والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف – عليه السلام – بجلبه فإنّ قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصا ولا توجد أمثالها عند الناس وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم ، فجعل يوسف – عليه السلام – إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف – عليه السلام – بخبر صادق .

ومن البعيد مَا قيل : إن القميص كان قميص إبراهيم – عليه السلام – مع أن قميص يوسف قد جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب .

وأما إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبُشرى لأنه كان لا يبصر من بعيد فلا يتبين رفعة القميص إلا من قرب .

وأما كونه يصير بصيرا فحصل ليوسف – عليه السلام – بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين . ولعل يوسف – عليه السلام – نُبِّيءَ ساعتئذ .

وأدمج الأمر بالإتيان بأبيه في ضمن تبشيره بوجوده إدماجا بليغا إذ قال « يأت بصيرا » .

ثم قال « واتوني بأهلكم أجمعين » لقصد صلة أرحام عشيرته . قال المفسرون : وكانت عشيرة يعقوب – عليه السلام – ستا وسبعين نفسا بين رجال ونساء .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ فَلَمَّا أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَيٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

التقـديـر : فخرجوا وارتحلـوا في عيـر .

ومعنى « فصلتْ » ابتعدت عن المكان ، كما تقدم في قوله تعالى « فلما فصل طالـوت بـالجنود » في سورة البقـرة .

والعيـر تقدم آنفـا ، وهـي العير التي أقبلـوا فيهـا من فلسطين .

ووجدانُ يعقـوب ريـح يـوسف — عليهمـا السلام — إلهـام خـارق للعـادة جعله الله بشارة لـه إذ ذكره بشمه الريـح الذي ضمّخ به يوسف — عليه السلام — حين خروجه مـع إخوتـه وهذا من صنف الـوحي بـدون كلام ملك مُرسل . وهو داخل في قوله تعـالى « ومـا كان لبشر أن يـكلمـه الله إلا وحيـًا » .

والريـح : الرائحـة ، وهي مـا يعبق من طيب تـدركـه حـاسة الشم .

وأكـد هذا الخبر بـ (إنّ) والـلام لأنـه مظنـة الإنكـار ولذلك أعقبـه بـ « لولا أن تفنـدون » .

وجواب « لـولا » محذوف دلّ عليـه التـأكيد ، أي لـولا أن تفندوني لتحققتم ذلـك .

والتفنيد : النسبة للفنَد بفتحتين ، وهو اختـلال العقل من الخرف .

وحذفت يـاء المتكلم تخفيفـا بعد نـون الوقـاية وبقيت الكسرة .

والذين قـالوا « تـالله إنك لفـي ضلالك القـديم » هم الحـاضرون من أهلـه ولم يسبق ذكرهم لظهـور المراد منهم وليسوا أبناءه لأنهم كانوا سائرين في طريقهم إليـه .

والضلال : البُعْد عن الطريق الموصّلة . والظرفية مجاز في قوة الاتّصاف والتلبّس وأنه كتلبس المظروف بالظرف . والمعنى : أنك مستمر على التلبس بتطلب شيء من غير طريقه . أرادوا طمعه في لقاء يوسف – عليه السلام – . ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدّته ، وكانت مدة غيبة يوسف عن أبيه – عليهما السلام – اثنتين وعشرين سنة . وكان خطابهم إياه بهذا مشتملا على شيء من الخشونة إذ لم يكن أدب عشيرته منافيا لذلك في عرفهم .

و (أن) في قوله « فلما أن جاء البشير » مزيدة للتأكيد . ووقوع (أنْ) بعد (لمّا) التوقيتية كثير في الكلام كما في مغني اللّبيب .

وفائدة التأكيد في هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب – عليه السلام – لأنها خارق عادة ، ولذلك لم يؤت بـ (أن) في نظائر هذه الآية مما لم يكن فيه داع للتأكيد .

والبشير : فعيل بمعنى مُفعل ، أي المُبشر . مثل السميع في قول عمرو بن معد يكرب :

أمِن ريحانة الداعي السميع

والتبشير : المبادرة بإبلاغ الخبر المسرّ بقصد إدخال السرور. وتقدم عند قوله تعالى « يبشّرهم ربهم برحمة منه » في سورة براءة . وهذا البشير هو يهوذا بن يعقوب – عليه السلام – تقدم بين يدي العير ليكون أول من يخبر أباه بخبر يوسف – عليه السلام – .

وارتد : رجع . وهو افتعال مطاوع ردّه ، أي رد الله إليه قوة بصره كرامة له وليوسف – عليهما السلام – وخارقة للعادة. وقد أشرت إلى ذلك عند قوله تعالى « وابيضّت عيناه من الحزن » .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

جواب للبشارة لأنها تضمنت القول . ولذلك جاء فعل (قال) مفصولا غير معطوف لأنه على طريقة المحاورات ، وكان بقية أبنائه قد دخلوا فخاطبهم بقوله « ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » فبيّن لهم مجمل كلامه الذي أجابهم به حين قالوا « تالله تفتأ تذكر يوسف » الخ .

وقولهم « استغفر لنا ذنوبنا » توبة واعتراف بالذنب . فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله . وإنما وعدهم بالاستغفار في المستقبل إذ قال « سوف أستغفرُ لكم ربّي » للدلالة على أنه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل . ويعلم منه أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى ؛ ولكنه أراد أن ينبههم إلى عظم الذنب وعظمة الله تعالى وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة . وقيل : أخّر الاستغفار لهم إلى ساعة هي مظنة الإجابة . وعن ابن عباس مرفوعا أنه أخر إلى ليلة الجمعة . رواه الطبري . وقال ابن كثير : في رفعه نظر .

وجملة « إنه هو الغفور الرحيم » في موضع التعليل لجملة « أستغفر لكم ربي » . وأكد بضمير الفصل لتقوية الخبر .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

طوى ذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف — عليه السلام — إذ ليس فيه من العبر شيء .

وأبواه أحدهما يعقوب — عليه السلام — وأما الآخر فالصحيح أن أم يوسف — عليه السلام — وهي (راحيل) توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين . ولذلك قال جمهور المفسّرين : أطلق الأبوان على الأب وزوج الأب وهي (ليئة) خالة يوسف — عليه السلام — وهي التي تولت تربيته على طريقة التغليب والتنزيل .

وإعادة اسم يوسف — عليه السلام — لأجل بعد المعاد .

وقوله « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » جملة دعائية بقرينة قوله « إن شاء الله » لكونهم قد دخلوا مصر حينئذ . فالأمر في « ادخلوا » للدعاء كالذي في قوله تعالى « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم » .

والمقصود : تقييد الدخول بـ « آمنين » وهو مناط الدعاء .

والأمنُ : حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه . وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للانسان من الصحة والرزق ونحو ذلك . ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم — عليه السلام — « ربّ اجعل هذا البلد آمنا » إنه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد .

وجملة « إن شاء الله » تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمّن ، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع

التسمية في أول الكلام وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث : أن لا يقول اغفر لي إن شئت ، فإنه لا مُكره له لأن ذلك في الدعاء المخاطب به الله صراحة . وجملة « إن شاء الله » معترضة بين جملة « ادخلوا » والحال من ضميرها .

والعرش : سرير للقعود فيكون مرتفعا على سوق ، وفيه سعة تمكن الجالس من الاتّكاء . والسجود : وضع الجبهة على الأرض تعظيمًا للذات أو لصورتها أو لِذكرها ، قال الأعشى :

فلما أتانا بُعيد الكَرى   سَجدنا له ورفَعْنا العَمَارا(1)

وفعله قاصر فيعدى إلى مفعوله باللام كما في الآية .

والخرور : الهُوي والسقوط من علو إلى الأرض .

والذين خروا سُجدًا هم أبواه وإخوته كما يدل له قوله « هذا تأويل رؤياي » وهم أحد عشر وهم : رأوبين . وشمعون . ولاوي . ويهوذا . ويساكر ، وربولون ، وجاد ، وأشير . ودان . ونفتالي ، وبنيامين . والشمس ، والقمر ، تعبيرهما أبواه يعقوب — عليه السلام — وراحيل .

وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم . ولم يكن يومئذ ممنوعا في الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقا لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية . ولذلك فلا يعدّ قبوله السجودَ من أبيه عقوقًا لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم .

والأحسن أن تكون جملة « وخروا » حالية لأن التحية كانت قبل أن يرفع أبويه على العرش ، على أن الواو لا تفيد ترتيبا .

و « سُجّدًا » حال مبيّنة لأن الخرور يقع بكيفيات كثيرة .

---

(1) العمار — بفتح العين المهملة وتخفيف الميم — هو الريحان او الآس كانوا يحملونه عند تحية الملوك قال النابغة :   يحيون بالريحان يوم السباسب

والإشارة في قوله « هـذا تـأويل رؤيـاي » إشارة إلى سجود أبويه وإخوتـه لـه هو مصداق رؤيـاه الشمس والقمر وأحـد عشر كوكبـا سُجدا لـه . .

وتـأويـل الرؤيـا تقدم عند قولـه « نبّئنـا بتـأويلـه » .

ومعنى « قد جعلها ربّي حقّا » أنها كانت من الأخبار الرمزية التي يكاشِف بهـا العقل الحوادث المغيبـة عن الحس ، أي ولم يجعلهـا بـاطلا من أضغـاث الأحلام النـاشئـة عن غلبـة الأخلاط الغـذائيـة أو الانحرافـات الدمـاغيـة .

ومعنى « أحسن بي » أحسن إليّ . يقـال : أحسن به وأحسن إليه ، من غير تضمين معنى فعل آخر . وقيل : هوَ بتضمين أحسن معنى لطف . وباء « بي » للملابسة أي جعل إحسانه ملابسا لـي ، وخصّ من إحسان الله إليـه دون مطلق الحضور لـلامتيـار أو الزيـادة إحسانين همّـا يـوم أخرجه من السجن ومجيء عشيرته من البـاديـة .

فـإن (إذْ) ظرف زمـان لفعل « أحسن » فهي بـإضافتهـا إلى ذلك الفعل اقتضت وقوع إحسان غير معدود ، فـإن ذلك الوقت كان زمنَ ثبوت براءته من الإثم الذي رمتـه بـه امـرأة العزيـز وتلك منـة ، وزمنَ خـلاصه مـن السجن فـإن السجـن عذاب النفس بالانفصال عن الأصدقاء والأحبّة ، وبخلطة من لا يشاكلونه ، وبشُغله عن خلـوة نفسه بتلقـي الآداب الإلهيـة ، وكـان أيضا زمن إقبـال الملك عليـه . وأما مجيء أهله فزوال ألم نفساني بوحشته في الانفراد عن قرابته وشوقه إلى لقائهم ، فـأفصح بذكر خروجه من السجن ، ومجيء أهلـه من البدوِ إلى حيث هو مـكين قويّ .

وأشار إلى مصائبه السابقـة من الإبقـاء في الجبّ ، ومشاهدة مكـر إخـوتـه بـه بقولـه « من بعد أنْ نـزَغ الشيطان بيني وبين إخوتي » ، فـكلمة (بعد) اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره . وقد ألم بـه إجمـالا اقتصارا على شـكر النعمـة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلـة بينـه وبين إخوتـه فمرّ بهـا مرّ الـكرام وباعدهـا عنهم بقدر الإمـكان إذ نـاطهـا بنزغ الشيطـان .

والمجيء في قوله «وجاء بكم من البدو» نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو.

والبَدْو: ضد الحضر، سمي بَدوًا لأن سكانه بادُون، أي ظَاهرون لكل وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب. وذكر «من البدو» إظهار لتمام النعمة، لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة.

والنزغ: مجاز في إدخال الفساد في النفس. شُبه بنزغ الراكب الدابّة وهو نخسها. وتقدم عند قوله تعالى «وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ» في سورة الأعراف.

وجملة «إن ربي لطيف لما يشاء» مستأنفة استئنافا ابتدائيا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها.

واللطف: تدبير الملائم. وهو يتعدّى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به، ويتعدى بالباء قال تعالى «الله لطيف بعباده». وقد تقدم تحقيق معنى اللطف عند قوله تعالى «وهو اللطيف الخبير» في سورة الأنعام.

وجملة «إنه هو العليم الحكيم» مستأنفة أيضا أو تعليل لجملة «إن ربي لطيف لما يشاء». وحرف التوكيد للاهتمام، وتوسيط ضمير الفصل للتقوية.

وتفسير «العليم» تقدم عند قوله تعالى «إنك أنت العليم الحكيم» في سورة البقرة. و «الحكيم» تقدم عند قوله «فاعلموا أن الله عزيز حكيم» أواسط سورة البقرة.

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي ٱلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾

أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربـه بـالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخره، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان وهما : نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم ، والثالثة أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام .

وجعـل الذي أوتيـه بعضا من الملك ومن التأويل لأن مـا أوتيـه بعض من جنس الملك وبعض من التأويل إشعـارا بـأن ذلك في جـانب مُلك الله وفي جـانب علمـه شيء قليـل . وعلى هذا يكون المـراد بـالمُلك التصرف العظيم الشبيـه بتصرف المَلِك إذ كان يـوسف – عليه السلام – هو الذي يُسير المَلِك برأيـه . ويجـوز أن يـراد بالمُلك حقيقتـه ويكون التبعيض حقيقيا . أي آتيتني بعض المُلك لأن المُلك مجمـوع تصرفـات في أمـر الرعيـة ، وكـان ليوسف – عليه السلام – من ذلك الحظُّ الأوفر ، وكذلك تـأويـل الأحـاديث .

وتقدم معنى تـأويـل الأحـاديث عند قولـه تعـالى « ويعلمك من تـأويـل الأحـاديث » في هـذه السورة .

و « فـاطر السمـاوات والأرض » نـداء محذوف حرف ندائـه . والفـاطر : الخـالق . وتقدم عند قوله تعـالى « قل أغيرَ الله أتّخذُ وليّا فـاطر السماوات والأرض » في سورة الأنعـام .

والولي : النـاصر ، وتقدم عند قوله تعـالى « قل أغير الله أتّخذُ وليّا » في سورة الأنعـام .

وجملـة « أنت وَلِيّي في الدنيـا والآخرة » من قبيـل الخبر في إنشاء الدعـاء وإن أمكن حملـه على الإخبـار بالنسبة لـولايـة الدنيا ، قيل لإثبـاته ذلك الشيء لولايـة الآخرة . فـالمعنى : كن وليـي في الدنيـا والآخرة .

وأشار بقولـه « توفني مسلما » إلى النعمـة العظمى وهي نعمة الدين الحق . فـإن طلب توفّيـه على الدين الحق يقتضي أنـه متصف بـالدين الحق المعبر عنـه بـالإسلام من الآن ، فهو يسأل الدوام عليـه إلى الوفـاة .

والمسلم : الذي اتصف بـالإسلام ، وهو الدين الكـامل . وهو مـا تعبّدَ اللهُ بـه الأنبيـاء والرسل — عليهم السلام — . وقد تقدم عند قوله تعالى « فـلا تموتن إلا وأنتم مسلمـون » في سورة البقرة .

والإلحـاق : حقيقتـه جعـل الشيء لاحقـا ، أي مُدركـا من سبقـه في السَّيْر . وأطلق هنـا مجـازا على المَزيد في عداد قوم .

والصالحون : المتصفون بـالصلاح : وهو التزام الطاعة . وأراد بهم الأنبياء . فـإن كان يـوسف — عليه السلام — يومئذ نبيئـا فـدعـاؤهُ لطلب الدوام على ذلك . وإن كان نُبّيء فيمـا بعـد فهو دعـاء بحصوله ؛ وقد صار نبيئـا بعـد ورسولا .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

تذييـل للقصة عـند انتهـائـهـا .

والإشارة إلى مـا ذُكر من الحوادث ، أي ذلك المذكور .

واسم الإشارة لتمييز الأنبـاء أكمـل تمييز لتتمكن من عقول السامعين لمـا فيهـا من المواعظ .

والغيب : مـا غـاب عن علم الناس ، وأصله مصدر غاب فسمي به الشيء الذي لا يشاهد . وتذكير ضمير «نوحيه» لأجـل مراعاة اسم الإشارة .

وضمائر « لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب ، يشمل إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ والسيارةَ ، وامرأةَ العزيز ، ونسوتَها .

و « أجْمَعُوا أمْرهم » تَفسيره مثل قوله « وأجمعوا أن يجعلوهُ في غيابَات الجب » .

والمكر تقدم ، وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة. وفيها منّة على النبيء ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وتعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي ، فإن صدور ذلك من النّبيء ــ صلى الله عليه وسلم ــ الأميّ آية كبرى على أنه وحي من الله تعالى . ولذلك عقب بقوله « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

وكان في قوله « وما كنتَ لديهم » توركًا على المشركين .

وجملة « وما كنت لديهم » في موضع الحال إذ هي تمام التعجيب .

وجملة « وهم يمكرون » حال من ضمير « أجمعوا » ، وأتي « يمكرون » بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾

انتقال من سوق هذه القصة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البينة : فالواو للعطف على جملة « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » باعتبار إفادتها أن هذا القرآن وحي من الله وأنه حقيق بأن يكون داعيا سامعيه إلى الإيمان بالنبيء ــ صلى الله عليه وسلم ــ . ولما كان ذلك من شأنه أن

يكون مطمعا في إيمانهم عقب بإعلام النبيء – صلى الله عليه وسلم – بأن أكثرهم لا يؤمنون .

و « الناس » يجوز حمله على جميع جنس الناس . ويجوز أن يراد به ناس معيّنون وهم القوم الذين دعاهم النبيء – صلى الله عليه وسلم – بمكّة وما حولها . فيكون عموما عرفيا .

وجملة « ولو حرصت » في موضع الحال معترضة بين اسم (ما) وخبرها .

(ولو) هذه وصلية . وهي التي تفيد أن شرطها هو أقصى الأسباب لجوابها . وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به » في سورة آل عمران .

وجواب (لو) هو « وما أكثر الناس » مقدّم عليها أو دليل الجواب .

والحرص : شدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته . وتقدم في قوله تعالى « حريص عليكم » في آخر سورة براءة .

وجملة « وما تسألهم عليه من أجر » معطوفة على جملة « وما أكثر الناس » إلى آخرها باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم . أي لا يسوءك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ بل إيمانهم لفائدتهم . كقوله « قل لا تَمنّوا عليّ إسلامكم » .

وضمير الجمع في قوله « وما تسألهم » عائد إلى الناس . أي الذين أرسل إليهم النبيء – صلى الله عليه وسلم – .

وجملة « إن هو إلا ذكرٌ للعالمين » بمنزلة التعليل لجملة « وما تسألهم عليه من أجر » . والقصر إضافي . أي ما هو إلا ذكر للعالمين لا لتحصيل أجرٍ مبلّغه .

وضمير (عليه) عائد إلى القرآن المعلوم من قوله « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليكَ » .

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

عطف على جملة « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » ، أي ليس إعراضهم عن آية حصول العلم للأمّي بما في الكتب السالفة فحسب بل هم معرضون عن آيات كثيرة في السماوات والأرض .

و (كأين) اسم يدل على كثرة العدد المبهم يبينه تمييز مجرور بـ (من) . وقد تقدم عند قوله تعالى « وكأيّن من نبيء قتل معه ربيون كثير » في سورة آل عمران .

والآية : العلامة . والمراد هنا الدالةُ على وحدانية الله تعالى بقرينة ذكر الإشراك بعدها .

ومعنى « يمرّون عليها » يرونها . والمرور مجاز مكنّى به عن التحقق والمشاهدة إذ لا يصح حمل المرور على المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات ، فالمرور هنا كالذي في قوله تعالى « وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً » .

وضمير « يمرون » عائد إلى الناس من قوله تعالى « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

وجملة « وما يؤمن أكثرهم بالله » في موضع الحال من ضمير « يمرّون » أي وما يؤمن أكثر الناس إلا وهم مشركون . والمراد بـ « أكثر الناس » أهل الشرك من العرب . وهذا إبطال لما يزعمونه من الاعتراف بأن الله خالقهم كما في قوله تعالى « ولئن سألتهم مَن خلق السماوات والأرض ليقولُنّ الله » ، وبأن إيمانهم بالله كالعدم لأنهم لا يؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره في الإلهية .

والاستثناء من عموم الأحوال . فجملة « وهم مشركون » حال من « أكثرهم » . والمقصود من هذا تشنيع حالهم . والأظهر أن يكون هذا من قبيل تأكيد الشيء

بما يشبه ضده على وجه التهكم . وإسناد هذا الحكم إلى « أكثرهم » باعتبار أكثر أحْوالهم وأقوالهم لأنهم قد تصدر عنهم أقوال خلية عن ذكر الشريك . وليس المراد أن بعضا منهم يؤمن بالله غير مشرك معه إلها آخر .

﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

اعتراض بالتفريع على ما دلت عليه الجملتان قبله من تفظيع حالهم وجرأتهم على خالقهم والاستمرار على ذلك دون إقلاع . فكأنهم في إعراضهم عن توقع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا أو تأتيهم الساعة بغتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب الخالد .

والاستفهام مستعمل في التوبيخ .

والغشْي والغشيان : الإحاطة من كل جانب « وإذا غَشيهم موْج كالظُلَل » . وتقدم في قوله تعالى « يُغشي اللّيل النهار » في سورة الأعراف .

والغاشية : الحادثة التي تحيط بالناس . والعرب يؤنثون هذه الحوادث مثل الطامّة والصاخّة والداهية والمصيبة والكارثة والحادثة والواقعة والحاقّة .

والبغتة : الفَجأة . وتقدمت عند قوله تعالى « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » في آخر سورة الأنعام .

﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصة للنبيء – صلى الله عليه وسلم – الأميّ على صدق نبوءته وصدقه فيما جاء به من التوحيد إلى

الاعتبار بجميع ما جاء به من هذه الشريعة عن الله تعالى . وهو المعبّر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة لإبلاغها إلى المطلوب وهو الفوز الخالد كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر. وهي استعارة متكررة في القرآن وفي كلام العرب .

والسبيل يؤنث كما في هذه الآية . ويذكّر أيضا كما تقدم عند قوله تعالى « وإن يَروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا » في سورة الأعراف .

والجملة استئناف ابتدائي معترضة بين الجمل المتعاطفة .

والإشارة إلى الشريعة بتنزيل المعقول منزلة المحسوس لبلوغه من الوضوح للعقول حدا لا يخفى فيه إلا عمّن لا يُعدّ مُدْرِكا .

وما في جملة « هذه سبيلي » من الإبهام قد فسرته جملة « أدعو إلى الله على بصيرة » .

و (على) فيه للاستعلاء المجازي المراد به التمكن . مثل « على هدًى من ربهم » .

والبصيرة : فعيلة بمعنى فاعلة . وهي الحجة الواضحة . والمعنى : أدعو إلى الله ببصيرة متمكنا منها . ووصف الحجة ببصيرة مجاز عقلي . والبصير : صاحب الحجة لأنه بها صار بصيرا بالحقيقة . ومثله وصف الآية بمبصرة في قوله « فلما جاءتهم آياتنا مُبصرة » . وبعكسه يوصف الخفاء بالعمى كقوله « وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم » .

وضمير « أنا » تأكيد للضمير المستتر في « أدعو ». أتي به لتحسين العطف بقوله « ومن اتّبعني » . وهو تحسين واجب في اللغة .

وفي الآية دلالة على أن أصحاب النبيء – صلى الله عليه وسلّم – والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون . وقد قاموا بذلك

بوسائل بث القرآن وأركان الإسلام والجهاد في سبيل الله . وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في صدر زمان البعثة المحمدية واجبا على الأعيان لقول النبيء – صلى الله عليه وسلم – « بلّغوا عنّي ولو آية » أي بقدر الاستطاعة . ثم لمّا ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليه واجبا على الكفاية كما دل عليه قوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » الآية في سورة آل عمران .

وعُطفت جملة « وَسبحانَ الله » على جملة « أدعو إلى الله ». أي أدعو إلى الله وأنزهه .

وسبحان : مصدر التسبيح جاء بدلا عن الفعل للمبالغة . والتقدير : وأسبح الله سبحانا . أي أدعو الناس إلى توحيده وطاعته وأنزّهه عن النقائص التي يشرك بها المشركون من ادّعاء الشركاء . والولد . والصاحبة .

وجملة « وما أنا من المشركين » بمنزلة التذييل لما قبلها لأنها تعمّ ما تضمنته .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنجِي مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

عطف على جملة « وما أكثر الناس » الخ . هاتان الآيتان متّصل معناهما بما تضمنه قوله تعالى « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » إلى قوله « إن هو إلاّ ذكر للعالمين » وقوله « قل هذه سبيلي » الآية . فإن تلك الآي تضمنت الحجة

على صدق الرسول – عليه الصلاة السلام – فيما جاءهم به . وتضمنت أن الذين أشركوا غير مصدقينه عنادا وإعراضا عن آيات الصدق . فالمعنى أن إرسال الرسل – عليهم السلام – سنّة إلهية قديمة فلماذا يَجعل المشركون نبوءتك أمرا مستحيلا فلا يصدّقون بها مع ما قارنها من آيات الصدق فيقولون « أبعث الله بشرًا رسولا » . وهل كان الرسل – عليهم السلام – السابقون إلا رجالا من أهل القرى أوحى الله إليهم فبماذا امتازوا عليك . فسلم المشركون ببعثتهم وتحدّثوا بقصصهم وأنكروا نبوءتك .

وراء هذا معنى آخر من التذكير باستواء أحوال الرسل – عليهم السلام – وما لقوه من أقوامهم فهو وعيد باستواء العاقبة للفريقين .

و « مِن قبلك » يتعلق بـ « أرسلنا » فـ (من) لابتداء الأزمنة فصار ماصدق القبل الأزمنة السابقة. أي من أول أزمنة الإرسال. ولولا وجود (من) لكان « قبلك » في معنى الصفة للمرسَلين المدلول عليهم بفعل الإرسال .

والرجال : اسم جنس جامد لا مفهوم له . وأطلق هنا مرادا به أناسا كقوله – صلى الله عليه وسلم – « ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » . أي إنسان أو شخص . فليس المراد الاحتراز عن المرأة . واختير هنا دون غيره لمطابقته الواقع فإن الله لم يرسل رسلا من النساء لحكمة قبول قيادتهم في نفوس الأقوام إذ المرأة مستضعفة عند الرجال دون العكس . ألا ترى إلى قول قيس بن عاصم حين تنبأت سَجَاحِ :

أضحت نبيئتُنا أنثى نُطيف بها وأصبحت أنبياءُ الناس ذكرانا

وليس تخصيص الرجال وأنهم من أهل القرى لقصد الاحتراز عن النساء ومن أهل البادية ولكنه لبيان المماثلة بين مَن سلّموا برسالتهم وبين محمد – صلى الله عليه وسلم – حين قالوا « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » « وقالوا لولا أوتي مثلَ ما أوتي موسى ». أي فما كان محمد – صلى الله عليه وسلم – بِدعًا من الرسل حتى تبادروا بإنكار رسالته وتُعرضوا عن النظر في آياته .

فـالقصر إضافي ، أي لم يكن الرسل – عليهم السلام – قبلك ملائكةً أو ملوكـًا من ملوك المدن الكبيرة فـلا دلالـة في الآيـة على نفي إرسال رسول من أهـل البـاديـة مثل خـالد بن سنـان العبسي . ويعقوب – عليه السلام – حين كان ساكنـا في البَدْو كمـا تقدم .

وقرأ الجمهور « يُوحَى » – بتحتيـة وبفتـح الحـاء – مبنيـا للنـائب . وقرأه حفص بنـون على أنـه مبني للفـاعل والنـون نـون العظمـة .

وتفريـع قوله « أفلم يسيروا في الأرض » على ما دلت عليه جملة « ومـا أرسلنا من قبلك إلا رجالا » من الأسوة . أي فكذّبهم أقوامهم من قبل قومك مثل مـا كذّبك قومك وكانت عـاقبتهم العقـاب . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عـاقبة الأقوام السابقين، أي فينظروا آثـار آخر أحوالهم من الهلاك والعذاب فيعلم قومك أن عـاقبتهم على قيـاس عاقبة الذين كذّبوا الرسل قبلهم، فضمير « يسيروا » عـائد على معلـوم من المقـام الدال عليه « ومَا أنـا من المشركين » .

والاستفهـام إنكاري . فـإن مجموع المتحدّث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عـاقبة المكذبين مثل عـاد وثمـود .

وهذا التفريـع اعتراض بـالوعيد والتهـديـد .

و (كيف) استفهـام معلّق لفعل النظر عن مفعولـه .

وجملة « ولـدار الآخـرة » خبـر . معطوفة على الاعتـراض فلـهـا حكمه . وهو اعتراض بـالتبشير وحسن العـاقبة للرسل – عليهم السلام – ومن آمن بـهم وهم الذين اتقـوا . وهو تعريض بسلامـة عـاقبة المتقين في الدنيـا . وتعريض أيضا بـأن دار الآخرة أشد أيضا على الذين من قبلهم من العـاقبة التي كانت في الدنيـا فحصل إيجـاز بحذف جملتين .

وإضافة (دار) إلى (آخرة) من إضافـة الموصـوف إلى الصفة مثل « يـا نسـاء المسلمات » في الحديث .

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب «أفلا تعقلون» بتاء الخطاب على الالتفات، لأن المعاندين لما جرى ذكرهم وتكرر صاروا كالحاضرين فالتفت إليهم بالخطاب. وقرأه الباقون بياء الغيبة على نسق ما قبله.

و (حتى) من قوله «حتى إذا استَيْئَسَ الرسل» ابتدائية، وهي عاطفة جملة «إذا استَيْئَسَ الرسل» على جملة «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يُوحى إليهم» باعتبار أنها حجة على المكذبين. فتقدير المعنى: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فكذبهم المرسل إليهم واستمروا على التكذيب حتى إذا استيئس الرسل إلى آخره، فإن (إذا) اسم زمان مضمن معنى الشرط فهو يلزم الإضافة إلى جملة تبين الزمان، وجملة «استيئس» مضاف إليها (إذا)، وجملة «جاءهم نصرنا» جواب (إذا) لأن هذا الترتيب في المعنى هو المقصود من جلب (إذا) في مثل هذا التركيب. والمراد بالرسل — عليهم السلام — غير المراد بـ «رجالا»، فالتعريف في الرسل — عليهم السلام — تعريف العهد الذِّكريّ وهو من الإظهار في مقام الإضمار لإعطاء الكلام استقلالا بالدلالة اهتماما بالجملة.

وآذن حرف الغاية بمعنى محذوف دل عليه جملة «وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا» بما قصد بها من معنى قصد الإسوة بسلفه من الرسل — عليهم السلام —. والمعنى: فدام تكذيبهم وإعراضهم وتأخر تحقيق ما أنذرُوهم به من العذاب حتى اطمأنوا بالسلامة وسخروا بالرسل وأيس الرسل — عليهم السلام — من إيمان قَومهم.

و «استَيْئَسَ» مبالغة في يئس، كما تقدم آنفا في قوله «ولا تيأسوا من رَوْح الله».

وتقدم أيضا قراءة البزي بخلاف عنه بتقديم الهمزة على الياء. فهذه أربع كلمات في هذه السورة خالف فيها البزي رواية عنه.

وفي صحيح البخاري عن عروة أنه سأل عـائشة – رضي الله عنهـا – : « أكُذِبوا أم كُذّبوا (أي بـالخفيف أم بالشدّ) ؛ قالت : كذّبـوا (أي بـالشد) قـال : فقد استيقنـوا أن قومهم كذّبوهم فمـا هو بـالظن فهي « قد كُذبـوا » (أي بـالتخفيف) ، قـالت : معـاذ الله لم يكن الرسل – عليهم السلام – تظن ذلك بربهـا وإنمـا هم أتبـاع الذين آمنوا وصدقوا فطـال عليهم البلاء واستأخر النصر حتى إذا استيـأس الرسل – عليهم السلام – من إيمـان مَن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل – عليهم السلام – أن أتباعهم مُـكذّبوهم » اهـ . وهذا الـكلام من عائشة – رضي الله عنهـا – رأي لهـا في التفسير وإنـكارهـا أن تـكون « كُذبوا » مخففة إنـكـار يستند بمـا يبـدو من عـود الـضمـائر إلى أقـرب مـذكور وهـو الرسل ، وذلك ليس بمتعيّن ، ولم تـكن عـائشة قد بلغتْهـا روايـة « كُذبوا » بالتخفيف .

وتفريع « فننجـي من نشاء » على « جاءهم نصرنا » لأن نصر الرسل – عليهم السلام – هو تـأييدهم بعقـاب الذين كذبوهم بنزول العذاب وهو البـأس ، فينجي الله الذين آمنوا ولا يردّ البـأس عن القوم المجرمين .

والبـأس : هو عذاب المجرمين الذي هو نصر للرسل – عليهم السلام – .

والقوم المجرمون : الذين كذبـوا الرسل .

وقرأ الجمهـور « فنُنْجِي » بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء مضارع أنجى. و « من نشاء » مفعول « ننجي » . وقرأه ابن عامـر وعاصم « فنُجّيَ » – بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيـم مكسورة وفتح التحتية – على أنه ماضي (نجّى) المضاعف بنـي للنائب، وعليـه فـ « مَن نشاء » هو نـائب الفـاعل . والجمع بين الماضي في « نجّي » والمضارع في « نشاء » احتباك تقديره فنُجي من شئنا ممن نجا في القرون السالفة وننجي من نشاء في المستقبل من المكذبين .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

هذا من رد العجز على الصدر فهي مرتبطة بجملة « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » وهي تتنزّل منها منزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة في قوله « ذلك من أنباء الغيب » من التعجيب ، وما تضمنه معنى « وما كنتَ لديهم » من الاستدلال على أنه وحي من الله مع دلالة الأمية .

وهي أيضا تتنزل منزلة التذييل للجمل المستطرد بها لقصد الاعتبار بالقصة ابتداء من قوله « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

فلها مواقع ثلاثة عجيبة من النظم المعجز .

وتأكيد الجملة بـ (قد) واللام للتحقيق .

وأولو الألباب : أصحاب العقول . وتقدم في قوله « واتّقون يا أولي الألباب » في أواسط سورة البقرة .

والعبرة : اسم مصدر للاعتبار. وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب . وتطلق العبرة على ما يحصل به الاعتبار المذكور من إطلاق المصدر على المفعول كما هنا . ومعنى كون العبرة في قصصهم أنها مظروفة فيه ظرفية مجازية . وهي ظرفية المدلول في الدليل فهي قارة في قصصهم سواء اعتَبر بها من وُفّق للاعتبار أم لم يعتبر لها بعضُ الناس .

وجملة « ما كان حديثا يفترى » إلى آخرها تعليل لجملة « لقد كان في قصصهم عبرة »، أي لأن ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة

مخترعة . ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبرا عن أمر وقع ، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتّب طبيعي فمِن شأنها أن تترتب أمثالُها على أمثالها كلما حصلت في الواقع، ولأن حصولها ممكن إذ الخارج لا يقع فيه المحال ولا النادر وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكاذيب فإنها لا يحصل بها اعتبار لاستبعاد السامع وقوعها لأن أمثالها لا يُعهد ، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغُول عند العرب وقصة رستم وأسفنديار عند العجم . فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة ولا يتهيأ للاعتبار بها إلاّ على سبيل الفرض والاحتمال وذلك لا تحتفظ به النفوس .

وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة « نحن نقصّ عليك أحسن القصص » فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضا بالنضر ابن الحارث وأضرابه .

والافتراء تقدم في قوله « ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » في سورة العقود .

و« الذي بين يديه » : الكتب الإلهية السابقة . وضمير بين « يديه » عائد إلى القرآن الذي من جملته هذه القصص .

والتفصيل : التبيين . والمراد بـ « كل شيء » الأشياء الكثيرة مما يرجع إلى الاعتبار بالقصص .

وإطلاق الكل على الكثرة مضى عند قوله تعالى « وإنْ يَروا كل آية لا يؤمنوا بها » في سورة الأنعام .

والهُدى الذي في القصص : العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرف هو الله تعالى ، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة ، وكذلك الرحمة فإن في قصص أهل الفضل .

دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم ، وذلك رحمة للمؤمنين لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون . فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال ، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسببٌ لرحمته إياهم في الآخرة كما قال تعالى « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِينّه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرّعد

هكذا سميت من عهد السلف . وذلك يدل على أنها مسماة بذلك من عهد النبيء – صلى الله عليه وسلم – إذ لم يختلفوا في اسمها .

وإنما سميت بإضافتها إلى الرعد لورود ذكر الرعد فيها بقوله تعالى « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق » . فسمّيت بالرعد لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة . فإن هذه السورة مكية كلّها أو معظمها . وإنما ذكر الرعد في سورة البقرة وهي نزلت بالمدينة وإذا كانت آيات « هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا » إلى قوله « وهو شديد المحال » مما نزل بالمدينة. كما سيأتي تعيّن أن ذلك نزل قبل نزول سورة البقرة .

وهذه السورة مكية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه وهو قول قتادة . وعن أبي بشر قال : سألت سعيد ابن جبير عن قوله تعالى « ومَن عنده علم الكتاب » (أي في آخر سورة الرعد) أهو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه سورة مكية . وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضا : أنها مدنية . وهو عن عكرمة والحسن البصري. وعن عطاء عن ابن عباس . وجمَعَ السيوطي وغيره بين الرّوايات بأنها مكية إلاّ آيات منها نزلت بالمدينة يعني قوله « هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا » – إلى قوله – « شديد المحال » وقوله « قل كفى بالله شهيداً بيني

وبينكم ومن عنده علم الكتاب » . قال ابن عطية : والظاهر أن المدني فيها كثير ، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني .

وأقول أشبه آياتها بأن يكون مدنيا قوله « أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » كما ستعلمه . وقوله تعالى « كذلك أرسلناك في أمة — إلى — وإليه متاب »، فقد قال مقاتل وابن جريج : نزلت في صلح الحديبية كما سيأتي عند تفسيرها .

ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكيّ من الاستدلال على الوحدانية وتقريع المشركين وتهديدهم . والأسباب التي أثارت القول بأنها مدنية أخبار واهية ، وسنذكرها في مواضعها من هذا التفسير ولا مانع من أن تكون مكيّة . ومن آياتها آيات نزلت بالمدينة وألحقت بها . فإن ذلك وقع في بعض سور القرآن ، فالذين قالوا : هي مكية لم يذكروا موقعها من ترتيب المكيات سوى أنهم ذكروها بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم .

والذين جعلوها مدنية عدّوها في النزول بعد سورة القتال وقبل سورة الرحمان وعدّوها سابعة وتسعين في عداد النزول . وإذ قد كانت سورة القتال نزلت عام الحديبية أو عام الفتح تكون سورة الرعد بعدها .

وعُدّت آياتها ثلاثا وأربعين من الكوفيين وأربعا وأربعين في عدد المدنيين وخمسا وأربعين عند الشام .

مقاصدها

أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول — صلى الله عليه وسلم — فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذّبين فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءاً ونهاية .

ومُهّد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنه منزل من الله ، والاستدلال على تفرده

تعالى بالإلهية بدلائل خلق العالَمَيْن ونظامهما الدال على انفراده بتمام العلم والقدرة وإدماج الامتنان لما في ذلك من النعم على الناس .

ثم انتقل إلى تفنيد أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث.

وتهديدهم أن يحلّ بهم ما حلّ بأمثالهم .

والتذكير بنعم الله على الناس .

وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم .

وأنّ الله العالم بالخفايا وأنّ الأصنام لا تعلم شيئا ولا تنعم بنعمة .

والتهديد بالحوادث الجوية أن يكون منها عذاب للمكذبين كما حلّ بالأمم قبلهم .

والتخويف من يوم الجزاء .

والتذكير بأن الدنيا ليست دار قرار .

وبيان مكابرة المشركين في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم .

ومقابلة ذلك بيقين المؤمنين . وما أعد الله لهم من الخير .

وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما لقي من قومه إلا كما لقي الرسلُ – عليهم السلام – من قبله .

والثناء على فريق من أهل الكتب يؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله .

والاشارة إلى حقيقة القدر ومظاهر المحو والإثبات .

وما تخلل ذلك من المواعظ والعبر والأمثال .

﴿ أَلَـمَّـرَ ﴾

تقدم الكلام على نظائر « ألَـمّـر » مما وقع في أوائل بعض السور من الحروف المقطعة

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

القول في « تلك آيات الكتاب » كالقول في نظيره من طالعة سورة يونس .

والمشار إليه بـ « تلك » هو ما سبق نزوله من القرآن قبل هذه الآية أخبر عنها بأنها آيات. أي دلائل إعجاز . ولذلك أشير إليه باسم إشارة المؤنث مراعاة لتأنيث الخبر .

وقوله « والذي أنزل إليك من ربك الحق » يجوز أن يكون عطفا على جملة « تلك آيات الكتاب » فيكون قوله « والذي أنزل إليك » إظهارا في مقام الإضمار. ولم يكتف بعطف خبرٍ على خبر اسم الإشارة بل جيء بجملة كاملة مبتدئة بالموصول للتعريف بأن آيات الكتاب منزلة من عند الله لأنها لما تقرر أنها آيات استلزم ذلك أنها منزلة من عند الله ولولا أنها كذلك لما كانت آيات .

وأخبر عن الذي أنزل بأنه الحق بصيغة القصر . أي هو الحق لا غيره من الكتب . فالقصر إضافي بالنسبة إلى كتب معلومة عندهم مثل قصة رستم وإسفنْديار اللتين عرفهما النضر ابن الحارث . فالمقصود الردّ على المشركين الذين زعموه كأساطير الأولين ؛ أو القصرُ حقيقي ادعائي مبالغة لعدم الاعتداد بغيره من الكتب السابقة . أي هو الحق الكامل . لأن غيره من الكتب لم يستكمل منتهى مراد

الله من النـاس إذ كانت درجات موصلة إلى الدرجة العليـا ، فلذلك ما جـاء منهـا كتـاب إلا ونسخ العمل بـه أو عيّن لأمـة خاصة « إنّ الدين عند الله الإسلام » .

ويجوز أن يكون عطف مفرد على قولـه « الكتاب » مفرد ، من باب عطف الصفة على الاسم ، مثل مـا أنشد الفراء :

إلى الملك القرم وابن الهمـ ـام وليث الكتيبة بـالمزدحم

والإتيـان بـ « ربك » دون اسم الجلالة للتلطف . والاستدراكُ بقوله « ولـكن أكثر الناس لا يؤمنون » راجـع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقيـة إبطـالا يقتضي ارتفاع النـزاع في أحقيتـه، أي ولـكن أكثر النـاس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به . فمن أجل هذا الخلق الذميم فيهم يستمر النزاع منهم في كونـه حـقـا .

وابتداء السورة بهذا تنويـه بمـا في القرآن الذي هذه السورة جزء منه مقصود بـه تهيئـة السامع للتـأمل ممـا سيرد عليه من الكلام .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

استئنـاف ابتـدائـي هو ابتداء المقصود من السورة ومـا قبلـه بمنزلـة الديبـاجة من الخطبـة . ولذا تجد الكلام في هذا الغرض قد طـال واطّـرد .

ومنـاسبَة هذا الاستئنـاف لقولـه « ولـكن أكثر النـاس لا يؤمنـون » لأن أصل كفرهم بـالقرآن نـاشيء عن تمسكهم بـالكفر وعن تطبعهم بـالاستكبـار والإعراض عن دعوة الحق .

والافتتاح باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى « ربك » لأنه معيّن به لا يشتبه غيره من آلهتهم ليكون الخبر المقصود جاريا على معيّن لا يحتمل غيره إبلاغا في قطع شائبة الإشراك .

و « الذي رفع » هو الخبر . وجُعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أن من تثبت له هو المتوحد بالربوبية إذ لا يستطيع مثل تلك الصلة غير المتوحد ولأنه مسلم له ذلك « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولُنّ الله » .

والسماوات تقدمت مرارا، وهي الكواكب السيارة وطبقات الجو التي تسبح فيها .

ورفعها : خلقها مرتفعة، كما يقال : وَسِّعْ طوقَ الجُبة وضيِّقْ كمها، لا تريد وسعه بعد أن كان ضيقا ولا ضيقه بعد أن كان واسعا وإنما يراد اجْعَلْه واسعا واجعله ضيقا . فليس المراد أنه رفعها بعد أن كانت منخفضة .

والعَمَد : جمع عماد، مثل إهاب وأهَب . والعماد : ما تقام عليه القبة والبيت . وجملة « ترونها » في موضع الحال من « السماوات »، أي لا شبهة في كونها بغير عمد .

والقول في معنى « ثم استوى على العرش » تقدم في سورة الأعراف وفي سورة يونس .

وكذلك الكلام على « سَخر الشمس والقمر » في قوله تعالى « والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخرات بأمره » في سورة الأعراف .

والجري : السير السريع. وسير الشمس والقمر والنجوم في مسافات شاسعة، فهو أسرع التنقلات في بابها وذلك سيرها في مداراتها .

واللام للعلة . والأجل : هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة .

والمسمّى : أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعيّن المحدّد إذ التسمية تستلزم التعيين والتمييز عن الاختلاط .

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

جملة « يدبر الأمر » في موضع الحال من اسم الجلالة . وجملة « يفصل الآيات » حال ثانية تُرك عطفها على التي قبلها لتكون على أسلوب التعداد والتوقيف وذلك اهتمام باستقلالها . وتقدم القول على « يُدبّر الأمر » عند قوله « ومن يدبّر الأمر » في سورة يونس .

وتفصيل الآيات تقدم عند قوله « أحكمت آياته ثم فصلت » في طالعة سورة هود .

ووجه الجمع بينهما هنا أن تدبير الأمر يشمل تقدير الخلق الأول والثاني فهو إشارة إلى التصرف بالتكوين للعقول والعوالم ، وتفصيل الآيات مشير إلى التصرف بإقامة الأدلة والبراهين ، وشأن مجموع الأمرين أن يفيد اهتداء الناس إلى اليقين بأن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، لأن النظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي إلى ذلك ، وتفصيلَ الآيات والأدلة ينبه العقول ويعينها على ذلك الاهتداء ويقرّبه . وهذا قريب من قوله في سورة يونس « يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكّرون إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأُ الخلق ثم يعيده » . وهذا من إدماج غرض في أثناء غرض آخر لأن الكلام جار على إثبات الوحدانية . وفي أدلة الوحدانية دلالة على البعث أيضا .

وصيغ « يدبّر » و« يفصّل » بالمضارع عكس قوله « الله الذي رفع السماوات » لأن التدبير والتفصيل متجدّد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدورات . وأما رفع السماوات وتسخير الشمس والقمر فقد تم واستقرّ دفعة واحدة .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾

عطف على جملة « الله الذي رفع السماوات » فبين الجملتين شبه التضاد . اشتملت الأولى على ذكر العوالم العلوية وأحوالها . واشتملت الثانية على ذكر العوالم السفلية . والمعنى : أنه خالق جميع العوالم وأعراضها .

والمد : البسط والسعة . ومنه : ظل مديد . ومنه مد البحر وجزره . ومد يده إذا بسطها . والمعنى : خلق الأرض ممدودة متسعة للسير والزرع لأنه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالا شاهقة متلاصقة لما تيسّر للأحياء التي عليها الانتفاع بها والسير من مكان إلى آخر في طلب الرزق وغيره . وليس المراد أنها كانت غير ممدودة فمدّها بل هو كقوله « الله الذي رفع السماوات » . فهذه خلقة دالة على القدرة وعلى اللطف بعباده فهي آية ومنة .

والرواسي : جمع راسٍ . وهو الثابت المستقر . أي جبالا رواسي . وقد حذف موصوفه لظهوره فهو كقوله « وله الجوَاري » . أي السفن الجارية . وسيأتي في قوله « وألقى في الأرض رواسي » في سورة النحل بأبسط مما هنا .

وجيء في جمع راسٍ بوزن فواعل لأن الموصوف به غيرُ عاقل . ووزن فواعل يطرد فيما مفرده صفة لغير عاقل مثل : صَاهل وبازل .

والاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف خلقة المعادن والتراب فهي خفية . كما قال تعالى « وإلى الجبال كيف نصبت » .

. والأنهـار : جمع نهر . وهو الوادي العظيم . وتقدم في سورة البقرة « إن الله مبتليكم بنهـر » .

وقوله « ومن كل الثمرات » عطف على « أنهـارًا » فهو معمول لـ « جَعل فيهـا رواسِيَ » . ودخول (مِن) على (كلّ) جرى على الاستعمـال العربي في ذكر أجنـاس غير العـاقل كقولـه « وبث فيهـا من كل دابـة » . و (مِن) هذه تُحمل على التبعيض لأن حقـائق الأجنـاس لا تنحصر والموجود منهـا مـا هو إلا بعض جزئيـات المـاهية لأن منهـا جزئيـات انقضت ومنهـا جزئيـات ستوجد .

والمراد بـ « الثمـراتِ » هيَ وأشجـارُهـا . وإنمـا ذكرت « الثمـرات » لأنهـا موقع منـة مع العبرة كقولـه « فـأخرجنـا بـه من كلّ الثمـرات » . فينبغي الوقف على « ومن كل الثمرات » . وبذلك انتهى تعداد المخلوقـات المتصلة بالأرض . وهذا أحسن تفسيرا . ويعضده نظيره في قوله تعـالى « يُنْبِت لـكم بـه الزرع والزيتـون والنخيـل والأعنـاب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيـةً لقوم يتفـكرون » في سورة النحـل .

وقيـل إن قوله « ومن كل الثمرات » ابتـداء كلام .

وتتعلق « من كل الثمرات » بـ « جعل فيها زَوجين اثنين » . وبهذا فسر أكثر المفسرين . ويبعده أنـه لا نكتـة في تقديم الجـار والمجرور على عـاملـه على ذلك التقديـر . لأن جميـع المذكور محـل اهتمـام فلا خصوصيـة للثمرات هنـا . ولأن الثمرات لا يتحقق فيها وجود أزواج ولا كون الزوجين اثنين . وأيضا فيه فوات المنة بخلق الحيوان وتناسله مع أن منـه معظم نفعهم ومعاشهم. ومما يقرب ذلك قولـه تعالى في نحو هذا المعنى « ألم نجعل الأرض مهـادا والجبـال أوتـادا وخلقنـاكم أزواجـا » . والمعروف أن الزوجين همـا الذكر والأنثى قـال تعالى « فجعـل منـه الزوجين الذكـر والأنثـى » .

والظـاهر أن جملـة « جعل فيهـا زوجين » مستأنفة للاهتمـام بهذا الجنس من المخلوقـات وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكرا وأنثى أحدهمـا زوج

مع الآخر . وشاع إطلاق الزوج على الذكر والأنثى من الحيوان كما تقدم في قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » في سورة البقرة، وقوله « وخلق منها زوجها » في أول سورة النساء . وقوله « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » . وأما قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » فذلك إطلاق الزوج على الصنف بناء على شيوع إطلاقه على صنف الذكر وصنف الأنثى فأطلق مجازا على مطلق صنف من غير ما يتصف بالذكورة والأنوثة بعلاقة الإطلاق . والقرينة قوله « أنبتنا » مع عدم التثنية. كذلك قوله تعالى « فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » في سورة طه .

وتنكير « زوجين » للتنويع . أي جعل زوجين من كل نوع . ومعنى التثنية في زوجين أن كل فرد من الزوج يطلق عليه زوج كما تقدم في قوله تعالى « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » الآية في سورة الأنعام .

والوصف بقوله « اثنين » للتأكيد تحقيقا للامتنان .

﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

جملة « يغشي » حال من ضمير « جعل » . وجيء فيه بالمضارع لما يدل عليه من التجدد لأن جعل الأشياء المتقدم ذكرها جعل ثابت مستمر ، وأما إغشاء الليل والنهار فهو أمرٌ متجدّد كل يوم وليلة . وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض . وذكرُه مع آيات العالم السفلي في غاية الدقة العلمية لأن الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضية بحسب اتجاهها إلى الشمس وليسَا من أحوال السماوات إذ الشمس والكواكب لا يتغير حالها بضياء وظلمة .

وتقدم الكلام على نظير قوله « يغشي الليلَ النهار » في أوائل سورة الأعراف .

وقرأه الجمهور — بسكون الغين وتخفيف الشين — مضارع أغشى . وقرأه حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوبُ . وخلف — بتشديد الشين — مضارع غَشّى .

وقولـه « إن في ذلك لآيـات الإشارة إلى مـا تقدّم من قوله « الله الذي رفع السماوات » إلى هنـا بتـأويل المذكـور .

وجَعل الأشياء المذكورات ظروفا لـ«آيـات» لأن كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمن آيـات عظيمـة يجلوهـا النظر الصحيـح والتفـكير المجرد عن الأوهـام . ولذلك أجرَى صفة التفـكير على لفظ قَوم إشارة إلى أن التفـكير المتـكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقومات قوميتهم، أي جبلتهم كمـا بينـاه في دلالـة لفظ (قوم) على ذلك عند قوله تعـالى « لآيـات لقوم يعقلـون » في سورة البقـرة .

وفي هذا إيمـاء إلى أن الذين نسبوا أنفسهم إلى التفـكير من الطبـائعيين فعللـوا صـدور المـوجودات عن المـادة ونفـوا الفـاعـل المختـار مـا فـكروا إلا تفـكيرا قـاصرا مخلوطـا بـالأوهـام ليس مـا تقتضيه جبلـة العقل إذْ اشتبهت عليهم العلـل والمواليد بـأصل الخلق والإيجـاد .

وجيء في التفـكير بـالصيغـة الدالـة على التـكلف وبـصيغـة المضارع لـلإشارة إلى تفـكير شديد ومُـكرر .

والتفـكير تقدم عند قولـه تعـالى « أفلا تتفـكرون » في سورة الأنعـام .

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقـال إلى ذكر النعم الدالـة على قدرة الله تعالى فيمـا ألهم الناس من العمل في الأرض بفلحهـا وزرعهـا وغرسهـا

والقيام عليها . فجاء ذلك معطوفا على الأشياء التي أسند جَعْلها إلى الله تعالى ، ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله « ونفضّل بعضها على بعض في الأكل » . لأن ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها . وأمثال هذه العِبر . ولَفْتِ النظر مما انفرد به القرآن من بين سائر الكتب .

وأعيد اسم (الأرض) الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضَى ليستقل الكلام ويتجدد الأسلوب . وأصل انتظام الكلام أن يقال : جعَل فيها زوجين اثنين. وفيها قطعٌ متجاورات. فعدل إلى هذا توضيحا وإيجازا .

والقِطع : جمع قِطعة بكسر القاف . وهي الجزء من الشيء تشبيها لها بما يقتطع . وليس وصف القِطع بمتجاورات مقصودا بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات . بل المقصود وصفٌ محذوف دل عليه السياق تقديره : مختلفات الألوان والمنابت، كما دل عليه قوله « ونفضل بعضها على بعض في الأكل » .

وإنما وصفت بمتجاورات لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة. وهذا كقوله تعالى « ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحُمر مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود » .

فمعنى « قطع متجاورات » بقاعٌ مختلفة مع كونها متجاورةً متلاصقة .

والاقتصار على ذكر الأرض وقِطعها يشير إلى اختلاف حاصل فيها عن غير صنع الناس وذلك اختلاف المراعي والكلأ. ومجرد ذكر القِطَع كاف في ذلك فأحالهم على المشاهدة المعروفة من اختلاف منابت قطع الأرض من الأبّ والكلإ وهي مراعي أنعامهم ودوابّهم. ولذلك لم يقع التعرض هنا لاختلاف أُكله إذ لا مذاق للآدمي فيه ولكنه يختلف شَرَهُ بعض الحيوان على بعضه دون بعض .

وتقدم الكلام على « جنات من أعناب » عند قوله تعالى « ومن النخل من طَلْعها قِنْوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعناب » .

والزرع تقدم في قولـه « والنخـل والزرع مُختلِفـًا أُكلُه » .

والنخيـل : اسم جمع نخلة مثلْ النخْل . وتقدم في تلك الآيـة. وكلاهما في سورة الأنـعـام .

والزرع يكون في الجنـات يـزرع بين أشجـارهـا .

وقرأ الجمهور « وزرع ونخيـلٍ » بـالجر عطفـا على « أعنْـاب » . وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو. وحفص. ويعقوب بالرفع عطفا على « جنات » . والمعنى واحد لأن الزرع الذي في الجنـات مساو للذي في غيرهـا فـاكتُفي بـه قضـاء لحق الإيجـاز . وكذلك على قراءة الرفـع هو يغني عن ذكر الزرع الذي في الجنـات . والنخـل لا يكون إلاّ في جنـات .

وصنوان : جمع صِنو بكسر الصاد في الأفصح فيهمـا وهي لغـة الحجـاز . وبضمهـا فيهمـا أيضا وهي لغـة تميـم وقيسٍ . والصنو : النخلـة المجتمعـة مع نخلـة أخرى نـابتتين في أصل واحد أو نخلات. الواحدُ صنو والمثنى صنوانِ بدون تنوين . والجمع صِنوانٌ بـالتنوين جمع تـكسير . وهذه الزنـة نـادرة في صيـغ أو الجمـوع في العـربيـة لم يحفظ منهـا إلا خمسةُ جمـوع : صِنو وصنوانٌ . وقِنْو وقنوانٌ . وزيـدٍ بمعنى مِثْل وزيدَانٍ . وشِقْذ (بذال معجمـة اسم الحربـاء) وشِقذان . وحِشٌ (بمعنى بستـان) وحِشّانٍ .

وخصّ النخل بذكر صفة صنوان لأن العبرة بهـا أقوى . ووجـه زيـادة « وغير صنوان » تجديد العبرة بـاختلاف الأحوال .

وقرأ الجمهور « صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ » بجر « صنوان » وجر « غير » عطفـا على « زرع » . وقرأهما ابن كثير . وأبـو عمرو . وحفص . ويعقوب ـ بالرفـع ـ عطفـا على « وجنـاتٌ » .

والسقي : إعطـاء المشروب . والمراد بـالمـاء هنـا مـاء المطر ومـاء الأنهـار وهو واحد بـالنسبـة للمسقى ببعضه .

والتفضيل : منة بالأفضل وعبرة به وبضده وكناية عن الاختلاف .

وقرأ الجمهور « تُسقَى » بفوقية اعتبارًا بجمع « جنات » . وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب « يُسقى » بتحتية على تأويل المذكور .

وقرأ الجمهور « ونفضّل » بنون العظمة . وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف « ويفضل » بتحتية. والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ». وتأنيث « بعضها » عند من قرأ « يسقى » بتحتية دون أن يقول بعضه لأنه أريد يفضل بعض الجنات على بعض في الثمرة .

والأُكُل : بضم الهمزة وسكون الكاف هو المأكول. ويجوز في اللغة ضم الكاف .

وظرفية التفضيل في « الأكل » ظرفية في معنى الملابسة لأن التفاضل يظهر بالمأكول . أي نفضل بعض الجنات على بعض أو بعض الأعناب والزرع والنخيل على بعض من جنسه بما يثمره . والمعنى أن اختلاف طعومه وتفاضلها مع كون الأصل واحدا والغذاء بالماء واحدا ما هو إلا لقوى خفيّة أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة .

ومن ثم جاءت جملة « إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون » مجيء التذييل .

وأشار قوله « ذلك » إلى جميع المذكور من قوله « وهو الذي مدّ الأرض » . وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظرف للآيات. وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهية دلالات كثيرة إذ في كل شيء منها آية تدل على ذلك .

ووصفت الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون تعريضا بأن من لم تقنعهم تلك الآيات منزّلون منزلة من لا يعقل. وزيد في الدلالة على أن العقل سجية للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة (قَوم) إيماء إلى أن العقل من مقومات قوميتهم كما بيناه في الآية قبلها .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

عطف على جملة « الله الذي رفع السماوات بغير عمد » فلما قُضِي حق الاستدلال على الوحدانية نقل الكلام إلى الردّ على منكري البعث وهو غرض مستقل مقصود من هذه السورة . وقد أدمج ابتداءً خلال الاستدلال على الوحدانية بقوله « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » تمهيدا لما هنا . ثم نقل الكلام إليه باستقلاله بمناسبة التدليل على عظيم القدرة مستخرّجا من الأدلة السابقة عليه أيضا كقوله « أفعَيِينا بالخلق الأول بل هم في لَبْس من خلق جديد » — وقوله — « إنه على رَجعه لقادر » فصيغ بصيغة التعجيب من إنكار منكري البعث لأن الأدلة السالفة لم تبق عذرا لهم في ذلك فصار في إنكارهم محل عجب المتعجب .

فليس المقصود من الشرط في مثل هذا تعليق حصول مضمون جواب الشرط على حصول فعل الشرط كما هو شأن الشروط لأن كون قولهم « أإذا كنا ترابا » عجبا أمر ثابت سواء عجب منه المتعجّب أم لم يعجب . ولكن المقصود أنه إن كان اتصاف بتعجب فقولهم ذلك هو أسبق من كل عجب لكل متعجّب ، ولذلك فالخطاب يجوز أن يكون موجها إلى النبيء — صلى الله عليه وسلم — وهو المناسب بما وقع بعده من قوله « ويستعجلونك بالسيّئة قبل الحسنة » وما بعده من الخطاب الذي لا يصلُحُ لغير النبيء — صلى الله عليه وسلم — . ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معيّن مثل « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم » .

والفعل الواقع في سياق الشرط لا يقصد تعلقه بمعمول معيّن فلا يقدر : إنْ تعجب من قَول أو إن تعجب من إنكار، بل ينزل الفعل منزلة اللازم ولا يقدر له مفعول . والتقدير : إن يكن منك تعجب فاعْجب من قولهم الخ ...

على أن وقوع الفعل في سياق الشرط يشبه وقوعه في سياق النفي فيكون لعموم المفاعيل في المقام الخَطابي. أي إن تعجب من شيء فعجَب قولهم. ويجوز أن تكون جملة «وإن تعجب» الخ عطفا على جملة «ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون». فالتقدير: إن تعجب من عدم إيمانهم بأن القرآن منزل من الله. فعجب إنكارهم البعث.

وفائدة هذا هو التشويق لمعرفة المتعجب منه تهويلا له أو نحوه، ولذلك فالتنكير في قوله «فعجب» للتنويع لأن المقصود أن قولهم ذلك صالح للتعجيب منه، ثم هو يفيد معنى التعظيم في بابه تبعا لما أفاده التعليق بالشرط من التشويق.

والاستفهام في «أإذا كنا ترابًا» إنكاري. لأنهم موقنون بأنهم لا يكونون في خلق جديد بعد أن يكونوا ترابا. والقول المحكي عنهم هو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرين وهما كونهم: ترابا. وتجديد خلقهم ثانية. والمقصود من ذلك العجب والإحالة.

وقرأ الجمهور «أإذا كنا» بهمزة استفهام في أوله قبل همزة (إذا). وقرأه ابن عامر بحذف همزة الاستفهام.

وقرأ الجمهور «أإنا لفي خلق جديد» بهمزة استفهام قبل همزة «إنّا». وقرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر بحذف همزة الاستفهام.

والإشارة بقوله «أولئك الذين كفروا بربّهم» للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخَبَر لأجْل ما سبق اسمَ الإشارة من قولهم «أإذا كنا ترابا إنّا لفي خلق جديد» بعد أن رأوا دلائل الخلق الأول فحقّ عليهم بقولهم ذلك حكمان: أحدهما أنهم كفروا بربهم لأن قولهم «أإذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد» لا يقوله إلا كافر بالله. أي بصفات إلهيته إذ جعلوه غير قادر على إعادة خلقه؛ وثانيهما استحقاقهم العذاب.

وعطف على هذه الجملة جملة « وأولئك الأغلال في أعناقهم » مفتتحة باسم الإشارة لمثل الغرض الذي افتتحت به الجملة قبلها فإن مضمون الجملتين اللتيْن قبلها يحقّق أنهم أحرياء بوضع الأغلال في أعناقهم وذلك جزاء الإهانة . وكذلك عطف جملة « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وقوله « الأغلال في أعناقهم » وعيد بسوقهم إلى الحساب سوق المذلة والقهر ، وكانوا يضعون الأغلال للأسرى المثقلين . قال النابغة :

أو حُرّة كمهاة الرمل قد كُبلت ... فوق المعاصم منها والعراقيب
تدعو قعينا وقد عض الحديد بها ... عض الثقاف على صمّ الأنابيب

والأغلال: جمع غُل بضم الغين، وهو القيد الذي يوضع في العنق. وهو أشد التقييد . قال تعالى « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل » .

وإعادة اسم الإشارة ثلاثا للتهويل .

وجملة « هم فيها خالدون » بيان لجملة أصحاب النار .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

جملة « ويستعجلونك » عطفٌ على جملة « وإن تعجب » . لأن كلتا الجملتين حكاية لغريب أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد . فابتدأ بذكر تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعث . ثم عطف عليه تكذيبهم بوعيد الدنيا لتكذيبهم الرسول — صلّى الله عليْه وسلّم — . وفي الاستخفاف بوعيد نزول العذاب وعَدّهم إياه مستحيلا في حال أنهم شاهدوا آثار العذاب النازل

بالأمم قبلهم ؛ وما ذلك إلا لذهولهم عن قدرة الله تعالى التي سيق الكلام للاستدلال عليها والتفريع عنها . فهم يستعجلون بنزوله بهم استخفافا واستهزاء كقولهم « فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ، وقولهم « أو تُسقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفا » .

والباء في « بالسيئة » لتعدية الفعل إلى ما لم يكن يتعدى إليه . وتقدم عند قوله تعالى « ما عندي ما تستعجلون بِه » في سور الأنعام .

والسيئة : الحالة السيئة . وهي هنا المصيبة التي تسوء من تحلّ به . والحسنة ضدها ؛ أي أنهم سألوا من الآيات ما فيه عذاب بسوء ؛ كقولهم « إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطِر علينا حجارةً من السماء » دون أن يسألوا آية من الحسنات .

فهذه الآية نزلت حكاية لبعض أحوال سؤالهم الظانّين أنّه تعجيز ؛ والدّالين به على التهكم بالعذاب .

وقبْليّة السيئة قبلية اعتبارية ؛ أي مختارين السيئة دون الحسنة . وسيأتي تحقيقه عند قوله تعالى « قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قَبْلَ الحسنة » في سورة النمل فانظره .

وجملة « وقد خلت من قبلهم المَثُلات » في موضع الحال . وهو محلّ زيادة التعجيب لأنّ ذلك قد يعذرون فيه لو كانوا لم يروا آثار الأمم المعذبة مثل عاد وثمود .

والمَثُلات – بفتح الميم وضم المثلثة – : جمع مَثُلة – بفتح الميم وضم الثاء – كسَمُرة ، – وبضم الميم وسكون الثاء – كغُرْفة : وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا تُمثل به العقوبات .

وجملة « وإن ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » عطف على جملة « وقد خلت من قبلهم المثُلات » . وهذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم لأنهم لمّا

ستهزأوا بـالنبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – وتعرّضوا لسؤال حلـول العذاب بهـم ورأوا أنـه لم يعجـل لهم حلـوله اعترتهم ضراوة بـالتـكذيب وحسبوا تـأخير العذاب عَجْزا من المتوعد وكذبوا النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – وهم يجهلون أنّ الله حليم يُمهل عبـاده لعلهم يرجعون . فـالمغفرة هنـا مستعملة في المغفرة الموقتـة ، وهي التجـاوز عن ضراوة تـكذيبهم وتـأخير العذاب إلى أجل . كمـا قـال تعـالى « ولئن أخرنـا عنهـم العذاب إلى أمّة معدودة ليقولنّ مـا يحسبه ألاَ يَوم يـأتيهم ليس مصروفـا عنهم وحـاق بهم مـا كـانوا به يستهزئـون » .

وقرينـة ذلك أن الـكلام جـار على عذاب الدنيـا وهو الذي يقبـل التـأخير كمـا قـال تعـالى « إنّـا كاشفوا العذاب قليـلا إنكم عـائـدون » . أي عذاب الدنيـا ، وهـوالجـوع الذي أصيب بـه قريش بعد أن كان يطعمهم من جـوع

و (على) في قوله « على ظُلمهم » بمعنى (مع) .

وسيـاق الآيـة يدل على أن المراد بالمغفـرة هنـا التجـاوز عن المشركين في الدنيـا بتـأخير العقـاب لهم إلى أجل أراده الله أو إلى يوم الحساب . وأن المراد بـالعقـاب في قوله « وإن ربك لشديد العقـاب » ضد تلك المغفرة وهو العقـاب المؤجل في الدنيـا أو عقـاب يوم الحساب . فمحمل الظلم على مـا هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على الشرك .

ويجوز أن يحمـل الظلم على ارتـكـاب الذنـوب بقرينـة السيـاق كـإطلاقه في قوله تعـالى « فبظلم من الذين هـادوا حرّمنـا عليهم طيبـات أحلت لهم » فلا تعـارض أصلا بين هذا المحمل وبين قوله « إنّ الله لا يغفر أن يشرك بـه ويغفر مـا دون ذلك لمن يشـاء » كمـا هو ظـاهر .

وفـائدة هذه العلاوة إظهـار شدة رحمة الله بعبـاده في الدنيـا كمـا قـال « ولـو يؤاخذ الله النـاس بمـا كسبوا مـا ترك على ظهرهـا من دابـة ولـكن يؤخرهم إلى أجـل مسمّى » .

وجملة « وإن ربّك لشديد العقاب » احتراس لئلا يحسبوا أن المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضًا بأن العقاب حالّ بهم من بعد .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

عطف على جملة « ويستعجلونك بالسيّئة » الآية . وهذه حالة من أعجوباتهم وهي عدم اعتدادهم بالآيات التي تأيّد بها محمّد — صلّى الله عليْه وسلّم — وأعظمها آيات القرآن . فلا يزالون يسألون آية كما يقترحونها . فله اتصال بجملة « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

ومرادهم بالآية في هذا خارقُ عادة على حساب ما يقترحون . فهي مخالفة لما تقدم في قوله « ويستعجلونك بالسيّئة قبل الحسنة » لأن تلك في تعجيل ما توعدهم به . وما هنا في مجيء آية تؤيّده كقولهم « لولا أنزل عليه ملك » .

ولكون اقتراحهم آية يُشفّ عن إحالتهم حصولها لجهلهم بعظيم قدرة الله تعالى سيق هذا في عداد نتائج عظيم القدرة. كما دل عليه قوله تعالى في سورة الأنعام « وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزّل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

فبذلك انتظم تفرّع الجمل بعضها على بعض وتفرع جميعها على الغرض الأصلي .

والذين كفروا هم عين أصحاب ضمير « يستعجلونك » . وإنما عدل عن ضميرهم إلى اسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم . ولما يومىءُ إليه الموصول من تعليل صدور قولهم ذلك .

وصيغة المضارع تـدل على تجدّد ذلك وتـكرره .

و (لـولا) حرف تحْضيض. يموهون بـالتحضيض أنهم حريصون وراغبون في نزول آيـة غير القرآن ليؤمنوا . وهم كـاذبـون في ذلك إذ لـو أوتوا آية كما يقترحون لكفروا بهـا . كمـا قـا تعـالى «ومـا منعنا أن نـرسـل بـالآيـات إلاّ أن كذبّ بهـا الأولـون » .

وقد ردّ الله اقتراحهم من أصله بقوله « إنمـا أنت منذر » . فقصر النبيء – صلّى الله عليه وسلّم – على صفة الإنذار وهو قصر إضافي ، أي أنت منذر لا مُوجد خوارق عادةً . وبهذا يظهر وجـه قصره على الإنذار دون البشارة لأنـه قصر إضافي بالنسبة لأحوالـه نحو المشركين .

وجملة « ولـكلّ قوم هـادٍ » تذييل بـالأعمّ . أي إنمـا أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم . ولـكل قوم هـاد أرسله الله ينذرهم لعلّهم يهتدون . فمـا كنت بِدعا مـن الرسل ومـا كان للرسل من قبلك آيـات على مقتـرح أقـوامهم بـل كـانت آيـاتهم بحسب مـا أراد الله أن يظهره على أيديهم . على أن معجزات الرسل تـأتي على حسب مـا يلائم حـال المرسل إليهم .

ولما كان الذين ظهرت بينهم دعـوة محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – عربا أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين . وإلى هذا المعنى يشير قول النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – في الحديث الصحيح « ما من الأنبياء نبيء إلا أوتي من الآيـات مـا مثلـه آمنَ عليـه البشر وإنمـا كـان الذي أوتيتُ وَحْيـا أوحـاه الله إليّ فـأرجو أن أكون أكثرهم تـابعـا يوم القيـامة » .

وبهذا العمـوم الحـاصل بـالتذييل والشامل للرسـول – عليه الصلاة والسلام – صار المعنى إنمـا أنت منذر لقومك هـادٍ إيـاهم إلى الحق . فـإن الإنذار والهدي متلازمـان فمـا من إنذار إلاّ وهو هداية ومـا من هداية إلا وفيهـا إنذار . والهداية أعمّ من الإنذار.ففي هذا احتبـاك بـديـع .

وقرأ الجمهور « هـادٍ » بـدون يـاء في آخره في حـالتي الوصل والوقف . أمـا في الوصل فلالتقـاء الساكنين سكون اليـاء وسكون التنوين الـذي يجب النطق بـه في حـالة الوصل . وأمـا في حـالة الوقف فتبعا لحـالة الوصل . وهو لغة فصيحة وفيـه متـابعـة رسم المصحف .

وقرأه ابن كثير في الوصل مثل الجمهـور . وقرأه بـإثبـات اليـاء في الوقف لـزوال مُوجب حذف اليـاء وهو لغـة صحيحـة .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَـالِ ﴾

انتقـال إلى الاستدلال على تفرّد الله تعـالى بالإلهية . فهو متصل بجملـة « الله الذي رفـع السمـاوات » الـخ .

وهذه الجملـة استئنـاف ابتدائي . فلمـا قـامت البراهين العديدة بـالآيـات السابقة على وحدانيـة الله تعـالى بـالخلق والتدبير وعلى عظيـم قدرتـه التي أودَع بهـا في المخلوقـات دقـائق الخلقـة انتقل الكلام إلى إثبـات العلم لـه تعـالى علمـا عـامـا بـدقـائق الأشيـاء وعظـائمهـا . ولذلك جـاء افتتـاحه على الأسلوب الذي افتُتح بـه الغرض السابق بـأن ابتدىء باسم الجلالة كمـا ابتدىء بـه هنالك في قولـه « اللهُ الذي رفـع السمـاوات بغير عمد ترونهـا » .

وجعلت هذه الجملة في هذا الموقع لأنّ لهـا منـاسبـة بقولهم « لـولا أنزل عليه آيـة من ربّه » . فـإن مـا ذكر فيهـا من علم الله وعظيم صنعـه صـالـح لأن يكون دليلا على أنـه لا يعجـزه الإتيـان بما اقتـرحـوا من الآيـات . ولـكنّ بعثـة الرسول ليس المقصد منهـا المنـازعـات بل هي دعوة للنظر في الأدلـة .

وإذ قد كان خلق الله العوالم وغيرها معلوما لدى المشركين ولكنّ الإقبال على عبادة الأصنام يذهلهم عن تذكره كانوا غير محتاجين لأكثر من التذكير بذلك وبالتنبيه إلى ما قد يخفى من دقائق التكوين كقوله آنفا « بغير عمد » — وقوله « وفي الأرض قطع متجاورات » الخ : صيغ الإخبار عن الخلق في آية « الله الذي رفع السماوات » الخ بطريقة الموصول للعلم بثبوت مضمون الصلة للمخبر عنه .

وجيء في تلك الصلة بفعل المضي فقال « الله الذي رفع السماوات » كما أشرنا إليه آنفا . فأمّا هُنا فصيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتجدد والتكرير لإفادة أن ذلك العلم متكرر متجدّد التعلّق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوعة والمتكاثرة على نحو ما قرر في قوله « يدبّر الأمر يفصّل الآيات » .

وذُكر من معلومات الله ما لا نزاع في أنّه لا يعلمه أحد من الخلق يومئذ ولا تستشار فيه آلهتهم على وجه المثال بإثبات الجزئي لإثبات الكلّي . فما تحمل كل أنثى هي أجنة الإنسان والحيوان . ولذلك جيء بفعل الحمل دون الحَبَل لاختصاص الحبل بحمل المرأة .

و (ما) موصولة . وعمومها يقتضي علم الله بحال الحمل الموجود من ذكورة وأنوثة ، وتمام ونقص ، وحسن وقبح . وطول وقصر . ولون .

وتغيض : تنقص . والظاهر أنه كناية عن العلوق لأن غيض الرحم انحباس دم الحيض عنها . وازديادها : فيضان الحيض منها . ويجوز أن يكون الغيض مستعارا لعدم التعدد .

والازدياد : التعدد أي ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدة أجنّة وذلك في الإنسان والحيوان .

وجملة « وكل شيء عنده بمقدار » معطوفة على جملة « يعلم ما تحمل كل أنثى » . فالمراد بالشيء الشيء من المعلومات . و « عنده » يجوز أن يكون

خبرا عن « كل شيء » و « بمقدار » في موضع الحال من « كل شيء » . ويجوز أن يكون « عنده » في موضع الحال من « مقدار » ويكون « بمقدار » خبرا « عن كل شيء » .

والمقدار : مصدر ميمي بقرينة الباء ، أي بتقدير . ومعناه : التحديد والضبط . والمعنى أنه يعلم كلّ شيء علما مفصّلا لا شيوع فيه ولا إبهام . وفي هذا ردّ على الفلاسفة غير المسلمين القائلين أنّ واجب الوجود يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات فرارا من تعلّق العلم بالحوادث . وقد أبطل مذهبهم علماءُ الكلام بما ليس فوقه مرام . وهذه قضية كلية أثبتت عموم علمه تعالى بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التمثيل بعلمه بالجزئيات الخفية في قوله « الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الأرحام وما تزداد » .

وجملة « عالم الغيب والشهادة » تذييل وفذلكة لتعميم العلم بالخفيات والظواهر وهما قسما الموجودات. وقد تقدم ذكر « الغيب » في صدر سوره البقرة .

وأما « الشهادة » فهي هنا مصدر بمعنى المفعول . أي الأشياء المشهودة . وهي الظاهرة المحسوسة . المرئيات وغيرها من المحسوسات . فالمقصود من « الغيب والشهادة » تعميم الموجودات كقوله « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » .

والكبير : مجاز في العظمة . إذ قد شاع استعمال أسماء الكثرة وألفاظ الكبر في العظمة تشبيها للمعقول بالمحسوس وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة . والمتعالي : المترفع . وصيغت الصفة بصيغة التفاعل للدلالة على أن العلو صفة ذاتية له لا من غيره . أي الرفيعُ رفعة واجبة له عقلا . والمراد بالرفعة هنا المجاز عن العزة التامة بحيث لا يستطيع موجود أن يغلبه أو يكرهه . أو المنزه عن النقائص كقوله عزّ وجل « تعالى عما يُشركون » .

وحذف الياء من « المتعال » لمراعاة الفواصل الساكنة لأن الأفصح في

المنقوص غير المنوّن إثبات الياء في الوقف إلاّ إذا وقعت في القافية أو في الفواصل كما في هذه الآية لمراعاة « من و ال . والآصال » .

وقد ذكر سيبويه أن ما يختار إثباته من الياءات والواوات يحذف في الفواصل والقوافي ؛ والإثبات أقيس والحذف عربي كثير .

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾

•وقع هذه الجملة استئناف بياني لأنّ مضمونها بمنزلة النّتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيات والظواهر . وعدل عن الغيبة المتبعة في الضمائر فيما تقدم إلى الخطاب هنا في قوله « سواء منكم » لأنه تعليم يصلح للمؤمنين والكافرين .

وفيها تعريض بالتهديد للمشركين المتآمرين على النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – .

و « سواء » اسم بمعنى مستو . وإنما يقع معناه بين شيئين فصاعدا . واستعمل سواء في الكلام ملازما حالة واحدة فيقال : هما سواء وهم سواء ، قال تعالى « فأنتم فيه سواء » . وموقع سواء هنا موقع المبتدأ . و « من أسر القول » فاعل سدّ مسدّ الخبر . ويجوز جعل « سواء » خبرا مقدّما و « من أسر » مبتدأ مؤخّرا و « منكم » حال « من أسر » .

والاستخفاء : هنا الخفاء . فالسين والتاء للمبالغة في الفعل مثل استجاب .

والسارب : اسم فاعل من سرب إذا ذهب في السّرْب – بفتح السين وسكون الراء – وهو الطريق . وهذا من الأفعال المشتقة من الأسماء الجامدة . وذكر الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء . وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهورا . والمعنى : أن هذين الصنفين سواء لدى علم الله تعالى .

والواو التي عطفت أسماء الموصول على الموصول الأول للتقسيم فهي بمعنى (أو) .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾

جملة « له معقبات » إلى آخرها . يجوز أن تكون متصلة بـ (من) الموصولة من قوله « من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ». على أن الجملة خبر ثان عن « من أسرّ القول » وما عطف عليه .

والضمير في « له » والضمير المنصوب في « يحفظونه » . وضميرا « من بين يديه ومن خلفه » جاءت مفردة لأن كلا منها عائد إلى أحد أصحاب تلك الصلات حيث إن ذكرهم ذكر أقسام من الذين جعلوا سواء في علم الله تعالى . أي لكل من أسرّ القول ومنْ جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنّهار معقبات يحفظونه من غوائل تلك الأوقات .

ويجوز أن تتصل الجملة بـ « من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » . وإفراد الضمير لمراعاة عطف صلة على صلة دون إعادة الموصول. والمعنى كالوجه الأول .

و « المعقبات » جمع معَقِّبَة – بفتح العين وتشديد القاف مكسورة – اسم فاعل عَقَّبه إذا تبعه . وصيغة التفعيل فيه للمبالغة في العقب. يقال: عقبه إذا اتبعه واشتقاته من العقب – بفتح فكسر – وهو اسم لمؤخّر الرجل فهو فَعّل مشتق من الاسم الجامد لأنّ الّذي يتبع غيره كأنّه يطأ على عقبه ، والمراد : ملائكة معقّبات . والواحد معقب .

وإنما جمع جمع مؤنث بتأويل الجماعات .

والحفظ : المراقبة . ومنه سمي الرقيب حفيظا . والمعنى : يراقبون كلّ أحد في أحواله من إسرار وإعلان . وسكون وحركة ، أي في أحوال ذلك . قال تعالى « وإنّ عليكم لحافظين » .

و « من بين يديه ومن خلفه » مستعمل في معنى الإحاطة من الجهات كلها .

وقوله « من أمر الله » صفة « معقبات » . أي جماعات من جند الله وأمره ، كقوله تعالى « قُل الروحُ من أمر ربّي » وقوله « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » يعني القرآن .

ويجوز أن يكون الحفظ على الوجه الثاني مرادا به الوقاية والصيانة ، أي يحفظون من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . أي يقونه أضرار الليل من اللصوص وذوات السموم . وأضرارَ النّهار نحو الزحام والقتال . فيكون «من أمر الله» جارًّا ومجرورا لغوًا متعلقا بـ « يحفظونه » ، أي يقُونه من مخاوقات الله. وهذا منّة على العباد بلطف الله بهم وإلا لكان أدنى شيء يضر بهم . قال تعالى « الله لطيف بعباده » .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

جملة معترضة بين الجمل المتقدمة المسوقة للاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه بمصنوعاته وبين التذكير بقوة قدرته وبين جملة « هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا » . والمقصود تحذيرهم من الإصرار على الشّرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدنيا في مقابلة استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ، ذلك أنهم كانوا في نعمة من العيش فبطروا النعمة وقابلوا دعوة الرسول — صلى الله عليه وسلّم — بالهزء وعاملوا المؤمنين بالتّحقير « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » — «وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا » .

فذكرهم الله بنعمته عليهم ونبههم إلى أنّ زوالها لا يكون إلاّ بسبب أعمالهم السيّئة بعد ما أنذرهم ودعاهم .

والتغيير : التبديل بالمُغاير . فلا جرم أنه تهديد لأولي النعمة من المشركين بأنهم قد تعرضوا لتغييرها . فماصدقُ (ما) الموصولة حالة . والباء للملابسة . أي حالة ملابسة لقوم. أي حالة نعمة لأنها محل التحذير من التغيير . وأما غيرها فتغييره مطلوب. وأطلق التغيير في قوله « حتى يغيروا » على التسبب فيه على طريقة المجاز العقلي .

وجملة « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له » تصريح بمفهوم الغاية المستفاد من « حتى يغيروا ما بأنفسهم » تأكيداً للتحذير . لأن المقام لكونه مقام خوف ووجل يقتضي التصريح دون التعريض ولا ما يقرب منه ، أي إذا أراد الله أن يغيّر ما بقوم حين يغيرون ما بأنفسهم لا يَردّ إرادته شيء. وذلك تحذير من الغرور أن يقولوا : سنسترسل على ما نحن فيه فإذا رأينا العذاب آمنا . وهذا كقوله « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس » الآية .

وجملة « وما لهم من دونه من وال » زيادة في التحذير من الغرور لئلا يحسبوا أن أصنامهم شفعاؤهم عند الله .

والوالي : الذي يلي أمر أحد. أي يشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع . مشتق من ولي إذا قَرب ، وهو قرب ملابسة ومعالجة .

وقرأ الجمهور من « والٍ » بتنوين « وال » دون ياء في الوصل والوقف . وقرأه ابن كثير – بياء بعد اللام – وقفا فقط دون الوصل كما علمته في قوله تعالى « ومن يضلل الله فما له من هاد » في هذه السورة .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ

ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾

استئناف ابتدائي على أسلوب تعداد الحجج الواحدة تلوى الأخرى . فلأجل أسلوب التعداد إذ كان كالتكرير لم يعطف على جملة « سواء منكم من أسرّ القول » .

وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة الله وعجيب صنعه . وفيه من المناسبة للإنذار بقوله « إن الله لا يغيّر ما بقوم » الخ أنه مثال لتصرّف الله بالإنعام والانتقام في تصرف واحد مع تذكيرهم بالنّعمة التي هم فيها . وكل ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية في قوله « الله يعلم ما تحمل كل أنثى » وقوله « وكل شيء عنده بمقدار » . فكانت هذه الجملة جديرة بالاستقلال وأن يجاء بها مستأنفة لتكون مستقلة في عداد الجمل المستقلة الواردة في غرض السورة .

وجاء هنا بطريق الخطاب على أسلوب قوله « سواء منكم من أسر القول » لأن الخوف والطمع يصدران من المؤمنين ويهدد بهما الكفرة .

وافتتحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتتح به في الجمل السابقة ، فجاءت على أسلوب مختلف . وأحسب أن ذلك مراعاة لكون هاته الجملة مفرعة عن أغراض الجمل السابقة فإن جُمل فواتح الأغراض افتتحت بالاسم العلم كقوله « الله الذي رفع السماوات بغير عَمَد » وقوله « الله يعلم ما تحمل كل أنثى » وقوله « إن الله لا يغير ما بقوم » . وجملَ التفاريع افتتحت بالضمائر كقوله « يُدبر الأمر » وقوله « وهو الذي مدّ الأرض » وقوله « جعل فيها زوجين » .

و « خوفا وطمعا » مصدران بمعنى التخويف والإطماع . فهما في محل المفعول لأجله لظهور المراد .

وجعل البرق آية نذارة وبشارة معًا لأنهم كانوا يَسِمون البرق فيتوسمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه .

وإنشاء السحاب : تكوينه من عدم بإثارة الأبْخرة التي تتجمع سحابا .

والسحاب : اسم جمع لسحابة . والثقال : جمع ثقيلة . والثقل كون الجسم أكثر كمية أجزاء من أمثاله . فالثقل أمر نسبي يختلف باختلاف أنوع الأجسام . فرب شيء يعد ثقيلا في نوعه وهو خفيف بالنسبة لنوع آخر . والسحاب يكون ثقيلا بمقدار ما في خلاله من البخار . وعلامة ثقله قربه من الأرض وبطء تنقله بالرياح . والخفيف منه يُسمى جهاما .

وعطف الرعد على ذكر البرق والسحاب لأنه مقارنهما في كثير من الأحوال .

ولما كان الرعد صوتا عظيما جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن الله منزه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء . وكان شأن تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه الله عن الشريك جعل صوت الرعد دليلا على تنزيه الله تعالى . فإسناد التسبيح إلى الرعد مجاز عقلي . ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شبه الرعد بآدمي يُسبح الله تعالى . وأثبت شيء من علائق المشبّه به وهو التسبيح . أي قول سبحان الله .

والباء في « بحمده » للملابسة . أي ينزه الله تنزيها ملابسا لحمده من حيث إنه دال على اقتراب نزول الغيث وهو نعمة تستوجبُ الحمد . فالقول في ملابسة الرعد للحمد مساو للقول في إسناد التسبيح إلى الرعد . فالملابسة مجازية عقلية أو استعارة مكنية .

و«الملائكة»عطف على الرعد ، أي وتسبح الملائكة من خيفته . أي من خوف الله .

و (من) للتعليل . أي ينزهون الله لأجل الخوف منه . أي الخوف مما لا يرضى به وهو التقصير في تنزيهه .

وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التعريض بالمشركين . أي أن التنزيه الذي دلت عليه آيات الجو يقوم به الملائكة . فالله غني عن تنزيهكم إياه ، كقوله « إن تكفروا فإنّ الله غني عنكم » . وقوله « وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغنيّ حميد » .

واقتصر في العبرة بالصواعق على الإنذار بها لأنها لا نعمة فيها لأن النعمة حاصلة بالسحاب وأما الرعد فآلة من آلات التخويف والإنذار . كما قال في آية سورة البقرة « أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورَعْد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » . وكان العرب يخافون الصواعق . ولقبوا خويلد بن نفيل الصَعِق لأنه أصابته صاعقة أحرقته .

ومن هذا القبيل قول النبيء – صلّى الله عليه وسلّم – « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوّف الله بهما عباده » . أي بكسوفهما فاقتصر في آيتهما على الإنذار إذ لا يترقب الناس من كسوفهما نفعا .

وجملة « وهم يجادلون في الله » في موضع الحال لأنه من متممات التعجب الذي في قوله « وإن تعجب فعجب قولهم » الخ . فضمائر الغيبة كلها عائدة إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم في صدر السورة بقوله « ولكن أكثر النّاس لا يؤمنون» وقوله « أولئك الذين كفروا بربهم » وقوله « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه » . وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين فتمحض تخويف الكافرين .

والمجادلة : المخاصمة والمراجعة بالقول . وتقدم في قوله تعالى « ولا تجادلْ عن الذين يختانون أنفسهم » في سورة النساء .

وقد فهم أن مفعول «يجادلون» هو النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – والمسلمون. فالتقدير : يجادلونك أويجادلونكم . كقوله « يجادلونك في الحق بعد ما تبيّن » في سورة الأنفال.

والمجادلة إنما تكون في الشؤون والأحوال ، فتعليق اسم الجلالة المجرور بفعل « يجادلون » يتعين أن يكون على تقدير مضاف تدل عليه القرينة. أي في توحيد الله أو في قدرته على البعث .

ومن جدلهم ما حكاه قوله « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم » . في سورة يس .

والمِحال : بكسر الميم يحتمل هنا معنيين . لأنه إن كانت الميم فيه أصلية فهو فِعال بمعنى الكيد وفعله مَحَل. ومنه قولهم تمحل إذا تحيل . جعل جدالهم في الله جدال كيد لأنهم يبرزونه في صورة الاستفهام في نحو قولهم « من يُحيي العظام وهي رميم » فقوبل بـ « شديد المحال » على طريقة المشاكلة . أي وهو شديد المحال لا يغلبونه . ونظيره « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

وقال نفطويه : هو من ماحل عن أمره . أي جادل . والمعنى : وهو شديد المجادلة. أي قوي الحجة .

وإن كانت الميم زائدة فهو مفعل من الحول بمعنى القوة . وعلى هذا فإبدال الواو ألفا على غير قياس لأنه لا موجب للقلب لأن ما قبل الواو ساكن سكونا حيا. فلعلهم قلبوها ألفا للتفرقة بينه وبين مِحول بمعنى صبي ذي حول . أي سنة .

وذكر الواحدي والطبري أخبارا عن أنس وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الآية نزلت في قضية عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة حين وردا المدينة يشترطان لدخولهما في الإسلام شروطا لم يقبلها منهما النبيء ـ صلّى الله عليْه وسلّم ـ. فهمّ أربَد بقتل النبيء ـ صلّى الله عليْه وسلّم ـ فصرفه الله. فخرج هو وعامر بن الطفيل قاصدين قومهما وتواعدا النبيء ـ صلّى الله عليْه وسلّم ـ بأن يجلبا عليه خيل بني عامر. فأهلك الله أربَد بصاعقة أصابته وأهلك عامرا بِغُدة نبتت في جسمه فمات منها وهو في بيت امرأة من بني سلول في طريقه إلى أرض قومه . فنزلت في أربد «ويرسل الصواعق » وفي عامر « وهم يجادلون في الله » .

وذكر الطبري عن صحار العبدي : أنها نزلت في جبار آخر . وعن مجاهد: أنها نزلت في يهودي جادل في الله فأصابته صاعقة .

ولما كان عامر بن الطفيل إنما جاء المدينة بعد الهجرة وكان جدال اليهود لا يكون إلا بعد الهجرة أقدم أصحاب هذه الأخبار على القول بأن السورة مدنية أوْ أن هذه الآيات منها مدنية . وهي أخبار ترجع إلى قول بعض الناس بالرأي في أسباب النزول. ولم يثبت في ذلك خبر صحيح صريح فلا اعتداد بما قالوه فيها ولا يخرج السورة عن عداد السور المكية . وفي هذه القصة أرسل عامر ابن الطفيل قوله « أغُدّة كغدة البعير وموت في بيت سلولية » مثلا . ورثى لبيد ابن ربيعة أخاه أربدَ بأبيات منها :

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نَوْء السماك والأسد(1)
فجعَني الرعد والصواعق بالـــفارس يوم الكريهة النَجِدِ

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾

استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة ونهوض المدلل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأول . ثم الخلق الثاني . وبالقدرة التامة التي لا تدانيها قدرة قدير . وبالعلم العام . فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق وأن عبادة غيره ضلال .

والدعوة : طلب الإقبال . وكثر إطلاقها على طلب الإقبال للنجدة أو للبذل . وذلك متعين فيها إذا أطلقت في جانب الله لاستحالة الإقبال الحقيقي . فالمراد طلب الإغاثة أو النعمة .

(1) السماك ـ بكسر السين ـ اسم لنجوم .

وإضافة الدعوة إلى الحق إمّا من إضافة الموصوف إلى الصفة إن كان الحق بمعنى مصادفة الواقع . أي الدعوة التي تصادف الواقع . أي استحقاقه إياها . وإمّا من إضافة الشيء إلى منشئه كقولهم : برود اليمن . أي الدعوة الصادرة عن حق وهو ضد الباطل . فإن دعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانية وهو الحق . وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل .

واللام للملك المجازي وهو الاستحقاق . وتقديم الجار والمجرور على المبتدإ لإفادة التخصيص . أي دعوة الحق ملكه لا ملك غيره . وهو قصر إضافي .

وقد صُرح بمفهوم جملة القصر بجملة « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » . فكانت بيانا لها . وكان مقتضى الظاهر أن تفصل ولا تعطف وإنما عطفت لما فيها من التفصيل والتمثيل . فكانت زائدة على مقدار البيان . والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون . واسم الموصول صادق على الأصنام . وضمير « يدعون » للمشركين . ورابط الصلة ضمير نصب محذوف . والتقدير : والذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم .

وأجري على الأصنام ضمير العقلاء في قوله « لا يستجيبون » مجاراة للاستعمال الشائع في كلام العرب لأنهم يعاملون الأصنام معاملة عاقلين .

والاستجابة : إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي . فالسين والتاء لقوة الفعل .

والباء في « بشيء » لتعدية « يستجيبون » لأن فعل الإجابة يتعدى إلى الشيء المجاب به بالباء . وإذا أريد من الاستجابة تحقيق المأمول اقتصر على الفعل . كقوله « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن » .

فلما أريد هنا نفي إجداء دعائهم الأصنام جعل نفي الإجابة متعديا بالباء إلى انتفاء أقل ما يجيب به المسؤول وهو الوعد بالعطاء أو الاعتذار عنه . فهم عاجزون عن ذلك وهم أعجز عما فوقه .

وتنكير « شيء » للتحقير . والمراد أقل ما يجاب به من الكلام .

والاستثناء في « إلا كباسط كفيه » من عموم أحوال الداعين والمستجيبين والدعوة والاستجابة . لأنه تشبيه هيئة فهو يسري إلى جميع أجزائها فلك أن تقدر الكلام إلا كداع باسط أو إلاّ كحال باسط . والمعنى : لا يستجيبونهم في حالٍ من أحوال الدعاء والاستجابة إلا في حالٍ لداعٍ ومستجيبٍ كحال باسطِ كفيه إلى الماء . وهذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التمليح والكناية .

والمراد بـ « باسط كفيه » من يغترف ماء بكفين مبسوطتين غير مقبوضتين إذ الماء لا يستقر فيهما . وهذا كما يقال : هو كالقابض على الماء . في تمثيل إضاعة المطلوب . وأنشد أبو عبيدة :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها   من الودّ مثل القابض الماءَ باليد

و (إلى) للانتهاء لدلالة « باسط » على أنه مَدّ إلى الماء كفيه مبسوطتين .

واللام في « ليبلغ » للعلة . وضمير « يبلغ » عائد إلى الماء . وكذلك ضمير « هو » والضمير المضاف إليه في « بالغه » للفم .

والكلام تمثيلية . شبّه حال المشركين في دعائهم الأصنام وجاب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب فيذهب سعيه وتعبه باطلا مع ما فيه من كناية وتمليح كما ذكرناه .

وجملة « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » عطف على جملة « والذين يدعون من دونه » لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي . فبينت الجملة السابقة حال عجز المدعو عن الإجابة وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتمليح . واشتمل ذلك أيضا بالكناية على خيبة الداعي .

وبينت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبْيينه بالكناية . فباختلاف الغرض والأسلوب حَسُن العطف. وبالمآل حصل توكيد الجملة الأولى وتقريرُها وكانت الثانية كالفذلكة لتفصيل الجملة الأولى .

والضلال: التلف والضياع . و(في) للظرفية المجازية للدلالة على التمكن في الوصف ؛ أي إلا ضائع ضَياعا شديدا .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾

عطف على جملة « له دعوة الحق » أي له دعوة الحق وله يسجد من في السماوات والأرض وذلك شعار الإلهية ؛ فأما الدعوة فقد اختص بالحقة منها دون الباطلة ، وأما السجود وهو الهويّ إلى الأرض بقصد الخضوع فقد اختص الله به على الإطلاق ، لأن الموجودات العليا والمؤمنين بالله يسجدون له ، والمشركين لا يسجدون للأصنام ولا لله تعالى . ولعلهم يسجدون لله في بعض الأحوال .

وعدل عن ضمير الجلالة إلى اسمه تعالى العَلَم تبعا للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصلية .

والعموم المستفاد من (مَن) الموصولة عموم عرفي يراد به الكثرة الكاثرة .

والمقصود من « طوعا وكرها » تقسيم أحوال الساجدين . والمراد بالطوع الانسياق من النفس تقرّبا وزُلفى لمحض التعظيم ومحبة الله . وبالكَره الاضطرار عند الشدة والحاجة كما في قوله تعالى « ثم إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون » . ومنه قولهم : مُكره أخُوك لا بَطل ، أي مضطر إلى المقاتلة .

وليس المراد من الكَره الضغط والإلجاء كما فسر به بعضهم فهو بعيد عن الغرض كما سيأتي .

والظلال : جمع ظل ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

والضمير راجع إلى « من في السماوات والأرض » مخصوص بالصالح له من الأجسام الكثيفة ذات الظل تخصيصا بالعقل والعادة . وهو عطف على « مَن ». أي يسجد مَن في السماوات وتسجد ظِلالهم .

والغدُوّ : الزمان الذي يغدو فيه الناس . أي يخرجون إلى حوائجهم : إما مصدرا على تقدير مضاف . أي وقت الغدو ، وإما جمع غُدوة . فقد حكي جمعها على غُدوّ . وتقدم في آخر سورة الأعراف .

والآصال : جمع أصيل . وهو وقت اصفرار الشمس في آخر المساء . والمقصود من ذكرهما استيعاب أجزاء أزمنة الظل.

ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية. فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتى تكون الظلال واقعة على الأرض وُقوعَ الساجد . فإذا كان من الناس من يأبى السجود لله أو يتركه اشتغالا عنه بالسجود للأصنام فقد جعل الله مثاله شاهدا على استحقاق الله السجود إليه شهادة رمزية ؛ ولو جعل الله الشمس شمسين متقابلتين على السواء لانعدمت الظلال . ولو جعل وجه الأرض شفافا أو لامعًا كالماء لم يظهر الظل عليه بيّنا . فهذا من رموز الصنعة التي أوجدها الله وأدقّها دقة بديعة . وجعل نظام الموجودات الأرضية مهيئة لها في الخلقة لحكم مجتمعة . منها : أن تكون رموزًا دالّة على انفراده تعالى بالإلهية . وعلى حاجة المخلوقات إليه . وجعل أكثرها في نوع الإنسان لأن نوعه مختص بالكفران دون الحيوان .

والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض . كما قيل :

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحد

والاستدلال مع ذلك على أن الأشياء تسجد لله لأن ظلالها واقعة على الأرض في كل مكان وما هي مساجد للأصنام وأن الأصنام لها أمكنة معينة هي حماها وحريمها وأكثر الأصنام ، في البيوت مثل : العزى وذي الخلصة وذي الكعبات حيث تنعدم الظلال في البيوت .

وهذه الآية موضع سجود من سجود القرآن . وهي السجدة الثانية في ترتيب المصحف باتفاق الفقهاء . ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد ما يسجد لله طوعًا بإيقاعه السجود . وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

لما نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوعة على انفراده بالإلهية من قوله « اللهُ الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها » وقوله « وهو الذي مدّ الأرض » وقوله « الله يعلم ما تحمل كلّ أنثى » وقوله« هو الذي يريكم البرق » الآيات ، وبما فيها من دلالة رمزية دقيقة من قوله « له دعوة الحق » وقوله « ولله يسجد من في السماوات» إلى آخرها لا جرم تهيّأ المقام لتقرير المشركين تقريرًا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة ، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعا لا يسعهم إلاّ تجرّع مرارته ، لذلك استونف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنويهابوضوح الحجة .

ولـكون الاستفهـام غير حقيقي جـاء جوابـه من قِبَل المستفهِم. وهذا كثير في القرآن وهو من بـديع أساليبـه. كقولـه « عمّ يتساءلـون عن النبـأ العظيم ». وتقدم عند قولـه تعـالى « قل لمن مـا في السمـاوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة » في سورة الأنعـام .

وإعـادة فعل الأمـر بـالقول في « قُل أفـاتّخذتم من دونـه أوليـاء » الذي هو تفريـع على الإقرار بـأن الله ربّ السمـاوات والأرض لقصد الاهتمـام بذلك التفريـع لمـا فيـه من الحجـة الواضحـة .

فـالاستفهـام تقـريـر وتوبيـخ وتسفيه لـرأيهم بنـاء على الإقرار المسلّم . وفيـه استدلال آخـر على عدم أهليـة أصنـامهم للإلهيـة فـإن اتّخـاذهم أوليـاء من دونـه معلـوم لا يُحتـاج إلى الاستفهـام عنـه .

وجملة « لا يملكون » صفـة لـ « أوليـاء » . والمقصود منهـا تنبيـه السامعين للنظر في تلك الصفـة فـإنهم إن تـدبـروا علمـوهـا وعلمـوا أن من كـانت تلك صفتـه فليس بـأهل لأن يعبـد .

ومعنى الملك هنـا القدرة كما في قوله تعالى « قل أتعبدون من دون الله مـا لا يملك لـكم ضَرًا ولا نفعا» في سورة العقود . وفي الحديث « أوَ أملِك لك أنْ نزع الله من قلبك الرحمـة » .

وعطف الضر على النفـع استقصاء في عجـزهـم لأن شـأن الضـرّ أنـه أقـرب للاستطـاعة وأسهل .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾

إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاصّ بهذا الكلام لأن ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة. وهذا إظهار لمزية المؤمنين بالله على أهل الشرك، ذلك أن قوله «قل من ربّ السماوات والأرض قل الله» تضمّن أن الرسول – عليه السلام – دعا إلى إفراد الله بالربوبية وأن المخاطبين أثبتوا الربوبية للأصنام فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور.

ونفي التسوية بين الحالين يتضمن تشبيهها بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ.

و(أم) للإضراب الانتقالي في التشبيه. فهي لتشبيه آخر بمنزلة (أو) في قول لبيد:

أوْ رَجْعُ واشمة أسفّ نؤورها

وقوله تعالى «أو كصيّب من السماء».

وأظهر حرف (هل) بعد (أم) لأن فيه إفادة تحقيق الاستفهام. وذلك ليس مما تغني فيه دلالة (أم) على أصل الاستفهام ولذلك لا تظهر الهمزة بعد (أم) اكتفاء بدلالة (أم) على تقدير استفهام.

وجمع الظلمات وإفراد النور تقدم عند قوله تعالى «وجعل الظلمات والنور» في أول سورة الأنعام.

واختير التشبيه في المتقابلات العَمَى والبصر. والظلمة والنور. لتمام المناسبة لأن حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك

المبصرات . وحال المؤمنين كحال البصر في العالم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد .

وقرأ الجمهور « تستوي الظلمات » بفوقية في أوله مراعاة لتأنيث الظلمات . وقرأ حمزة . والكسائي. وأبو بكر عن عاصم ، وخلف ـ بتحتية في أوله وذلك وجه في الجمع غير المذكر السالم .

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾

(أم) للإضراب الانتقالي في الاستفهام مقابلة قوله « أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرّا » . فالكلام بعد (أم) استفهام حذفت أداته لدلالة (أم) عليها . والتقدير : أمْ جعلوا لله شركاء . والتُفت عن الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم .

والاستفهام مستعمل في التهكم والتغليط . فالمعنى : لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يَخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتخاذهم آلهة . أي فلا عذر لهم في عبادتهم . فجملة « خلَقوا » صفة لـ « شركاء » .

وشِبْه جملة « كخلقه » في معنى المفعول المطلق . أي خلقوا خلقا مثل مَا خلق الله . والخلق في الموضعين مصدر .

وجملة « فتشابه » عطف على جملة « خلقوا كخلقه » فهي صفة ثانية لـ « شركاء » . والرابط اللام في قوله « الخلق » لأنها عوض عن الضمير المضاف إليه . والتقدير : فتشابه خلقهم عليهم . والوصفان هما مصب التهكم والتغليط .

وجملة « قل الله خالق كل شيء » فذلكة لما تقدم ونتيجة له ، فإنه لما جاء الاستفهام التوبيخي في « أفاتخذتم من دونه أولياء » وفي « أمْ جعلوا

لله شركاء خلقوا كخلقه » كان بحيث ينتج أن أولئك الذين اتخذوهم شركاء لله والذين تبين قصورهم عن أن يملكوا لأنفسهم نفعا أو ضرا . وأنهم لا يخلقون كخلق الله إن هم إلا مخلوقات لله تعالى . وأن الله خالق كل شيء ، وما أولئك الأصنام إلا أشياء داخلة في عموم « كل شيء » . وأن الله هو المتوحد بالخلق . القهّار لكل شيء دونه . ولتعين موضوع الوحدة ومتعلّق القهر حذف متعلّقهما . والتقدير : الواحد بالخلق القهّار للموجودات .

والقهر : الغلبة . وتقدم عند قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده » في سورة الأنعام .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

جملة « أنزل من السماء ماء » استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء التي من شأنها أن تهدي من لم يطبع الله على قلبه فاهتدى بها المؤمنون .

وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقي شيء واحد انتفع فريق بما فيه من منافع وتعلق فريق بما فيه من مضار . وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى ليحصل التخلص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبَر الموعظة . فالمركب مستعمل في التشبيه التمثيلي بقرينة قوله « كذلك يضرب الله الحق » الخ .

شبه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي بـه النفع والحياة من السمـاء. وشبـه ورود القرآن عـلى أسمـاع النـاس بـالسيـل يمـر عـلى مختلف الجهـات فهو يَمرّ على التّلال والجبـال فلا يستقر فيهـا ولـكنه يمضي إلى الأوديـة والوهـاد فيـأخذ منه كُلٌّ بقدر سعته . وتلك السيول فـي حـال نـزولهـا تحمـل في أعـاليهـا زَبَدًا . وهو رغوة الماء التي تربـو وتطفـو على سطح المـاء . فيذهب الـزبد غيرَ منتفـع به ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به النـاس للشراب والسقي.

ثـم شُبهت هيئـة نـزول الآيـات ومـا تحتوي عليـه مـن إيقـاظ النظر فيهـا فينتفـع بـه من دخـل الإيمـان قلـوبهـم على مقـاديـر قوة إيمـانهم وعملهم . ويمـر على قلـوب قوم لا يشعرون بـه وهم المنكرون المعرضون . ويخـالط قلوبَ قـوم فيتـأملـونـه فيـأخـذون منه مـا يثير لهـم شبهـات وإلحـاداً . كقولهم « هـل ندلّـكم على رجـل ينبئـكم إذا مُزّقتم كلّ ممزّق إنـكم لفـي خلق جـديد » . ومنـه الأخذ بـالمتشابـه قـال تعـالى « فـأمـا الذين في قلوبهم زيـغ فيتبعـون مـا تشابـه منه ابتغـاء الفتنـة وابتغـاء تـأويلـه » .

شبـه ذلك كلـه بهيئة نـزول الماء فـانحدَاره عـلى الجبـال والتـلال وسيلانـه في الأودية على اختلاف مقـاديـرهـا. ثم مـا يدفع من نفسه زبـدا لا ينتفـع بـه ثم لم يلبث الـزبـد أن ذهـب وفنـي والمـاء بقـي في الأرض للنفع .

ولمـا كـان المقصود التشبيـه بـالهيئـة كلهـا جيء في حكـاية ما تـرتب على إنزال المـاء بـالعطف بفاء التفريـع في قوله «فسألتْ» وقوله «فاحتمل». فهذا تمثيل صالـح لتجزئـة التشبيهـات التي تركب منهـا وهـو أبلـغ التمثيـل .

وعلى نحو هذا التمثيـل وتفسيره جـاء مـا يبينـه من التمثيـل الذي في قول النبيء – صلّى الله عليه وسلّم – « مَثَل مـا بعثني الله بـه من الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكـان منهـا نقيّة قبلتْ المـاء فـأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير . وكـانت منهـا أجادب أمسكت المـاء فنفع الله بهـا النـاسَ فشربـوا وسقَـوا

وزرعوا . وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً . فذلك مثَل منْ فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلتُ به » .

والأودية: جمع الوادي. وهو الحفير المتسع الممتد من الأرض الذي يجري فيه السيل . وتقدم في سورة براءة عند قوله تعالى « ولا يقطعون واديا إلاّ كُتب لهم » .

والقَدَر – بفتحتين – : التقدير . فقوله « بقَدَرها » في موضع الحال من «أودية». وذكره لأنه من مواضع العبرة . وهو أن كانت أخاديد الأودية على قَدْر ما تحتمله من السيول بحيث لا تفيض عليها وهو غالب أحوال الأودية . وهذا الحال مقصود في التمثيل لأنه حال انصراف الماء لنفعٍ لا ضرّ معه. لأنّ من السيول جواحف تجرف الزرع والبيوت والأنعام .

وأيضا هو دال على تفاوت الأودية في مقادير المياه . ولذلك حظ من التشبيه وهو اختلاف النّاس في قابلية الانتفاع بما نزل من عند الله كاختلاف الأودية في قبول الماء على حسب ما يسيل إليها من مصاب السيول . وقد تم التمثيل هنا .

وجملة « ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متَاع زَبد مثلُه » معترضة بين جملة « فاحتمل » الخ وجملة « فأما الزَبَد »الخ .

وهذا تمثيل آخر ورد استطرادا عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكّة وهم المقصود . فقد كان لهم في مكة صواغون كما دل عليه حديث الإذخر . فقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم بمثَل ما يصْهر من الذهب والفضة في البواتق فإنه يقذف زبدا ينتفي عنه وهو الخبَث وهو غير صالح لشيء في حين صلاح معدنه لاتخاذه حلية أو متاعا . وفي الحديث « كما ينفي الكير

خبث الحديد ». فالكلام من قبيل تعدّد التشبيه القريب، كقوله تعالى « مَثَلُهم كمثل الّذي استوقد نارا » ثم قوله « أو كصيب من السماء » .

وأقرب إلى ما هنا قولُ لبيد :

فتنازعَا سَبطا يَطير ظِلالُه   كدُخان مُشْعَلَة يَشِبّ ضرامها
مشمُولَةٍ غُلثت بنابتِ عَرفَج   كدُخان نار ساطع إسنامها

وأفاد ذلك في هذه الآية قوله « زبد مثله » .

وتقديم المسند على المسند إليه في هذه الجملة للاهتمام بالمسند لأنّه موضع اعتبار أيضا ببديع صنع الله تعالى إذ جعل الزبد يطفو على أرقّ الأجسام وهو الماء وعلى أغلظها وهو المعدن فهو ناموس من نواميس الخلقة، فبالتقديم يقع تشويق السامع إلى ترقب المسند إليه.

وهذا الاهتمام بالتشبيه يشبه الاهتمام بالاستفهام في قول النّبيء ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في وصف جهنم « فإذا فيها كلاليبُ مثل حَسَك السعدان هل رأيتم حسك السعدان » .

وعدل عن تسمية الذهب والفضة إلى الموصولية بقوله تعالى « وممّا توقدون عليه في النار » لأنها أخصر وأجمع . ولأن الغرض في ذكر الجملة المجعولة صلة . فلو ذكرت بكيفية غير صلة كالوصفية مثلا لكانت بمنزلة الفضلة في الكلام ولطال الكلام بذكر اسم المَعْدنين مع ذكر الصلة إذ لا مَحيد عن ذكر الوقود لأنه سبب الزبد، فكان الإتيان بالموصول قضاءً لحق ذكر الجملة مع الاختصار البديع .

ولأنّ في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضة إعراضًا يؤذن بقلة الاكتراث بهما ترفعا عن وَلَع النّاس بهما فإن اسميهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف النّاس .

و(من) في قوله «وممّا توقدون » ابتدائية .

و « ابتغاءَ حليـة أو متاع » مفعول لأجله متعلق بـ « توقدون » . ذكر لإيضاح المراد من الصلة ولإدماج ما فيه من منة تسخير ذلك للناس . لشدة رغبتهم فيهما.

والحليـة : مـا يتحلى بـه . أي يتزيـن وهو المصوغ .

والمتـاعَ : مـا يتمتـع بـه وينتفع . وذلك المسكوك الذي يتَعـامل بـه النـاس من الذهب والفضة .

وقـرأ الجمهـور « تـوقـدون » – بفوقيـة في أولـه – على الخطـاب . وقرأه حمزة. والكسائي. وحفص عن عـاصم. وخلف – بتحتيـة – على الغيبـة .

وجملة « كذلك يضرب الله الحق والبـاطل » معترضة. هي فذلكـة التمثيل ببيـان الغـرض منـه . أي مثل هذه الحـالة يكون ضَرْب مثل للحـق والبـاطل . فمعنى « يضرب » يبيّن ويُمثل . وقد تقدم معنى يضرب عند قوله تعالى « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا» فـي سورة البقرة.

فحُذف مضاف في قوله « يضرب الله الحق ». والتقدير : يضرب الله مَثَلَ الحق والبـاطل. لدلالـة فعل « يضرب » على تقدير هذا المضاف .

وحـذف الجار من « الحق » لتنزيل المضاف اليه منزلـة المضاف المحذوف .

وقد علم أن الزبـد مثَل للبـاطل وأن المـاء مثَل للحق . فـارتقى عند ذلك إلى مـا في المثلين من صفتي البقـاء والزوال ليتوصل بذلك إلى البشارة والنذارة لأهـل الحق وأهـل البـاطل بـأن الفريـق الأول هو البـاقي الدائـم . وأن الفريـق الثـاني زائـل بـائد. كقولـه « ولقـد كتبنـا في الـزبـور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثهـا عبـادي الصالحون إن في هذا لبلاغـا لقوم عـابدين ». فصار التشبيـه تعريضا وكنـاية عن البشارة والنذارة . كما دل عليه قوله عقب ذلك « للذين استجـابـوا لربهـم الحسنى والذين لم يستجيبـوا لـه » الـخ كمـا سيـأتي قـريبـا .

فجملة « فـأمـا الـزبـد » معطوفة على جملة « فـاحتمـلَ السيلُ زبـداً رابيـا » مفرّعةٌ على التمثيـل . وافتتحت بـ (أمـا) للتوكيد وصَرْف ذهن السـامع إلى الكـلام

مما فيه من خفي البشارة والنذارة . ولأنه تمام التمثيل . والتقدير : فذهب الزبد جُفاء ومكُث ما ينفع الناس في الأرض .

والجُفاء : الطريح المرميُّ . وهذا وعيد للمشركين بأنهم سيبيدون بالقتل ويبقى المؤمنون .

وعبر عن الماء بما ينفع الناس للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض تعريضا للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنهم ليسوا مما ينفع الناس . وهذه الصلة موازنة للوصف في قوله تعالى « إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

واكتفي بذكر وجه شبه النافع بالماء وغير النافع بالزبد عن ذكر وجه شبّه النافع بالذهب أو الفضة وغير النافع بزبدهما استغناء عنه .

وجملة « كذلك يضرب الله الأمثال » مستأنفة تذييلية لما في لفظ « الأمثال » من العموم . فهو أعم من جملة « كذلك يضرب الله الحق والباطل » لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه فلما أعقب بمثل آخر وهو « فأما الزبد فيذهب جفاء » جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال . وحصل أيضا توكيد جملة « كذلك يضرب الله الحق والباطل » لأن العام يندرج فيه الخاص .

فالإشارة « كذلك » إلى التمثيل السابق في جملة « أنزل من السماء ماء » أي مثل ذلك الضَرْب البديع يضرب الله الأمثال ، وهو المقصود بهذا التذييل.

والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر ، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية، وإلى بلاغة القرآن وإعجازه ، وذلك تبهيج للمؤمنين وتحدّ للمشركين ، وليعلم أن جملة « فأما الزبد فيذهب جفاء » لم يؤت بها لمجرد تشخيص دقائق القدرة الإلهية والصنع البديع بل لِضرب المثَل ؛ فيعلمَ الممثّل له بطريق التعريض بالمشركين

والمؤمنين، فيكون الكلام قد تم عند قولـه « كذلك يضرب الله الأمثـال » كمـا هو شأن التذييـل .

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

استئنـاف بيـاني لجملـة « كذلك يضرب الله الأمثـال » . أي فـائدة هذه الأمثـال أنّ للذين استجـابـوا لربهـم حين يضربهـا لهم الحسنى إلى آخره .

فمنـاسبتـه لمـا تقدم مـن التمثيلين أنهمـا عـائدان إلى أحـوال المسلمين والمشركين. ففي ذكر هذه الجملة زيادة تنبيه للتمثيـل وللغرض منـه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين لأن المؤمنين استجـابوا لله بما عقلـوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأمـا المشركون فـأعرضوا ولم يعقلوا الأمثـال . قـال تعـالى « ومـا يعقلهـا إلا العـالمـون »،فكـان جزاؤهم عذابـا عظيما وهو سوء الحساب الذي عـاقبتـه المصير إلى جهنم . فمعنى « استجـابـوا لربهـم » استجـابـوا لدعوتـه بمـا تضمنـه المثل السابـق وغيره .

وقولـه « الحسنى » مبتدأ و « للـذين استجـابـوا » خبره . وفي العدول إلى الموصولين وصلتيهمـا في قولـه « للـذين استجـابـوا ـ والـذين لم يستجيبـوا لـه » إيمـاء إلى أن الصلتين سببـان لمـا حصل للفريقين .

وتقديم المسند في قولـه « للذين استجـابـوا لربهم الحسنى » لأنـه الأهـم لأن الغرض التنويـه بشأن الذين استجـابـوا مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه ، وفي ذلك تنويـه بهـا أيضا .

وأما الخبر عن وعيد الذين لم يستجيبوا فقد أجري على أصل نظم الكلام في التقديم والتأخير لقلة الاكتراث بهم. وتقدم نظير قوله « لو أن لهم ما في الأرض جميعا » في سورة العقود .

وأتي باسم الإشارة في « أولئك لهم سوء الحساب » للتنبيه على أنهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الصلة .

و « سوء الحساب » ما يحف بالحساب من إغلاظ وإهانة للمحاسب . وأما أصل الحساب فهو حسن لأنه عدل .

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

تفريع على جملة « للذين استجابوا لربهم الحسنى » الآية . فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام تنبيها على غفلة الضالّين عن عدم الاستواء. كقوله « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون » .

واستعير لمن لا يعلم أنّ القرآن حق اسمُ الأعمى لأنه انتفى علمه بشيء ظاهر بيّن فأشبه الأعمى . فالكاف للتشابه مستعمل في التماثل . والاستواء المراد به التماثل في الفضل بقرينة ذكر العَمَى. ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله في أول السورة « والذي أُنزل إليك من ربك الحقُّ — إلى — يؤمنون » .

وجملة « إنما يتذكر أولوا الألباب » تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء بأن سبب عدم علمهم بالحق أنهم ليسوا أهلا للتذكر لأن التذكر من شعار أولي الألباب، أي العقول .

والقصر بـ (إنما) إضافي ، أي لا غيرُ أولي الألباب . فهو تعريض بالمشركين بأنهم لا عقول لهم إذ انتفت عنهم فائدة عقولهم .

والألبـاب : العقـول . وتقدم في آخـر سورة آل عمران .

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

يجـوز أن تـكون « الّذين يؤمنـون » ابتـداء كلام فهو استئنـاف ابتـدائي جـاء لمناسبـة مـا أفـادت الجملـة الّتي قبلهـا من إنكـار الاستـواء بين فريقين . ولذلك ذكر في هذه الجمـل حـال فريقين في المحـامد والمساوي ليظهر أن نفي التسويـة بينهمـا فـي الجملـة السـابقـة ذلك النفـي المرادَ بـه تفضيل أحد الفريقيـن على الآخـر هو نفـي مُؤيـد بـالحجـة . وبذلك يصير موقع هذه الجملـة مفيدا تعليـلا لنفي التسويـة المقصـود منـه تفضيل المؤمنين على المشركين . فيـكون قولـه « الذين يوفـون » مسندا إليـه وكذلك مـاعطف عليـه . وجُملة « أولـئك لهم عقبـى الدار » مسندا .

واجتلاب اسم الإشارة « أولئك لهم عقبى الـدار » للتنبيـه على أن المشار إليهم جديـرون بمـا بعد اسم الإشارة من أجْل الأوصاف التي قبل اسم الإشارة . كقوله تعـالى « أولئك على هدى من ربهم » في أول سورة البقرة .

ونظير هذه الجملـة قولـه تعـالى « الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرّ مكـانا وأضل سبيلا » من قولـه « ولا يـأتونك بمثل إلا جئنـاك بـالحق وأحسنَ تفسيرا »

وقد ظهر بهذه الجملة كلها وبموقعها تفضيل الذين يعلمون أن ما أنزل حق بما لهم من صفات الكمال الموجبة للفضل في الدنيا وحسن المصير في الآخرة وبما لأضدادهم من ضد ذلك في قوله « والذين ينقضون عهد الله — إلى قوله — ولهم سوء الدار » .

والوفاء بالعهد: أن يحقّق المرء ما عاهد على أن يعمله. ومعنى العهد: الوعد الموثّق بإظهار العزم على تحقيقه من يمين أو تأكيد .

ويجوز أن يكون « الّذين يوفون بعهد الله » نعتا لقوله « أولوا الألباب » وتكون جملة « أولئك لهم عقبى الدار » نعتا ثانيا. والإتيان باسم الإشارة للغرض المذكور آنفا .

وعهد الله مصدر مضاف لمفعوله . أي ما عاهدوا الله على فعله ، أو من إضافة المصدر إلى فاعله . أي ما عهد اللهُ به إليهم . وعلى كلا الوَجهين فالمراد به الإيمان الّذي أخذه الله على الخلق المشار إليه بقوله « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى » . وتقدم في سورة الأعراف . فذلك عهدهم ربهم . وأيضا بقوله « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني » . وذلك عهد الله لهم بأن يعبدوه ولا يعبدوا غيره . فحصل العهد باعتبار إضافته إلى مفعوله وإلى فاعله .

وذلك أمر أودعه الله في فطرة البشر فنشأ عليه أصلهم وتقلّده ذريته. واستمر اعترافهم لله بأنه خالقهم. وذلك من آثار عهد الله . وطرأ عليهم بعد ذلك تحريف عهدهم فأخذوا يتناسون وتشتبه الأمور على بعضهم فطرأ عليهم الإشراك لتفريطهم النظر في دلائل التوحيد. ولأنه بذلك العهد قد أودع الله في فطرة العقول السليمة دلائل الوحدانية لمن تأمل وأسلم للدليل ؛ ولكن المشركين أعرضوا وكابروا

ذلك العهد القائم في الفطرة، فلا جرم أن كان الإشراك إبطالا للعهد ونقضا له. ولذلك عطفت جملة « ولا ينقضون الميثاق » على جملة « يوفون بعهد الله ».

والتعريف في « الميثاق » يحمل على تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق وبذلك يكون أعم من عهد الله فيشمل المواثيق الحاصلة بين الناس من عهود وأيمان.

وباعتبار هذا العموم حصلت مغايرةٌ ما بينه وبين عهد الله. وتلك هي مسوغة عطف «ولا ينقضون الميثاق» على «يوفون بعهد الله» مع حصول التأكيد لمعنى الأولى بنفي ضدها. وتعريضا بالمشركين لاتّصافهم بضد ذلك الكمال. فعطفُ التأكيد باعتبار المغايرة بالعموم والخصوص.

والميثاق والعهد مترادفان. والإيفاء ونفي النقض متحدا المعنى. وابتدىء من الصفات بهذه الخصلة لأنها تنبىء عن الإيمان والإيمان أصل الخيرات وطريقها. ولذلك عطف على « يوفون بعهد الله » قوله « ولا ينقضون الميثاق » تحذيرا من كل ما فيه نقضه.

وهذه الصلات صفات لأولي الألباب فعطفها من باب عطف الصفات للموصوف الواحد. وليس من عطف الأصناف. وذلك مثل العطف في قول الشاعر الذي أنشده الفرّاء في معاني القرآن:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

فالمعنى: الذين يتصفون بمضمون كل صلة من هذه الصلات كلما عرض مقتض لاتّصافهم بها بحيث إذا وجد المقتضي ولم يتصفوا بمقتضاه كانوا غير متصفين بتلك الفضائل. فمنها ما يستلزم الاتصاف بالضد. ومنها ما لا يستلزم إلا التفريط في الفضل.

وأعيد اسم الموصول هذا وما عطف عليه من الأسماء الموصولة. للدلالة على أن صلاتها خصال عظيمة تقتضي الاهتمام بذكر من اتصف بها. ولدفع توهم أن عقبى الدار لا تتحقق لهم إلاّ إذا جمعوا كل هذه الصفات.

فالمراد بـ « الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » ما يصدق على الفريق الذين يوفون بعهد الله .

ومناسبة عطفه أنّ وصْلَ ما أمر الله به أن يوصل أثر من آثار الوفاء بعهد الله وهو عهد الطاعة الداخل في قوله « وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » في سورة يس .

والوصل : ضم شيء لشيء . وضده القطع . ويطلق مجازا على القُرب وضده الهجر . واشتهر مجازا أيضا في الإحسان والإكرام ومنه قولهم . صلة الرحم . أي الإحسان لأجل الرحم . أي لأجل القرابة الآتية من الأرحام مباشرة أو بواسطة . وذلك النسب الجائي من الأمهات . وأطلقت على قرابة النسب من جانب الآباء أيضا لأنها لا تخلو غالبا من اشتراك في الأمهات ولو بَعِدْنَ .

و « ما أمر الله به أن يوصل » عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها . فمنها آصرة الإيمان . ومنها آصرة القرابة وهي صلة الرحم . وقد اتفق المفسرون على أنها مراد الله هنا . وقد تقدم مثله عند قوله تعالى « وما يضل به إلاّ الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » في سورة البقرة .

وإنما أطنب في التعبير عنها بطريقة اسم الموصول « ما أمر الله به أن يوصل » لما في الصلة من التعريض بأن واصلها آتٍ بما يرضي الله لينتقل من ذلك إلى التعريض بالمشركين الذين قطعوا أواصر القرابة بينهم وبين رسول الله – صلّى الله عليْه وسلّم – ومَن معه من المؤمنين وأساءوا إليهم في كل حال وكتبوا صحيفة القطيعة مع بني هاشم .

وفيها الثناء على المؤمنين بأنهم يصلون الأرحام ولم يقطعوا أرحام قومهم المشركين إلا عند ما حاربوهم وناووهم .

وقوله « أن يوصل » بدل من ضمير « به » ، أي ما أمر الله بوصله. وجيء بهذا النظم لزيادة تقرير المقصود وهو الأرحام بعد تقريره بالموصولية .

والخشية : خوف بتعظيم المخوف منه . وتقدمت في قوله تعالى « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » في سورة البقرة . وتطلق على مطلق الخوف .

والخوف : ظن وقوع المضرة من شيء . وتقدم في قوله تعالى « إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله » في سورة البقرة .

و « سوء الحساب » ما يحفّ به مما يسوء المحاسَب . وقد تقدم آنفا . أي يخافون وقوعه عليهم فيتركون العمل السيّء .

وجاءت الصلات « الذين يوفون — والذين يصلون » وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدد كناية عن الاستمرار .

وجاءت صلة « والذين صبَروا ابتغاء وجه ربهم » وما عطف عليها وهو « أقاموا الصلاة وأنفقوا » بصيغة المضيّ لإفادة تحقق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكنها من أنفسهم تنويها بها لأنها أصول لفضائل الأعمال .

فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنه الحسنات والفضائل بسهولة . ولذلك قال تعالى « إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وأما الصلاة فلأنها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصية لقوله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

وأما الإنفاق فأصله الزكاة . وهي مقارنة للصلاة كلما ذكرت . ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها . ومنها النفقات والعطايا كلها . وهي أهم

الأعمال . لأن بذل المال يشق على النفوس فكان له من الأهميّة ما جعله ثانيا للصلاة .

ثم أعيد أسلوب التعْبير بالمضارع في المعطوف على الصلة وهو قوله « ويدرءُونَ بالحسنة السيّئة » لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يُحرص عليه لأن النّاس عرضة للسيّئات على تفاوت . فوُصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيّئات بالحسنات .

والقول في عطف « والذين صبروا » وفي إعادة اسم الموصول كالقول في « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » .

والصبر : من المحامد . وتقدم في قوله تعالى « واستعينوا بالصبر » في سورة البقرة . والمراد الصبر على مشاق أفعال الخير ونصر الدين .

و « ابتغاء وجه ربهم » مفعول لأجله لـ « صبروا » . والابتغاء : الطلب . ومعنى ابتغاء وجه الله ابتغاء رضاه كأنه فعل فعلا يطابُ به إقباله عند لقائه . وتقدم في قوله تعالى « وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله » في آخر سورة البقرة .

والمعنى أنهم صبروا لأجل أن الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء ليقال ما أصبره على الشدائد ولاتّقاء شماتة الأعداء .

والسر والعلانية تقدم وجه ذكرهما في قوله تعالى « الّذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية » أواخر سورة البقرة .

والدرء : الدفع والطرد . وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفُوع وقبلَ حصوله بأن يُعِدّ ما يمنع حصوله . فيصدق ذلك بأن يُتبع السيّئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيّئة . قال النّبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – « يا معاذ اتّقِ الله حيث كنت وأتبع السيّئة الحسنة تمْحُها » . وخاصة فيما بينه وبين ربه .

ويصدق بأن لا يقابل من فعل معه سيّئة بمثلها بل يقابل ذلك بالإحسان، قال تعالى « ادفع بالّتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه . وذلك فيما بين الأفراد وكذلك بين الجماعات إذا لم يفض إلى استمرار الضر . قال تعالى في ذلك « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » .

ويصدق بالعدول عن فعل السيّئة بعد العزم فإن ذلك العدول حسنة درَأت السيّئة المعزوم عليها . قال النبيء – عليه الصلاة والسلام – : « من همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة » .

فقد جمع « يَدْرأون » جميعَ هذه المعاني ولهذا لم يعقب بما يقتضي أن المراد معاملة المُسيء بالإحسان كما أُتبع في قوله « ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة ادفع بالّتي هي أحسن » في سورة فصلت . وكما في قوله « ادفع بالتي هي أحسن السيّئة نحن أعلم بما يصفون » في سورة المؤمنون .

وجملة « أولئك لهم عقبى الدّار » خبر عن « الّذين يوفون بعهد الله » . ودل اسم الإشارة على أن المشار إليهم جديرون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل ما وصف به المشار إليهم من الأوصاف ، كما في قوله « أولئك على هدى من ربهم » في أول سورة البقرة .

و « لهم عقبى الدّار » جملة جعلت خبرا عن اسم الإشارة . وقدم المجرور على المبتدأ للدلالة على القصر، أي لهم عقبى الدار لا للمتصفين بأضداد صفاتهم، فهو قصر إضافيَ .

والعقبى : العاقبة . وهي الشيء الذي يعقُب . أي يقع عقب شيء آخر . وقد اشتهر استعمالها في آخرة الخير . قال تعالى « والعاقبة للمُتّقين » . ولذلك وقعت هنا في متابلة ضدها في قوله « ولهم سُوء الدّار » .

وأما قوله « وعقبى الكافرين النّار » فهو مشاكلة كما سيأتي في آخر السورة

عند قولـه « وسيعلم الكـافـر لمن عقبى الـدّار » . وانظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى « ومن تكون لـه عـاقبـة الـدّار » في سورة القصص فقد زدتـه بيـانـا .

وإضافتها إلى «الدار» من إضافة الصفة إلى الموصوف . والمعنى : لهم الدار العاقبة ، أي الحسنة .

﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَـا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَـآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَـابٍ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَـا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

« جنـات عـدن » بـدل من « عُقبى الـدّار » . والعَدْن : الاستقـرار . وتقدم في قولـه « ومساكن طيّبـة في جنـات عـدن » في سورة بـراءة .

وذكـر « يـدخلـونهـا » لاستحضار الحـالـة البهيجـة . والجملـة حـال مـن « جنـات » أو من ضميـر « لهم عقبى الـدار » . والواو في « ومن صلح من آبـائهم » واو المعيـة وذلك زيـادة الإكرام بـأن جعـل أُصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهلين لـدخـول الجنّة لصلاحهم في الـدرجـة الّتي هم فيهـا؛ فمن كـانت مرتبته دون مراتبهم لَحِق بهم، ومن كـانت مرتبته فوق مراتبهم لحقُوا هم به، فلهم الفضل في الحـاليـن. وهذا كعكسه في قولـه تعـالى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » الآيـة لأن مشاهدة عذاب الأقـارب عذابٌ مضاعف .

وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصلات أنه إذا صار إلى الجنة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه . وما ذكر الله هذا إلا لـهذه البشرى كما قـال الله تعالى « والّذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمـان ألحقنـا بهم ذرّيـاتهم ومـا ألتنـاهم من عملهم من شيء ».

والآباء يشمل الأمهات على طريقة التغليب كما قالوا : الأبوين .

وجملة « والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب » عطف على « يدخلونها » فهي في موقع الحال. وهذا من كرامتهم والتنويه بهم. فإن تردد رسل الله عليهم مظهر من مظاهر إكرامه .

وذكر « من كلّ باب » كناية عن كثرة غشيان الملائكة إياهم بحيث لا يخلو باب من أبواب بيوتهم لا تدخل منه ملائكة. ذلك أن هذا الدخول لما كان مجلبة مسرة كان كثيراً في الأمكنة . ويفهم منه أن ذلك كثير في الأزمنة فهو متكرر لأنهم ما دخلوا من كل باب إلاّ لأنّ كل باب مشغول بطائفة منهم. فكأنه قيل من كل باب في كل آن .

وجملة « سلام عليكم » مقول قول محذوف لأن هذا لا يكون إلا كلاما من الداخلين . وهذا تحية يقصد منها تأنيس أهل الجنة .

والباء في « بما صبرتم » للسببية. وهي متعلقة بالكون المستفاد من المجرور وهو « عليكم » . والتقدير : نالكم هذا التكريم بالسلام بسبب صبركم . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف مستفادٍ من المقام. أي هذا النعيم المشاهد بما صبرتم .

والمراد: الصبر على مشاقّ التكاليف وعلى ما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

وفرع على ذلك « فنِعْم عقبى الدار » تفريع ثناء على حسن عاقبتهم ؛ والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة مقام الخطاب عليه . والتقدير : فنعم عقبى الدار دارُ عُقْباكم . وتقدم معنى « عقبى الدار » آنفا .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

هذا شرح حال أضداد الذين يوفون بعهد الله ؛ وهو ينظر إلى شرح مجمل قوله « كمَن هو أعمى ». والجملة معطوفة على جملة « الّذين يوفون ».

ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

وزيادة « من بعد ميثاقه » زيادة في تشنيع النقض ؛ أي من بعد توثيق العهد وتأكيده .

وتقدم نظير هذه الآية قوله تعالى « وما يضلّ به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض » في أوائل سورة البقرة .

وجملة « أولئك لهم اللّعنة » خبر عن « والّذين ينقضون »؛ وهي مقابل جملة « أولئك لهم عقبى الدّار ».

والبعد عن الرحمة والخزيُ وإضافة سوء الدار كإضافة عقبى الدار . والسوء ضد العقبى كما تقدم .

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾

هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا عما يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين والكافرين من سماع قوله « أولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدار »

المفيد أنهم مغضوب عليهم ، فأما المؤمنون فيقولون : كيف بَسط الله الرزق لهم في الدنيا فازدادوا به طغيانا وكفرا وهلا عذبهم في الدنيا بالخصاصة كما قدر تعذيبهم في الآخرة ، وذلك مثل قول موسى — عليه السّلام — « ربّنَا إنك آتيت فرعون وملأهُ زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك » . وأما الكافرون فيسخرون من الوعيد مزدهين بما لهم من نعمة . فأجيب الفريقان بأن الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر لحكمةٍ متصلة بأسباب العيش في الدنيا ، ولذلك اتّصال بحال الكرامة عنده في الآخرة . ولذلك جاء التعميم في قوله « لمن يشاء » . ومشيئته تعالى وأسبابها لا يطلع عليها أحد .

وأفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله « الله يبسط » تقويةً للحكم وتأكيدا ، لأن المقصود أن يعلمه الناس ولفت العقول إليه على رأي السكاكي في أمثاله . وليس المقام مقام إفادة الحصر كما درج عليه الكشاف إذ ليس ثمة من يزعم الشركة لله في ذلك ، أو من يزعم أن الله لا يفعل ذلك فيقصد الرد عليه بطريق القصر .

والبسطْ : مستعار للكثرة وللدوام . والقَدْر : كناية عن القلة .

ولما كان المقصود الأول من هذا الكلام تعليم المسلمين كان الكلام موجها إليهم .

وجيء في جانب الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنهم أقل من أن يفهموا هذه الدقائق لعنجهية نفوسهم فهم فرحُوا بما لهم في الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة ، فالفرح المذكور فرحُ بَطَر وطغيان كما في قوله تعالى في شأن قارون « إذْ قال له قومه لا تفرحْ إن الله لا يحب الفَرِحين » . فالمعنى فرحوا بالحياة الدنيا دون اهتمام بالآخرة . وهذا المعنى أفادهُ الاقتصار على ذكر الدنيا في حين ذكر الآخرة أيضا بقوله « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع » .

والمراد بالحياة الدنيا وبالآخرة نعيمهما بقرينة السياق ، فالكلام من إضافة الحكم إلى الذات والمراد أحوالها .

و (في) ظرف مستقرٍ حال من«الحياة الدنيا». ومعنى (في) الظرفية المجازية بمعنى المقايسة ، أي إذا نُسبت أحوال الحياة الدنيا بأحوال الآخرة ظهر أن أحوال الدنيا متاعٌ قليل ، وتقدم عند قوله « فما متَاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » في سورة براءة .

والمتاع : ما يتمتع به وينقضي . وتنكيره للتقليل كقوله « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاعٌ قليل » .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾

عطف غرض على غرض وقصةٍ على قصة . والمناسبة ذكر فرحهم بحياتهم الدنيا وقد اغتروا بما هم عليه من الرزق فسألوا تعجيل الضرّ في قولهم « اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ». وهذه الجملة تكرير لنظيرتها السابقة « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ». فأعيدت تلك الجملة إعادةَ الخطيب كلمةً من خطبته ليأتي بما بقي عليه في ذلك الغرض بعد أن يفصل بما اقتضى المقام الفصل به ثم يتفرغ إلى ما تركه من قبل ، فإنه بعد أن بَيّنتْ الآيات السابقة أنّ الله قادر على أن يعجل لهم العذاب ولكن حكمته اقتضت عدم التنازل ليتحدى عبيده فتبين ذلك كله كمال التبيين . وكل ذلك لاحق بقوله « وإن تعْجَبْ فعَجَبٌ قولهم أإذا كنّا ترابا إنّا لفي خلق جديد » ، وعود إلى المهم من غرض التنويه بآية القرآن ودلالته على صدق الرسول — صلّى الله عليْه وسلّم — . ولهذا أطيل الكلام على هدي القرآن عقب هذه الجملة .

ولذلك تعين أن موقع جملة «إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب» موقع الخبر المستعمل في تعجيب الرسول – عليه الصلاة والسّلام – من شدة ضلالهم بحيث يوقن من شاهد حالهم أن الضلال والاهتداء بيد الله وأنهم لولا أنهم جبلوا من خلقة عقولهم على اتباع الضلال لكانوا مُهتدين لأن أسباب الهداية واضحة .

وتحت هذا التعجيب معان أخرى :

أحدها : أن آيات صدق النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – واضحة لولا أن عقولهم لم تدركها لفساد إدراكهم .

الثاني : أن الآيات الواضحة الحسية قد جاءت لأمم أخرى فرأوها ولم يؤمنوا. كما قال تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأوّلون و آتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بِها » .

الثالث : أن لعدم إيمانهم أسبابا خفية يعلمها الله قد أبهمت بالتعليق على المشيئة في قوله « يضل من يشاء » منها ما يُومىء إليه قوله في مقابله « ويهدي من أناب ». وذلك أنهم تكبروا وأعرضوا حين سمعوا الدعوة إلى التوحيد فلم يتأملوا . وقد ألقيت إليهم الأدلة القاطعة فأعرضوا عنها ولو أنابوا وأذعنوا لهداهم الله ولكنهم نفروا . وبهذا يظهر موقع ما أمر الرسول – عليْه الصلاة والسّلام – أن يجيب به عن قولهم « لولا أنزل عليه آية من ربه » بأن يقول « إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب »، وأن ذلك تعريض بأنهم ممن شاء الله أن يكونوا ضالين وبأن حالهم مثار تعجب .

والإنابة : حقيقتها الرجوع . وأطلقت هنا على الاعتراف بالحق عند ظهور دلائله لأن النفس تنفر من الحق ابتداء ثم ترجع إليه . فالإنابة هنا ضد النفور .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾

استئناف اعتراضي مناسبتُه المُضادةُ لحال الذين أضلهم الله . والبيانُ لحال الذين هداهم مع التنبيه على أن مثال الذين ضلوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لذكر الله . وهو القرآن . لأن قولهم « لولا أنزل عليه آية من ربه » يتضمن أنهم لم يعدوا القرآن آية من الله. ثم التصريح بجنس عاقبة هؤلاء . والتعريض بضد ذلك لأولئك. فذكرها عقب الجملة السابقة يفيد الغرضين ويشير إلى السببين . ولذلك لم يجعل « الذين آمنوا » بدلا من « من أناب» لأنه لو كان كذلك لم تعطف على الصلة جملة « وتطمئنُ قلوبهم » ولا عطف « وعملوا الصالحات » على الصلة الثانية . فـ « الذين آمنوا » الأول مبتدأ. وجملة « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » معترضة . و « الذين آمنوا » الثاني بدل مطابق من « الّذين آمنوا » الأول . وجملة « طوبى لهم » خبر المبتدأ .

والاطمئنان : السكون . واستعير هنا لليقين وعدم الشك . لأن الشك يستعار له الاضطراب . وتقدم عند قوله تعالى « ولكن ليطمئنّ قلبي » في سورة البقرة .

و « ذكر الله » يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه . ويجوز أن يراد به القرآن قال « وإنه لذكر لك ولقومك » . وهو المناسب قولهم « لولا أنزل عليه آية من ربه» لأنهم لم يكتفوا بالقرآن آية على صدق الرسول فقالوا « لولا أنزل عليه آية من ربه » . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة الزمر « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » . أي للذين كان قد زادهم قسوة قلوب . وقوله في آخرها « ثم تلين جلُودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .

والذكر من أسماء القرآن . ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته .

وهذا وصف لحسن حال المؤمنين ومقايسته بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم ، قال تعالى « بل قلوبهم في غمرة من هذا » .

واختير المضارع في « تطمئن » مرتين لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

وافتتحت جملة « ألاَ بذكر الله » بحرف التنبيه اهتماما بمضمونها وإغراء بوعيه . وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف «القلوب» من التعميم . وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتسموا بسمة المؤمنين من التدبير في القرآن لتطمئن قلوبهم ،كأنه يقول : إذا علمتم راحة بال المؤمنين فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلهم فإن تلك في متناولكم لأن ذكر الله بمسامعكم .

وطوبى : مصدر من طاب طيبا إذا حسن ، وهي بوزن البُشرى والزلفى ؛ قلبت ياؤها واوا لمناسبة الضمة ؛ أي لهم الخير الكامل لأنهم اطمأنت قلوبهم بالذكر ، فهم في طيب حال : في الدنيا بالاطمئنان ، وفي الآخرة بالنعيم الدائم وهو حسن المئاب وهو مرجعهم في آخر أمرهم .

وإطلاق المآب عليه باعتبار أنه آخرُ أمرهم وقرارهم كما أن قرار المرء بيْته يرجع إليه بعد الانتشار منه . على أنه يناسب ما تقرر أن الأرواح من أمر الله . أي من عالم الملكوت وهو عالم الخلد فمصيرها إلى الخلد رجوع إلى عالمها الأول . وهذا مقابل قوله في المشركين « ولهم سوء الدار » .

واللام في قوله « لهم » للملك .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

هذا الجواب عن قولهم « لولا أنزل عليه آية من ربه » لأن الجواب السابق بقوله « قل إن الله يضل من يشاء » جواب بالإعراض عن جهالتهم والتعجب من ضلالهم وما هنا هو الجواب الرادّ لقولهم . فيجوز جعل هذه الجملة من مقول القول . ويجوز جعلها مقطوعة عن جملة « قل إن الله يضل من يشاء » . وأيّاما كان فهي بمنزلة البيان لجملة القول كلها ، أو البيان لجملة المقول وهو التعجب .

وفي افتتاحها بقوله « كذلك » الذي هو اسم إشارة تأكيد للمشار إليه وهو التعجب من ضلالتهم إذ عموا عن صفة الرسالة .

والمشارُ إليه : الإرسال المأخوذ من فعل « أرسلناك » . أي مثل الإرسال البين أرسلناكَ . فالمشبه به عين المشبّه . إشارة إلى أنه لوضوحه لا يبين ما وضح من نفسه. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمّة وسطا » في سورة البقرة .

ولما كان الإرسال قد علق بقوله « في أمة قد خات من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك » صارت الإشارة أيضا متحملة لمعنى إرسال الرسل من قبله إلى أمم يقتضي مرسَلين ، أي ما كانت رسالتك إلاّ مثل رسالة الرسل من قبلك . كقوله « قلْ ما كنتُ بدعا من الرسل » وقوله « وما أرسلنا قبلك من المرسَلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » لإبطال توهم المشركين أن النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – لما لم يأتهم بما سألوه فهو غير مرسَل من الله. وفي هذا الاستدلال تمهيد لقوله « ولو أنّ قرآنا سيّرت

بـه الجبـال » الآيـات . ولذلك أردفت الجملـة بقولـه « لتتلـو عليهم الذي أوحينـا إليـك » .

والأمّة : هي أمّة الدعـوة « فمنهم من آمن ومنهم من كفر » .

وتقدم معنى « قد خلت من قبلهـا أمم » في سورة آل عمـران عند قولـه « قـد خلت من قبلـكم سُنن » . ويتضمن قولـه « قد خلت من قبلهـا أمم » التعريض بـالوعيـد بمثـل مصير الأمـم الخـاليـة التي كذبت رسلهـا .

وتضمن لام التّعليـل في قولـه « لتتلـو عليهم » أن الإرسال لأجـل الإرشاد والهـدايـة بمـا أمـر الله لا لأجـل الانتصاب لخـوارق العـادات .

والتـلاوة : القـراءة . فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن ، كقوله « وأنْ أتْلُوَ القرآن فمن اهتدى فـإنـمـا يهتدي لنفسه » الآيـة .

وفيـه إيمـاء إلى أن القرآن هو معجزتـه لأنـه ذكره في مقـابلـة إرسال الرسل الأولين ومقـابلـة قولـه « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليـه آية من ربـه ». وقد جـاء ذلك صريحـا في قولـه « أو لم يكفهم أنـا أنزلـنـا عليك الـكتـاب يُتلى عليهم » . وقال النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – « ما من الأنبيـاء نبيء إلا أوتي من الآيـات مـا مِثله آمن عليـه البشر ، وإنمـا كـان الذي أوتيتُ وحيًـا أوحـاه الله إليّ » .

وجملة « وهم يـكفرون بالرحمان » عطف على جملة « كذلك أرسلنـاك » ، أي أرسلنـاك بـأوضح الهـدايـة وهم مستمـرون على الـكفر لم تدخـل الهـدايـة قلـوبهـم ، فـالضمير عـائد إلى المشركين المفهـومين من المقـام لا إلى « أمة » لأن الأمـة منهـا مؤمنـون .

والتعبير بـالمضارع في « يـكفرون » للـدلالـة عـلى تجدد ذلك واستمـراره . ومعنى كفرهم بـالله إشراكهم معه غيره في الإلهيـة ، فقد أبطلـوا حقيقـة الإلهيـة فـكفروا بـه .

واختيار اسم « الرحمان » من بين أسمائه تعالى لأن كفرهم بهذا الاسم أشد لأنهم أنكروا أن يكون اللهُ رحمان . قال تعالى « وإذا قيل لهم اسجُدوا للرحمان قالوا وما الرحمان » في سورة الفرقان ، فأشارت الآية إلى كفريْن من كفرهم : جحدِ الوحدانية، وجحدِ اسم الرحمان، ولأن لهذه الصفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرسول — عليه الصلاة والسّلام — وتأييده بالقرآن لأن القرآن هُدًى ورحمة للناس . وقد أرادوا تعويضه بالخوارق التي لا تكسب هدْيًا بذاتها ولكنها دالة على صدق من جاء بها .

قال مقاتل وابن جريج : نزلت هذه الآية في صلح الحديبية حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصلح فقال النّبي — صلّى الله عليْه وسلّم — للكاتب « اُكتب بِسم الله الرّحمن الرحيم » فقال سهيل بن عَمرو : ما نعرف الرحمان إلاّ صاحب اليمامة، يعني مسيلمة، فقال النّبي — صلّى الله عليْه وسلّم — « اُكتب باسمك اللّهم » . ويبعده أن السورة مكية كما تقدم .

وعن ابن عباس نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي — صلى الله عليه وسلم — « اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان » فنزلت .

وقد لقّن النّبيء — صلّى الله عليْه وسلّم — بإبطال كفرهم المحكي إبطالا جامعا بأن يقول « هو ربّي » . فضمير « هو » عائد إلى « الرحمان » باعتبار المسمى بهذا الاسم . أي المسمى هو ربّي وأن الرحمان اسمه .

وقوله « لا إله إلاّ هو » إبطال لإشراكهم معه في الإلهية غيره . وهذا مما أمر الله نبيّه أن يقوله . فهو احتراس لرد قولهم : إن محمدًا — صلّى الله عليْه وسلّم — يدعو إلى رب واحد وهو يقول : إن ربه الله وإنّ ربه الرحمان. فكان قوله « لا إله إلاّ هو » دالا على أن المدعو بالرحمان هو المدعو بالله إذ لا إله إلا إلهٌ واحد . فليس قوله « لا إله إلاّ هو » إخبارا من جانب الله على طريقة الاعتراض .

وجملة « عليه توكلت وإليه متاب » هي نتيجة لكونه ربا واحدا . ولكونها كالنتيجة لذلك فصلت عن التي قبلها لما بينهما من الاتصال .

وتقديم المجرورين وهما (عليه) و (إليه) لإفادة اختصاص التوكل والمتاب بالكون عليه . أي لا على غيره ؛ لأنه لما توحد بالربوبية كان التوكل عليه ؛ ولما اتصف بالرحمانية كان المتاب إليه . لأن رحمانيته مظنة لقبوله توبة عبده .

والمتاب : مصدر ميمي على وزن مفعل ؛ أي التوبة ؛ يفيد المبالغة لأن الأصل في المصادر الميمية أنها أسماء زمان جعلت كناية عن المصدر ، ثم شاع استعمالها حتى صارت كالصريح .

ولما كان المتاب متضمنا معنى الرجوع إلى ما يأمر الله به عدي المتاب بحرف (إلى) .

وأصلُ « متَاب » متابي — بإضافة إلى ياء المتكلم — فحذفت الياء تخفيفا وأبقيت الكسرة دليلا على المحذوف كما حذف في المنادى المضاف إلى الياء .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

يجوز أن تكون عطفا على جملة « كذلك أرسلناك في أمة » لأن المقصود من الجملة المعطوف عليها أن رسالته لم تكن إلا مثل رسالة غيره من الرسل — عليهم السلام — كما أشار إليه صفة « أمة قد خلت من قبلها أمم » ، فتكون جملة « ولو أن قرآنا » تتمة للجواب عن قولهم « لولا أنزل عليه آية من ربه » .

ويجوز أن تكون معترضة بين جملة « قل هو ربّي » وبين جملة « أفَمن هو قائم على كلّ نفسٍ » كما سيأتي هنالك . ويجوز أن تكون محكية بالقول عطفا على جملة « هو ربّي لا إله إلا هو » .

والمعنى : لو أن كتابا من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من الهداية فكانت مصادر لإيجاد العجائب لكان هذا القرآن كذلك ولكن لم يكن قرآنٌ كذلك ، فهذا القرآن لا يتطاب منه الاشتمال على ذلك إذ ليس ذلك من سُنن الكتب الإلهية .

وجواب (لو) محذوف لدلالة المقام عليه . وحذفُ جواب (لو) كثير في القرآن كقوله « ولو ترى إذ وقفوا على النّار » وقوله « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم » .

ويفيد ذلك معنى تعريضيا بالنداء عليهم بنهاية ضلالتهم ، إذ لم يهتدوا بهدي القرآن ودلائله و الحال لو أن قرآنا أمَر الجبال أن تسير و الأرض أن تتقطع والموتى أن تتكلم لكان هذا القرآن بالغا ذلك ولكن ذلك ليس من شأن الكتب ، فيكون على حدّ قول أبَيّ بن سُلْمَى من الحماسة :

ولو طَارَ ذو حافر قَبلها لطارتْ ولكنه لم يَطِر

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق المفروضة ما رواه الواحدي والطبري عن ابن عباس : أن كفار قريش أبا جهل وابن أبي أميّة وغيرهما جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبيء — صلّى الله عليْه وسلّم — فقالوا : لو وسّعْت لنا جبال مكّة فسيرتها حتى تتسع أرضنا فنحترثها فإنها ضيقة . أو قرّب إلينا الشام فإنا نتجر إليها . أو أخرج قصَيّا نكلمه .

وقد يؤيد هذه الرواية أنه تكرر فرض تكليم الموتى بقوله في سورة الأنعام « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى » . فكان في ذكر

هذه الأشياء إشارةٌ إلى تهكمهم . وعلى هذا يكون « قطعت به الأرض » قطعت مسافات الأسفار كقوله تعالى « لقد تقطّعَ بينَكم » .

وجملة « بل لله الأمر جميعا » عطف على « ولو أن قرآنا » بحرف الإضراب . أي ليس ذلك من شأن الكتب بل لله أمر كل محدَث فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يخلق العجائب إن شاء . وليس ذلك إلى النبيء – صلى الله عليْه وسلّم – ولا عند سؤالكم . فأمر الله نبيئه بأن يقول هذا الكلام إجراء لكلامهم على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بما قالوه إلا التهكم ، فحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيها على أن الأولى بهم أن ينظروا هل كان في الكتب السابقة قُرآن يتأتى به مثل ما سألوه .

ومثل ذلك قول الحجاج للقبعثرى : لأحملنّك على الأدهم(يريد القيد) . فأجابه القبعثرى بأن قال : مثلُ الأمير يحمل على الأدهمو الأشهب ، فصرفه إلى لون فرس .

والأمر هنا : التصرف التكويني . أي ليس القرآن ولا غيره بمكوّن شيئا مما سألتم بل الله الّذي يكوّن الأشياء .

وقد أفادت الجملتان المعطوفة والمعطوف عليها معنى القصر لأن العطف بـ (بل) من طرق القصر ، فاللام في قوله « الأمر » للاستغراق ، و « جميعا » تأكيد له . وتقديم المجرور على المبتدأ لمجرد الاهتمامَ لأن القصر أفيد بـ (بل) العاطفة .

وفرع على الجملتين « أفلم ييأس الذين آمنوا أنْ لو يشاء الله لهدى الناس جميعا » استفهاما إنكاريا إنكارًا لانتفاء يَأس الذين آمنوا ، أي فهم حقيقون بزوال يأسهم وأن يعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا .

وفي هذا الكلام زيادة تقرير لمضمون جملة « قل إن الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب» .

و«يأس» بمعنى يوقن ويعلم ، ولا يستعمل هذا الفعل إلا مع (أن) المصدرية، وأصله مشتق من اليأس الّذي هو تيقّن عدم حصول المطلوب بعد البحث ، فاستعمل في مطلق اليقين على طريقة المجاز المرسل بعلاقة اللزوم لتضمن معنى اليأس معنى العلم وشاع ذلك حتى صار حقيقة، ومنه قول سُحَيم بن وَثيل الرياحي:

أقول لهم بالشِّعْب إذ يَيْسِرُونَني ألم تيأسوا أني ابنُ فارس زهدم

وشواهد أخرى .

وقد قيل : إن استعمال يَئِس بمعنى عَلِم لغة هَوازن أو لغة بني وَهْبيل (فخذ من النخَع سمي باسم جَد) . وليس هنالك ما يلجىء إلى هذا . هذا إذا جعل « أن لو يشاء الله » مفعولا لـ « ييأس » . ويجوز أن يكون متعلق « ييأسْ » محذوفا دل عليه المقام . تقديره : من إيمان هؤلاء، ويكونَ «أن لو يشاء الله » مجرورا بلام تعليل محذوفة . والتقدير : لأنه لو يشاء الله لهدى الناس ، فيكون تعليلا لإنكار عَدَم يأسهم على تقدير حصوله .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

معطوفة على جملة « ولو أنّ قُرْءَانًا سُيِّرت به الجبال » على بعض الوجوه في تلك الجملة. وهي تهديد بالوعيد على تعنتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن . وتهكمهم باستعجال العذاب الذي توعدوا به ، فهددوا بما سيحلّ بهم من الخوف بحلول الكتائب والسرايا بهم تنال الذين حلّت فيهم وتخيف من حولهم حتى يأتي وعد الله بيوم بدر أو فتح مكّة .

واستعمـال « لا يـزال » في أصلهـا تـدل على الإخبـار بـاستمـرار شيء واقع ، فـإذا كانت هذه الآيـة مكيـة تعين أن تـكون نزلت عند وقـوع بعض الحوادث المؤلمـة بقريش من جـوع أو مرض . فتـكون هذه الآيـة تنبيهـا لهم بـأن ذلك عقـاب من الله تعـالى ووعيـد بـأن ذلك دائـم فيهم حتـى يـأتي وعـد لله . ولعلهـا نـزلت في مدة إصابتهم بـالسنين السبـع المشار إليهـا بقولـه تعـالى « ولنبلـونـّكم بشيء من الخوف والجـوع ونقص من الأمـوال والأنفس والثمـرات ».

ومن جعلـوا هذه السورة مدنيـة فتـأويـل الآية عندهم أن القـارعة السرية مـن سرايـا المسلمين التي تخرج لتهديـد قريش ومن حولهم. وهو لا ملجىء إليـه .

والقـارعة : فـي الأصل وصف من القرع . وهـو ضرب جسم بجسم آخر . يقـال : قرع البـاب إذا ضربـه بيـده بحلقـة . ولمـا كـان القرع يحدث صوتـا مبـاغتـا يكون مزعجـا لأجـل تلك البغتـة صار القرع مجـازًا للمبـاغتـة والمفـاجـأة . ومثلـه الطَّرْق . وصاغوا من هذا الوصف صيغـة تـأنيث إشارة إلى موصوف مُلتزم الحذف اختصارا لـكثرة الاستعمال . وهو ما يؤوّل بالحادثـة أو الـكائنـة أو النازلة . كمـا قـالـوا : داهيـة وكارثـة ؛ أي نـازلـة موصوفة بـالإزعـاج فـإن بغت المصائب أشد وقعـا على النفس . ومنـه تسمية ساعة البعث بـالقـارعـة .

والمراد هنا الحادثـة المفجعة بقرينـة إسنـاد الإصابـة إليها . وهي مثل الغـارة والـكارثـة تحـلّ فيهم فيصيبهم عذابهـا . أو تقع بـالقرب منهم فيصيبهم الخوف من تجـاوزهـا إليهم ، فليس المـراد بـالقـارعـة الغـزو والقتـال لأنـه لـم يتعـارف إطلاق اسم القـارعـة على موقعـة القتـال . ولذلك لم يكـن في الآيـة مـا يـدل على أنهـا ممـا نزل بـالمدينـة .

ومعنى « بمـا صنعـوا » بسبب فعلهم وهو كفرهـم وسوء معـاملتهـم نبيئَهم . وأتـي في ذلك بـالموصول لأنـه أشمـل لأعمـالهم .

وضميـر « تحـلّ » عائد إلى « قـارعة » فيـكون ترديـدا لحـالهم بين إصابـة القـوارع إيـاهم وبين حلـول القوارع قريبـا من أرضهم فهم في رعب منهـا وفزع .

ويجوز أن يكون « تحل » خطابا للنبيء – صلّى الله عليه وسلّم – أي أو تحل أنتَ مع الجيش قريبا من دارهم . والحلول : النزول .

وتحُلّ : بضم الحاء مضارع حَلّ اللازم . وقد التزم فيه الضم . وهذا الفعل مما استدركه بحرق اليمني على ابن مالك في شرح لامية الأفعال ؛ وهو وجيه .

و « وعدُ الله » من إطلاق المصدر على المفعول ، أي موعود الله ، وهو ما توعدهم به من العذاب ؛ كما في قوله « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » ؛ فأشارت الآية إلى استئصالهم لأنها ذكرت الغلب ودخول جهنم ؛ فكان المعنى أنه غلبُ القتل بسيوف المسلمين وهو البطشة الكبرى . ومن ذلك يوم بدر ويوم حنين ويوم الفتح .

وإتيان الوعد : مجاز في وقوعه وحلوله .

وجملة « إن الله لا يخلف الميعاد » تذييل لجملة « حتى يأتي وعد الله » إيذانا بأن إتيان الوعد المغيا به محقق وأن الغاية به غاية بأمر قريب الوقوع . والتأكيد مراعاة لإنكار المشركين .

﴿ وَلَقَدُ ٱسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

عطف على جملة « ولو أن قرءانا سيّرت به الجبال » الخ ؛ لأن تلك المُثُل الثلاثة التي فرضت أريد بها أمور سألها المشركون النبيء – صلّى الله عليه وسلّم – استهزاء وتعجيزا لا لترقب حصولها .

وجاءت عقب الجملتين لما فيها من المناسبة لهما من جهة المُثل التي في الأولى ومن جهة الغاية التي في الثانية .

وقد استهزأ قوم نوح به – عليه السّلام – « وكُلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه » ، واستهزأت عاد بهود – عليْه السّلام – « فأسقِط علينا كِسْفًا من السماء إن كنتَ من الصادقِين » . واستهزأت ثمود بصالح – عليْه السّلام – « قال الملأ الّذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة » . واستهزأوا بِشُعيْب – عليْه السّلام – « قالوا يا شُعيب أصلواتك تأمُرك أن نتْرك ما يَعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنّك لأنت الحليم الرشيد » . واستهزأ فرعون بموسى – عليه السّلام – « أم أنا خير من هذا الّذي هو مَهين ولا يكاد يبين » .

والاستهزاء : مبالغة في الهَزْء مثل الاسْتسْخار في السخرية .

والإملاء : الإمهال والتركُ مدة . ومنه « واهجرني مليا ». وتقدم في قوله تعالى « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم » في سورة الأعراف .

والاستفهام في « فكيف كان عقاب » للتعجيب .

و « عقاب » أصله عقابي مثل ما تقدم آنفا في قوله « وإليه متاب » .

والكلام تسلية للنبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – والمؤمنين . ووعيد للمشركين .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

الفاء الواقعة بعد همزة الاستفهام مؤخرة من تقديم لأن همزة الاستفهام لها الصدارة . فتقدير أصل النظم : فأمن هو قائم . فالفاء لتفريع الاستفهام

وليس الاستفهام استفهاما على التفريع ، وذلك هو الوجه في وقوع حروف العطف الثلاثة الواو والفاء وثم بعد الاستفهام وهو رأي المحقيقين، خلافا لمن يجعلون الاستفهام واردا على حرف العطف وما عطفه .

فالفاء تفريع على جملة « قل هو ربّي لا إله إلاّ هو عليه توكلت » المجاب به حكاية كفرهم المضمن في جملة « وهم يكفرون بالرحمن » ، فالتفريع في المعنى على مجموع الأمرين : كفرهم بالله، وإيمان النّبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – بالله .

ويجوز أن تكون تفريعا على جملة « ولو أن قرءانا سيرت به الجبال » ، فيكون ترقيا في إنكار سؤالهم إتيان معجزة غير القرآن، أي إن تعجب من إنكارهم آيات القرآن فإن أعجب منه جعلهم القائم على كل نفس بما كسبت مماثلا لمن جعلوهم لله شركاء .

واعترِض أثرَ ذلك بردّ سُؤالهم أن تُسيّر الجبال أو تُقَطّع الأرض أو تُكلّم الموتى ، وتذكيرهم بما حل بالمكذبين من قبلهم مع إدماج تسلية الرسول – عليه الصلاة والسلام – . ثم فرع على ذلك الاستفهام الإنكارى .

وللمفسرين في تصوير نظم الآية محامل مختلفة وكثير منها متقاربة ، ومرجع المتجه منها إلى أن في النظم حذفا يدل عليه ما هو مذكور فيه ، أو يدل عليه السياق . والوجه في بيان النظم أن التفريع على مجموع قوله « وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربّي لا إله إلاّ هو » أي أن كفرهم بالرحمان وإيمانك بأنه ربّك المقصورة عليه الربوبية يُتفرع على مجموع ذلك استفهامُهم استفهامَ إنكار عليهم تسويتهم من هو قائم على كلّ نفس بمن ليس مثله من جعلوهم له شركاء ، أي كيف يشركونهم وهم ليسوا سواء مع الله .

وماصدق « من هو قائم على كلّ نفس » هو الله الإله الحق الخالق المدبّر .

وخبر « من هـو قـائم » محذوف دلت عليه جملة « وجعلـوا لله شركـاء » . والتقديـر : أمـن هو قـائم على كل نفس ومن جعلـوهم بـه شركـاء سواء في استحقـاق العبادة . دل على تقديره مـا تقتضيـه الشركـة في العبـادة من التسويـة في الإلهيـة واستحقـاق العبـادة . والاستفهـام إنكـار لتلك التسوية المفاد من لفظ «شركـاء». وبهذا المحذوف استغني عن تقديـر معـادل للهمـزة كمـا نبّه عليـه صاحب مغنى اللّبيب ، لأن هذا المقدّر المدلول عليه بـدليـل خـاص أقـوى فـائـدة من تقديـر المعـادل الّذي حـاصله أن يقدر : أم من ليس كذلك . وسيـأتـي قريبـا بيـان مـوقـع « وجعلـوا لله شركـاء » .

والعـدول عن اسم الجلالـة إلى الموصول في قولـه « أفمن هو قـائم » لأن في الصلـة دليـلا على انتفاء المساواة ، وتخطئة لأهل الشرك في تشريـك آلهتهم لله تعالى في الإلهية ، ونداء على غبـاوتهم إذ هم معترفون بأن الله هو الخـالق . والمقدر بـاعتقـادهم ذلك هو أصل إقـامة الدليـل عليهم بـإقرارهم ولمـا في هذه الصلـة من التعريض لمـا سيـأتي قـريبـا .

والقـائم على الشيء : الرقيب ، فيشمل الحفظ والإبقاء والإمـداد . ولتضمنـه معنى الرقيب عـدي بحرف (على) المفيد لـلاستعـلاء المجـازي . وأصلـه من القيـام وهو الملازمة كقوله « إلا مـا دمت عليه قـائمـا » . ويجيء من معنى القائم أنـه العليم بحـال كل شيء لأن تمـام القيومية يتوقف على إحـاطة العلم .

فمعنى « قـائم على كل نفس » مُتولّيهـا ومدبّرهـا في جميـع شؤونهـا في الخلق والأجل والرزق ، والعـالم بـأحوالهـا وأعمـالهـا ، فـكـان إطلاق وصف « قـائـم » هنـا من إطلاق المشترك على معنييه . والمشركون لا ينـازعـون في انفراد الله بهذا القيـام ولـكنهم لا يـراعـون ذلك في عبـادتهم غيره ، فمن أجـل ذلك لزمتهم الحجـة ولمـراعـاة هذا المعنى تعلق قـائم بقولـه « على كل نفس » ليعم القيـام سائـر شؤونهـا .

والبـاء في قولـه « بمـا كسبت » للملابسة . وهي في موقـع الحال من « نفس »

أو مـن « قـائم » بـاعتبـار مـا يقتضيه القيـام من العلم ، أي قيـامـا ملابسا لمـا عملتـه كل نفس . أي قيامـا وفـاقـا لأعمالهـا من عمل خير يقتضي القيـامَ عليهـا بـاللطف والـرضى فتظهر آثـار ذلك في الدنيـا والآخرة لقوله « من عمـل صالـحـا من ذكر أو أنثى وهو مؤمـن فلنحيينـه حيـاة طيّبـة ولنجزينـهم أجرهم بـأحسن مـا كـانـوا يعملـون»، وقـال «وعـد الله الّذيـن آمنـوا منكـم وعملـوا الصالحـات ليستخلفنهم في الأرض كمـا استخلف الّذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنـا »؛ أو من عـمَـل شر يقتضي قيـامَه على النفس بـالغضب والبـلايـا . ففي هذه الصلـة بعمـومهـا تبشير وتهديـد لمن تـأمـل من الفريقين. فهذا تعريض بـالأمريـن للفريقين أفـادتـه صلـة الموصول .

وجملة « وجعلـوا لله شركـاء » في موضع الحـال، والواو للحـال، أي والحـال جعلـوا لـه شركـاء .

وإظهـار اسم الجلالـة إظهـار في مقام الإتيـان بضمير « من هو قـائم ». وفـائدة هذا الإظهـار التعبير عن المسمى بـاسمـه العَلَـم الذي هو الأصل إذ كان قد وقع الإيفـاء بحق العـدول عنـه إلى المـوصول في الجملـة السابقـة فتهيـأ المقـام لـلاسم العَلَـم ، ولـيكون تصريحـا بـأنـه المراد من الموصول السابق زيـادة في التصريـح بـالحجـة .

وجملة « قـل سَمّـوهم » استئناف أعيـد معهـا الأمـر بـالقـول لاسترعـاء الأفهـام لوَعي مـا سيذكـر . وهـذه كلمـة جـامعة ، أعني جملة « سمـوهم »، وقد تضمنت ردا عليهم . فـالمعنى : سموهم شركـاء فليس لهم حظ إلا التسمية ، أي دون مسمى الشريـك . فـالأمـر مستعمـل في معنى الإبـاحـة كنـاية عن قلة المبـالاة بـادعـائهم أنهم شركـاء، مثل « قـل كونـوا حجـارة »، وكمـا تقول للّذي يخطىء في كلامـه : قُـل مـا شئتَ . والمعنى : إن هي إلا أسمـاء سميتمـوهـا لا مسميـاتٍ لهـا بـوصف الإلهيّة لأنهـا حجـارة لا صفـات لهـا من صفـات التصرف . وهذا كقولـه تعـالى « مـا تعبـدون من دونـه إلا أسمـاء سميتمـوهـا أنتم وآبـاؤكم مـا

أنـزل الله بهـا من سلطـان » وقولـه « إن هي إلا أسمـاءٌ سميتمـوهـا ». وهذا إفحام لهم وتسفيـه لأحـلامهم بـأنهم ألّهوا مـا لا حقـائق لهـا فلا شبهـة لهم في ذلك، كقولـه تعـالى « أم جعلـوا لله شركـاء خَـلَـقُـوا كخلقه فـتَـشَـابَـهَ الخَـلْـقُ عليهم ». وقـد تَـمَـحّـلَ المفسرون في تـأويـل « قـل سمّـوهم » بمـا لا مُـحَـصّـل لـه من المعنـى .

ثم أضرب عن ذلك بجملـة « أم تنبئّونـه بمـا لا يعلم في الأرض » وهي (أم) المنقطعـة . وَدلـت (أم) على أن مـا بعدهـا في معنى الاستفهـام . وهو إنكـاري توبيخي ، أي مـا كـان لـكم أن تفتروا على الله فتضعوا له شركـاء لـم ينبئكم بوجودهم ، فقولـه « بمـا لا يعلم في الأرض » كناية عن غير الموجود لأن مـا لا يعلمـه الله لا وجـود لـه إذ لـو كـان مـوجودا لم يَخْفَ على علم العـلام بـكل شيء . وتقييد ذلك بـ (الأرض) لـزيـادة تجهيلهم لأنـه لـو كـان يخفـى عن علمـه شيء لخفـي عنـه مـا لا يـرى ولمـا خفيت عنـه مـوجودات عظيمـة بزعمـكم .

وفي سورة يـونس « قـل أتنبّئـون الله بمـا لا يعلم في السمـاوات ولا في الأرض » زيـادة في التعميـم .

و (أم) الثـانيـة متصلـة هي معـادلـة همـزة الاستفهـام المقدرة في « أم تنبئـونـه » . وإعـادة البـاء للتـأكيـد بعد (أم) العاطفة . والتقديـر : بـل أتنبئونه بما لا يعلم في الأرض بـل أتنبئونـه بظـاهر من القـول .

وليس الظاهر هنـا مشتقـاً من الظهور بمعنى الوضوح بل هـو مشتق من الظُهور بمعنى الزوال كناية عن البطلان، أي بمجرد قـول لاثبات له وليس بحق ، كقول أبي ذؤيـب :

وتلكَ شكـاة ظـاهـر عنكِ عـارُها

وقـول سبـرة بن عمـرو الفقعسي :

أعيـرْتَـنـا ألبـانـهـا ولحومهـا وذلك عـاريـا يـا ابنَ رَيْطة ظاهر

وقولـه « بـل زيـن للذين كفـروا مكرهم » إضراب عن الاحتجاج عليهم بـإبطـال إلهيـة أصنامهم إلى كشف السبب. وهو أن أيمـة المشركين زيّنـوا للذيـن كفروا مكرهم بهم إذ وضعـوا لهم عبـادتَهـا .

والمكر : إخفـاء وسائل الضر . وتقدم عند قولـه تعـالى « ومكروا ومكر الله والله خير المـاكـرين » في أوائل سورة آل عمران . وعند قوله « أفـأمنوا مكر الله » في سورة الأعراف . وعند قولـه « وإذ يمكر بك الذين كفروا » في سورة الأنفـال . والمـراد هنـا أن أيمـة الكفر مثل عمْرو بن لُحَيّ وضعـوا للعرب عبـادة الأصنـام وحسّنوهـا إليهم مظهريـن لهم أنهـا حق ونفع ومـا أرادوا بذلك إلا أن يكونوا قـادة لهم ليسودُوهم ويُعبّدوهم .

فلمـا كان الفعـل المبني للمجهـول يقتضي فاعلا منويّا كان قولـه « زُيـن للـذين كفروا » في قوة قولك : زيّن لهم مزين . والشيء المزيّن (بـالفتح) هو الـذي الكلام فيـه وهو عبـادة الأصنـام فهي المفعول في المعنى لفعـل التزييـن المبني للمجهـول . فتعين أن المرفـوع بعد ذلك الفعـل هو المفعول في المعنى . فـلا جرم أن مكرهم هو المفعول في المعنى . فتعيّن أن المكر مـراد بـه عبـادة الأصنـام . وبهذا يتجـه أن يكون إضافـة (مكر) إلى ضمير الكفـار من إضافـة المصدر إلى مـا هو في قوة المفعول وهو المجرور ببـاء التعدية . أي المكر بهم ممن زينـوا لهم .

وقـد تضمن هذا الاحتجـاج أساليب وخصوصيـات :

أحدهـا : تـوبيخهم على قيـاسهم أصنـامهم على الله في إثبـات الإلهيـة لهـا قيـاسا فـاسدا لانتفـاء الجهـة الجـامعـة فـكيف يسوى من هو قـائم على كل نفس بمن ليسوا في شيء من ذلك .

ثـانيهـا : تبهيلهم في جعلهم أسمـاءً لا مسميـاتٍ لهـا آلهـةً .

ثـالثهـا : إبطـال كون أصنـامهم آلهـة بـأن الله لا يعلمهـا آلهـة ، وهو كناية عن انتفـاء إلهيتهـا .

رابعها : أن ادعاءهم آلِهة مجرد كلام لا انطباق له مع الواقع . وهو قوله « أم بظاهر من القول » .

خامسها : أن ذلك تمويه بباطل روجه فيهم دعاة الكفر ، وهو معنى تسميته مكرًا في قوله « بل زُيّن للذين كفروا مكرهم » .

سادسها : أنهم يصدون الناس عن سبيل الهدى .

وعُطف « وصدوا عن السبيل » على جملة « زُين للذين كفروا مكرهم » . وقرأه الجمهور – بفتح الصاد – فهو باعتبار كون مضمون كلتا الجملتين من أحوال المشركين : فالأولى باعتبار كونهم مفعولين ، والثانية باعتبار كونهم فاعلين للصدّ بعد أن انفعلوا بالكفر. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائيّ، وخلف « وصُدوا » – بضم الصاد – فهو كجملة « زُين للذين كفروا » في كون مضمون كلتيهما جعْل الذين كفروا مفعولا للتزيين والصدّ .

وجملة « ومن يضلل الله فما له من هاد » تذييل لما فيه من العموم .

وتقدم الخلاف بين الجمهور وابن كثير في إثبات ياء « هاد » في حالة الوصل عند قوله تعالى « ولكل قوم هاد » في هذه السورة .

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾

استئناف بياني نشأ عن قوله « ومن يضلل الله فما له من هاد » لأن هذا التهديد يومىء إلى وعيد يسأل عنه السامع . وفيه تكملة للوعيد المتقدم في قوله « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة » مع زيادة الوعيد بما بعد ذلك في الدار الآخرة .

وتنكير « عذاب » للتعظيم ، وهو عذاب القتل والخزي والأسر . وإضافة «عذاب» إلى «الآخرة» على معنى (في) .

و (من) الداخلة على اسم الجلالة لتعدية « واق » . و (من) الداخلة على « واق » لتأكيد النفي للتنصيص على العموم .

والواقي : الحائل دون الضرّ . والوقاية من الله على حذف مضاف ، أي من عذابه بقرينة ما ذكر قبله .

﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾

استئناف ابتدائي يرتبط بقوله « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم » . ذُكر هنا بمناسبة ذكر ضدّه في قوله « ولعذاب الآخرة أشق » .

والمثَل : هنا الصفة العجيبة ؛ قيل : هو حقيقة من معاني المثل ، كقوله تعالى « ولله المثَل الأعلى » ، وقيل : هو مستعار من المثَل الّذي هو الشبيه في حالة عجيبة أطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنها جديرة بالتشبيه بها.

وجملة«تجري من تحتها الأنهار» خبر عن «مَثَل» باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه . فهي من أحوال المضاف لشدة الملابسة بين المتضايفين ؛ كما يقال : صفة زيد أسمر .

وجملة « أكلها دائم » خبر ثان . والأكل بالضم : المأكول ؛ وتقدم .

ودوام الظل كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس ، كما قال تعالى « وجنات ألفافا » ، وذلك من محامد الجنات وملاذّها .

وجملة « تلك عقبى الذين اتقوا » مستأنفة .

والإشارة إلى الجنة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة . والمعنى : تلك هي التي سمعتم أنها عقبى الدار للذين يوفون بعهد الله إلى قوله « ويدرأون بالحسنة السيّئة — إلى قوله — فنعم عقبى الدار » هي الجنة التي وعد المتّقون . وقد علم أن الذين اتقوا هم المؤمنون الصالحون كما تقدم . وأول مراتب التقوى الإيمان . وجملة « وعقبى الكافرين النار » مستأنفة للمناسبة بالمضادة . وهي كالبيان لجملة « ولهم سوء الدار » .

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾

الواو للاستئناف . وهذا استئناف ابتدائي انتقل به إلى فضل لبعض أهل الكتاب في حسن تلقيهم للقرآن بعد الفراغ من ذكر أحوال المشركين من قوله « كذلك أرسلناك في أمّة » الخ . ولذلك جاءت على أسلوبها في التعقيب بجملة « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ».

والمناسبة هي أن الذين أرسل إليهم بالقرآن انقسموا في التصديق بالقرآن فرقا : ففريق آمنوا بالله وهم المؤمنون . وفريق كفروا به وهم مصداق قوله « وهم يكفرون بالرحمان » : كما تقدم أنه عائد إلى المشركين المفهومين من المقام كما هو مصطلح القرآن .

وهذا فريق آخر أيضا أهل الكتاب وهو منقسم أيضا في تلقي القرآن فرقتين : فالفريق الأول صدّقوا بالقرآن وفرحوا به وهم الذين ذُكروا في قوله تعالى « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » في سورة العقود ؛ وكلهم من النصارى مثل ورقة بن نوفل وكذلك غيره ممن بلغهم القرآن أيام مُقام النبيء — صلّى الله عليْه وسلّم — بمكة قبل أن تبلغهم دعوة النبيء — صلّى الله عليْه وسلّم — فإن اليهود

كـانوا قد سُرُّوا بنـزول القرآن مصدّقـا للتّوراة، وكـانـوا يحسبـون دعوة النبيء — صلّى الله عليْه وسلم — مقصورة على العرب فكـان اليهـود يستظهرون بـالقرآن على المشركين، قـال تعـالى « وكـانوا مـن قبلُ يستفتحـون على الذين كفـروا ». وكـان النصارى يستظهرون بـه على اليهـود، وفريق لم يثبت لهم الفرحُ بـالقرآن وهم معظم اليهـود والنصارى البعـداء عن مكة. ومـا كفر الفريقـان بـه إلاّ حين علمـوا أن دعـوة الإسلام عـامـة .

وبهـذا التفسير تظهر بـلاغة التعبير عنهم بـ « يفرحـون » دون (يُؤمنـون). وإنمـا سلـكنـا هذا الوجـه بنـاء على أن هذه السورة مكيـة كان نزولهـا قبـل أن يُسلم عبد الله بن سلام وسَلْمان الفـارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن. فـإن كـانت السورة مدنيـة أو كـان هذا من المدنـي فـلا إشْـكـال. فـالمراد بـالذين آتيـانـاهم الـكتـاب الذين أوتـوه إيتـاء كاملا. وهو المجرد عن العصبية لمـا كـانوا عليـه وعن الحسد، فهو كقولـه تعـالى « الـذين آتينـاهم الـكتـاب يتلونه حق تـلاوتـه أولئك يـؤمنـون بـه » .

فـالأظهر أن المراد بـالأحزاب أحزابُ الذين أوتـوا الـكتـاب . كمـا جـاء في قولـه تعالى « فـاختلف الأحزاب من بينهم » في سورة مريـم ، أي ومن أحزابهم من ينـكر بعض القرآن . فالـلام عوض عن المضاف إليـه . ولعـل هؤلاء هـم خبثـاؤهم ودُهـاتهم الذين تـوسمـوا أن القرآن يبطـل شرائعهم فـأنـكروا بعضه ، وهو مـا فيـه من الإيمـاء إلى ذلك من إبطـال أصول عقـائدهم مثل عُبـوديـة عيسى — عليْه السّلام — بـالنسبـة للنصارى . ونبوءتـه بـالنسبة لليهـود .

وفي التعبير عنهم بـالأحزاب إيماء إلى أن هؤلاء هم المتحزبـون المتصلبون لقـومهم ولمـا كـانـوا عليه . وهـكذا كانت حـالـة اضطراب أهل الـكتـاب عندمـا دمغتهم بعثـة النبيء — صلّى الله عليْه وسلّم — وأخذ أمر الإسلام يفشو .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾

أمر النبيء — صلّى الله عليه وسلّم — أن يعلن للفريقين بأنه ما أمر إلاّ بتوحيد الله كما في الآية الأخرى « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » . فمن فرح بالقرآن فليزدد فرحا ومن أنكر بعضه فليأخذ بما لا ينكره وهو عدم الإشراك . وقد كان النصارى يتبرؤون من الشرك ويعدّون اعتقاد بُنوة عيسى — عليه السلام — غير شرك

وهذه الآية من مجاراة الخصم واستنزال طائر نفسه كيلا ينفر من النظر . وبهذا التفسير يظهر موقع جملة « قُل إنما أمرت أن أعبد الله » بعد جملة « والّذين آتيناهم الكتاب يفرحون » وأنها جواب للفريقين .

وأفادت (إنما) أنه لم يؤمر إلاّ بأن يعبد الله ولا يشرك به . أي لا بغير ذلك مما عليه المشركون . فهو قصر إضافي دلت عليه القرينة .

ولما كان المأمور به مجموع شيئين : عبادة الله . وعدم الإشراك به في ذلك آل المعنى : أني ما أمرت إلاّ بتوحيد الله .

ومن بلاغة الجدل القرآني أنه لم يأت بذلك من أول الكلام بل أتى به متدرّجا فيه فقال « أن أعبُدَ الله » لأنه لا ينازع في ذلك أحد من أهل الكتاب ولا المشركين . ثم جاء بعده « ولاأشرك » به لإبطال إشراك المشركين وللتعريض بإبطال إلهية عيسى — عليه السّلام — لأن ادعاء بنوته من الله تعالى يؤول إلى الإشراك .

وجملة « إليه أدعو وإليه مئاب » بيان لجملة « إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به » . أي أن أعبده وأن أدعو الناس إلى ذلك. لأنه لما أمر بذلك من قبل الله استفيد أنه مرسل من الله فهو مأمور بالدعوة اليه .

وتقديم المجرور في الموضعين للاختصاص . أي إليه لا إلى غيره أدعو، أي بهذا القرآن . وإليه لا إلى غيره مئابي. فإن المشركين يرجعون في مهمّهم إلى الأصنام يستنصرونها ويستغيثونها ، وليس في قوله هذا ما ينكره أهل الكتاب إذ هو مما كانوا فيه سواء مع الإسلام. على أن قوله « وإليه مئاب » يعم الرجوع في الآخرة وهو البعث . وهذا من وجوه الوفاق في أصل الدين بين الإسلام واليهودية والنصرانية .

وحذفُ ياء المتكلم من « مئابي » كحذفها في قوله « عليه توكلت وإليه متاب » . وقد مضى قريبا .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لك مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

اعتراض وعطف على جملة « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك » . لما ذكر حال تلقي أهل الكتابين للقرآن عند نزوله عُرج على حال العرب في ذلك بطريقة التعريض بسوء تلقي مشركيه له مع أنهم أولى الناس بحسن تلقيه إذ نزل بلسانهم مشتملا على ما فيه صلاحهم وتنوير عقولهم. وقد جُعل أهم هذا الغرض التنويه بعلوّ شأن القرآن لفظا معنى . وأدمج في ذلك تعريض بالمشركين من العرب .

والقول في اسم الإشارة في قوله « وكذلك » مثل ما تقدم في قوله « كذلك أرسلناك في أمة » .

وضمير الغائب في « أنزلناه » عائد إلى « ما أنزل إليك » في قوله « يفرحون بما أنزل إليك » .

والجار والمجرور من اسم الإشارة نائب عن المفعول المطلق . والتقدير : أنزلناه إنزالا كذلك الإنزال .

و « حكما عربيا » حالان من ضمير « أنزلناه » . والحكم : هنا بمعنى الحكمة كما في قوله « وآتيناه الحكم صبيا » . وجُعل نفس الحكم حالا منه مبالغة . والمراد أنه ذو حكم . أي حكمة . والحكمة تقدمت .

و « عربيا » حال ثانية وليس صفة لـ « حكما » إذ الحكمة لا توصف بالنسبة إلى الأمم وإنما المعنى أنه حكمة معبر عنها بالعربية . والمقصود أنه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها . وفي ذلك إعجازه . فحصل لهذا الكتاب كمالان : كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه حكما . وكمال من جهة ألفاظه وهو المكنى عنه بكونه عربيا . وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله لأن الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة . قال تعالى « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربيّ مبين » .

ثم في كونه عربيا امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنه بلغتهم وبأن في ذلك حسن سمعتهم . ففيه تعريض بأفن رأي الكافرين منهم إذ لم يشكروا هذه النعمة كما قال تعالى « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون » . قال مالك : فيه بقاء ذكركم .

وجملة « ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم » معترضة . واللام موطئة للقسم وضمير الجمع في قوله « أهواءهم » عائد إلى معلوم من السّياق وهم المشركون الّذين وجه إليهم الكلام .

واتباع أهوائهم يحتمل السعي لإجابة طلبتهم إنزال آية غير القرآن تحذيرا من أن يسأل الله إجابتهم لما طلبوه كما قال لنوح – عليه السلام – « فلا تسألني ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين » .

ومعنى « ما جاءك من العلم » ما بلغك وعُلّمته . فيحتمل أن يراد بالموصول القرآن تنويها به . أي لئن شايعتَهم فسألتنا آية غير القرآن بعد أن نزل عليك القرآن . أو بعد أن أعلمناك أنا غير متنازلين لإجابة مقترحاتهم . ويحتمل اتباع دينهم فإن دينهم أهواء ويكون ماصدق « ما جاءك من العلم » هو دين الإسلام .

والوليّ: النصير . والواقي : المدافع .

وجعل نفي الولي والنصير جوابا للشرط كناية عن الجواب . وهو المؤاخذة والعقوبة .

والمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى تمويهات المشركين، والتحذير من الرجوع إلى دينهم تهييجا لتصلبهم في دينهم على طريقة قوله تعالى « ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك » . وتأييس المشركين من الطمع في مجيء آية توافق مقترحاتهم .

و(من) الداخلة على اسم الجلالة تتعلق بـ « ولي وواق » . و(من) الداخلة على « ولي » لتأكيد النفي تنصيصا على العموم. وتقدم الخلاف بين الجمهور وابن كثير في حذفهم ياء « واق » في حالتي الوصل والوقف وإثبات ابن كثير الياء في حالة الوقف دون الوصل عند قوله تعالى « ولكل قوم هاد » في هذه السورة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

هذا عود إلى الردّ على المشركين في إنكارهم آية القرآن وتصميمهم على المطالبة بآية من مقترحاتهم تُماثل ما يؤثر من آيات موسى وآيات عيسى

– عليهما السلام – ببيان أن الرسول لا يأتي بآيات إلاّ بإذن الله ، وأن ذلك لا يكون على مقترحات الأقوام ، وذلك قوله « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » ، فالجملة عطف على جملة « وكذلك أنزلناه حكما عربيا ».

وأدمج في هذا الرد إزالة شبهة قد تعرض أو قد عرضت لبعض المشركين فيطعنون أو طعنوا في نبوءة محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – بأنه يتزوج النساء وأن شأن النبيء أن لا يهتمّ بالنساء . قال البغوي : روي أن اليهود وقيل إن المشركين قالوا : إن هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء آ هـ . فتعين إن صحت الرواية في سبب النزول أن القائلين هم المشركون إذ هذه السورة مكية ولم يكن لليهود حديث مع أهل مكة ولا كان منهم في مكة أحد . وليس يلزم أن يكون هذا نازلا على سبب . وقد تزوج رسول الله – صلّى الله عليْه وسلّم – خديجة ثم سودة – رضي الله عنهما – في مكّة فاحتمل أن المشركين قالوا قالةَ إنكار تعلقا بأوهن أسباب الطعن في النبوءة . وهذه شبهة تعرض للسذج أو لأصحاب التمويه ، وقد يموّه بها المبشرون من النصارى على ضعفاء الإيمان فيفضلون عيسى – عليه السلام – على محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – بأن عيسى لم يتزوج النساء . وهذا لا يروج على العقلاء لأن تلك بعض الحظوظ المباحة لا تقتضي تفضيلا . وإنما التفاضل في كل عمل بمقادير الكمالات الداخلة في ذلك العمل . ولايدري أحد الحكمة التي لأجلها لم يتزوج عيسى – عليه السلام – امرأةً . وقد كان يحيى – عليه السلام – حَصورا فلعل عيسى – عليْه السّلام – قد كان مثله لأن الله لايكلفه بما يشق عليه وبما لم يكلف به غيره من الأنبياء والرسل . وأما وصف الله يحيى – عليْه السلام – بقوله « وحصورا » فليس مقصودا منه أنه فضيلة ولكنه أعلم أباه زكرياء – عليْه السلام – بأنه لا يكون له نسل ليعلم أن الله أجاب دعوته فوهب له يحيى – عليه السلام – كرامة له ، ثم قدّر أنه لا يكون له نسل إنفاذًا لتقديره فجعل امرأته عاقرا . وقد تقدم بيان ذلك في تفسير سورة آل عمران . وقد

كـان لأكثر الرسل أزواج ولأكثرهم ذرية مثـل نـوح وإبراهيم ولـوط وموسى وداود وسليمـان وغير هؤلاء – عليهم السلام – .

والأزواج : جمع زوج . وهـو من مقـابلة الجمع بالجمع . فقد يـكون لبعض الرسل زوجـة واحدة مثل : نـوح ولـوط – عليهمـا السلام – ، وقد يكون للبعض عـدة زوجـات مثل : إبـراهيـم وموسى وداود وسليمـان – عليهم السلام – .

ولمـا كان المقصود من الردّ هو عدم منـافـاة اتخـاذ الزوجـة لصفـة الرسالـة لم يكن داع إلى تعداد بعضهم زوجـات كثيرة .

وتقدم الـكلام على الزوج عند قولـه تعـالى « وقلنـا يـآدم اسكن أنتَ وزوجك الجنـة » في سورة البقرة .

والـذريـة : النسل . وتقدم عند قولـه تعـالى « قـال ومن ذريتي » في سورة البقـرة .

وجملة « ومـا كان لرسول أن يـأتي بـآيـة إلاّ بـإذن الله » هي المقصود وهي معطوفة على جملة « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ». وتركيب (ماكان) يدل على المبالغة في النفي، كمـا تقدم عند قولـه « قـال سبحـانك مـا يـكون لي أن أقـول مـا ليس لـي بحق » في سورة العقـود . والمعنى: أن شأنك شأن من سبق من الرسل لا يـأتون من الآيـات إلاّ بمـا آتـاهم الله .

وإذن الله: هو إذن التـكويـن للآيـات وإعلام الرسول بـأن ستكون آية، فاستعير الإتيـان لـلإظهـار ، واستعيـر الإذن للخلق والتـكويـن .

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾

تذييل لأنه أفاد عموم الآجال فشمل أجل الإتيان بآية من قوله « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » . وذلك إبطال لتوهم المشركين أن تأخر الوعيد يدل على عدم صدقه . وهذا ينظر إلى قوله تعالى « ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب » فقد قالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » الآية .

وإذ قد كان ما سألوه من جملة الآيات وكان ما وعدوه آية على صدق الرسالة ناسب أن يذكر هنا أن تأخير ذلك لا يدل على عدم حصوله ، فإن لذلك آجالا أرادها الله واقتضتها حكمته وهو أعلم بخلقه وشؤونهم ولكن الجهلة يقيسون تصرفات الله بمثل ما تجري به تصرفات الخلائق .

والأجل : الوقت الموقت به عمل معزوم أو موعود .

والكتاب : المكتوب ، وهو كناية عن التحديد والضبط ، لأن شأن الأشياء التي يراد تحققها أن تكتب لئلا يخالف عليها . وفي هذا الرد تعريض بالوعيد. والمعنى : لكل واقع أجلٌ يقع عنده، ولكل أجل كتاب، أي تعيين وتحديد لا يتقدمه ولا يتأخر عنه .

وجملة « يمحو الله ما يشاء » مستأنفة استئنافا بيانيا لأن جملة « لكل أجل كتاب » تقتضي أن الوعيد كائن وليس تأخيره مزيلا له . ولما كان في ذلك تأييس للناس عقب بالإعلام بأن التوبة مقبولة وبإحلال الرجاء محلّ اليأس ، فجاءت جملة « يمحو الله ما يشاء ويثبت » احتراسا .

وحقيقة المحو : إزالة شيء ، وكثر في إزالة الخط أو الصورة ، ومرجع ذلك إلى عدم المشاهدة ، قال تعالى « فمَحَوْنا آية الليل وجعلنا آية النهار

مُبصرة » . ويطلق مجازا على تغيير الأحوال وتبديل المعاني كالأخبار والتكاليف والوعد والوعيد فإن لها نسبا ومفاهيم إذا صادفت ما في الواقع كانت مطابقتُها إثباتا لها وإذا لم تطابقه كان عدم مطابقتها محوًا لأنه إزالة لمدلولاتها .

والتثبيت : حقيقته جعل الشيء ثابتا قارًا في مكان ، قال تعالى « إذا لقيتم فئة فاثبتوا » . ويطلق مجازا على أضداد معاني المحو المذكورة . فيندرج في ما تحتمله الآية عدةُ معانٍ : منها أنه يُعدم ما يشاء من الموجُودات ويبقي ما يشاء منها ، ويعفو عما يشاء من الوعيد ويُقرر ، وينسخ ما يشاء من التكاليف ويبقي ما يشاء .

وكل ذلك مظاهر لتصرف حكمته وعلمه وقدرته . وإذ قد كانت تعلقات القدرة الإلهية جارية على وفق علم الله تعالى كان ما في علمه لا يتغير فإنه إذا أوجَدَ شيئا كان عالما أنه سيوجده ، وإذا أزال شيئا كان عالما أنه سيزيله وعالما بوقت ذلك .

وأبهم الممحو والمثبت بقوله « ما يشاء » لتتوجه الأفهام إلى تعرّف ذلك والتدبر فيه لأن تحت هذا الموصول صورًا لا تحصى ، وأسبابُ المشيئة لا تحصى .

ومن مشيئة الله تعالى محوَ الوعيد أن يلهم المذنبين التوبة والإقلاع ويخلق في قلوبهم داعية الامتثال . ومن مشيئة التثبيت أن يصرف قلوب قوم عن النظر في تدارك أمورهم ، وكذلك القول في العكس من تثبيت الخير ومحوه .

ومن آثار المحو تغير إجراء الأحكام على الأشخاص ، فبينما ترى المحارب مبحوثا عنه مطلوبا للأخذ فإذا جاء تائبا قبل القدرة عليه قُبل رجوعه ورفع عنه ذلك الطلب ، وكذلك إجراء الأحكام على أهل الحرب إذا آمنوا ودخلوا تحت أحكام الإسلام .

وكذلك الشأن في ظهور آثار رضى الله أو غضبه على العبد فبينما ترى

أحدا مغضوبا عليه مضروبا عليه المذلة لانغماسه في المعاصي إذا بك تراه قد أقلع وتاب فأعزه الله ونصره.

ومن آثار ذلك أيضا تقليب القلوب بأن يجعل الله البغضاء محبةً، كما قالت هند بنتُ عتبة للنبيء – صلى الله عليْه وسلم – بعدَ أن أسلمتْ: « ما كان أهل خباء أحبّ إليّ أن يذلوا من أهل خِبائك واليوم أصبحتُ وما أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك ».

وقد محا الله وعيد من بقي من أهل مكة فرفع عنهم السيف يوم فتح مكة قبل أن يأتوا مسلمين، ولو شاء لأمر النبيء – صلى الله عليْه وسلم – باستئصالهم حين دخوله مكة فاتحا.

وبهذا يتحصل أن لفظ « ما يشاء » عام يشمل كل ما يشاؤه الله تعالى ولكنه مجمل في مشيئة الله بالمحو والإثبات، وذلك لا تصل الأدلة العقلية إلى بيانه، ولم يرد في الأخبار المأثورة ما يبينه إلا القليل على تفاوت في صحة أسانيده. ومن الصحيح فيما ورد من ذلك قول النبيء – صلى الله عليْه وسلم –: « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينَه وبينها إلاّ ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ».

والذي يلوح في معنى الآية أن ما في أم الكتاب لا يقبل محوًا، فهو ثابت وهو قسيم لما يشاء الله محوه.

ويجوز أن يكون ما في أم الكتاب هو عين ما يشاءُ الله محوه أو إثباته سواء كان تعيينا بالأشخاص أو بالذوات أو بالأنواع وسواء كانت الأنواع من الذوات أو من الأفعال، وأن جملة « وعنده أم الكتاب » أفادت أن ذلك لا يطلع عليه أحد.

ويجوز أن يكون قوله «وعنده أم الكتاب» مرادا به الكتاب الذي كتبت به الآجال وهو قوله «لكل أجل كتاب». وأن المحو في غير الآجال.

ويجوز أن يكون أم الكتاب مرادا به علم الله تعالى. أي يمحو ويثبت وهو عالم بأن الشيء سيُمحى أو يثبت. وفي تفسير القرطبي عن ابن عمر قال سمعت النبيء – صلى الله عليه وسلم – يقول «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلاّ السعادة والشقاوة والموت». وروى مثله عن مجاهد. وروى عن ابن عباس «يمحو الله ما يشاء ويُثبت» إلا أشياء الخَلْقَ – بفتح الخاء وسكون اللام – والخُلُق – بضم الخاء واللام – والأجل والرزقَ والسعادة والشقاوة، «وعنده أم الكتاب» الذي لا يتغيّر منه شيء. قلت: وقد تفرع على هذا قول الأشعري: إن السعادة والشقاوة لا يتبدلان خلافا للماتريدي.

وعن عمر وابن مسعود ما يقتضي أن السعادة والشقاوة يقبلان المحو والإثبات.

فإذا حمل المحو على ما يجمع معاني الإزالة، وحُمل الإثبات على ما يجمع معانيَ الإبقاء، وإذا حمل معنى «أم الكتاب» على معنى ما لا يقبل إزالة ما قرر أنه حاصل أو أنه موعود به ولا يقبل إثبات ما قرر انتفاؤه، سواء في ذلك الأخبار والأحكام، كان ما في أم الكتاب قسيما لما يمحى ويثبت.

وإذا حمل على أن ما يقبل المحو والإثبات معلوم لا يتغيّر علم الله به كان ما في أم الكتاب تنبيها على أن التغييرات التي تطْرأ على الأحكام أو على الأخبار ما هي إلاّ تغييرات مقررة من قبلُ وإنما كان الإخبار عن إيجادها أو عن إعدامها مظهرا لما اقتضته الحكمة الإلهية في وقت ما.

و «أم الكتاب» لا محالة شيء مضاف إلى الكتاب الذي ذُكر في قوله «لكلّ أجل كتاب». فإن طريقة إعادة النكرة بحرف التعريف أن تكون

المُعادة عينَ الأولى بأن يجعل التعريف تعريف العهد ، أي وعنده أم ذلك الكتاب ، وهو كتاب الأجل .

فكلمة (أمّ) مستعملة مجازا فيما يُشبه الأمّ في كونها أصلا لما تضاف إليه (أمّ) لأن الأمّ يتولد منها المولود فكثر إطلاق أمّ الشيء على أصله ، فالأمّ هنا مراد به ما هو أصل للمحو والإثبات اللذيْن هما من مظاهر قوله « لكل أجل كتاب » . أي لما مَحْوُ وإثباتُ المشيئات مظاهرُ له وصادرة عنه . فأمُّ الكتاب هو علم الله تعالى بما سيريد محوه وما سيريد إثباته كما تقدم .

والعندية عندية الاستئثار بالعلم وما يتصرف عنه ؛ أي وفي ملكه وعلمه أمّ الكتاب لا يَطلع عليها أحد . ولكن الناس يرون مظاهرها دون اطلاع على مدى ثبات تلك المظاهر وزوالها ، أي أن الله المتصرف بتعيين الآجال والمواقيت فجعل لكل أجل حدّا معينا. فيكون أصل الكتاب على هذا التفسير بمعنى كله وقاعدته .

ويحتمل أن يكون التعريف في « الكتاب » الذي أضيف إليه (أمّ) أصل ما يُكتب، أي يُقدر في علم الله من الحوادث فهو الذي لا يُغيّر ، أي يمحو ما يشاء ويثبت في الأخبار من وعد ووعيد ، وفي الآثار من ثواب وعقاب ، وعنده ثابتُ التقادير كلها غير متغيرة .

والعندية على هذا عندية الاختصاص، أي العلم، فالمعنى : أنه يمحو ما يشاء ويثبت فيما يبلغ إلى الناس وهو يعلم ما ستكون عليه الأشياء وما تستقر عليه، فالله يأمر الناس بالإيمان وهو يعلم مَن سيؤمن منهم ومن لا يؤمن فلا يفجؤه حادث . ويشمل ذلك نسخَ الأحكام التكليفية فهو يشرعها لمصالح ثم ينسخها لزوال أسباب شرعها وهو في حال شرْعها يعلم أنها آيلة إلى أن تنسخ .

وقرأ الجمهور « ويثبّت » — بتشديد الموحدة — من ثبّت المضاعف . وقرأه

ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ويعقوب «ويُثْبت» ــ بسكون المثلثة وتخفيف الموحدة ــ .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾

عطف على جملة «يمحو الله ما يشاء ويثبت» باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات، فبينت هذه الجملة أن النبيء ــ صلّى الله عليْه وسلّم ــ ليس مأمورا بالاشتغال بذلك ولا بترقبه وإنما هو مبلّغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبيء ــ صلّى الله عليْه وسلم ــ ذلك أم لم يشهده .

وجعل التوفي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله «نرينك». والمعنى: ما عليك إلاّ البلاغ سواء رأيت عذابهم أم لم تره .

وفي الإتيان بكلمة (بعض) إيماء إلى أنه يرى البعض. وفي هذا إنذار لهم بأن الوعيد نازل بهم ولو تأخر؛ وأن هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لأنه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعا ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه الذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعا مستمرا بعده، ضرورة أن الوسيلة لا تكون من الأهمية بأشدّ من المقصد المقصودة لأجله .

وتأكيد الشرط بنون التوكيد و (مَا) المزيدة بعد (إنْ) الشرطية مراد منه تأكيد الربط بين هذا الشرط وجوابه وهو «إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب». على أن نون التوكيد لا يقترن بها فعل الشرط إلاّ إذا زيدت (ما) بعد (إن) الشرطية فتكون إرادة التأكيد مقتضية لاجتلاب مؤكدين، فلا يكون ذلك إلا لغرض تأكيد قويّ .

وقد أرى الله نبيئه بعض ما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبيء – صلى الله عليه وسلم – ولم يُره بعضه مثل عذاب أهل الردة فإن معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل : مسيلمة الكذاب .

وفي الآية إيماء إلى أن العذاب الذي يحل بالمكذبين لرسوله – صلى الله عليه وسلم – عذاب قاصر على المكذبين لا يصيب غير المكذب لأنه استئصال بالسيف قابل للتجزئة واختلاف الأزمان رحمةً من الله بأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – .

و (على) في قوله « عليك البلاغ وعلينا الحساب » مستعملة في الإيجاب والإلزام ، وهو في الأول حقيقةو في الثاني مجاز في الوجوب لله بالتزامه به .

و « إنما » للحصر ، والمحصور فيه هو البلاغ لأنه المتأخر في الذكر من الجملة المدخولة لحرف الحصر ، والتقدير : عليك البلاغ لا غيره من إنزال الآيات أو من تعجيل العذاب ، ولهذا قدم الخبر على المبتدأ لتعيين المحصور فيه .

وجملة « وعلينا الحساب » عطف على جملة « عليك البلاغ » فهي مدخولة في المعنى لحرف الحصر . والتقدير : وإنما علينا الحساب، أي محاسبتهم على التكذيب لا غير الحساب من إجابة مقترحاتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

عطف على جملة « وإما نرينك بعض الذي تعدهم » المتعلقة بجملة « لكل أجل كتاب » . عقبت بهذه الجملة لإنذار المكذبين بأن ملامح نصر النبيء – صلى الله عليه وسلم – قد لاحت وتباشير ظَفَره قد طلعت ليتدبروا في

أمرهم . فكان تعقيب المعطوف عليها بهذه الجملة للاحتراس من أن يتوهموا أن العقاب بطيء وغيرُ واقع بهم . وهي أيضا بشارة للنبيء – صلى الله عليْه وسلم – بأن الله مظهر نصره في حياته وقد جاءت أشراطه . فهي أيضا احتراس من أن ييأس النبيء – صلى الله عليْه وسلم – من رؤية نصره مع علمه بأن الله متم نوره بهذا الدّين .

والاستفهام في « أو لم يروا » إنكاري ، والضمير عائد إلى المكذبين العائد إليهم ضمير « نعدهم » . والكلام تهديد لهم بإيقاظهم إلى ما دبّ إليهم من أشباح الاضمحلال بإنقاص الأرض . أي سكانها .

والرؤية يجوز أن تكون بصرية . والمراد : رؤية آثار ذلك النقص ؛ ويجوز أن تكون علمية . أي ألم يعملوا ما حل بأرضي الأمم السابقة من نقص .

وتعريف « الأرض » تعريف الجنس . أي نأتي أية أرض من أرضي الأمم . وأطلقت الأرض هنا على أهلها مجازا ، كما في قوله تعالى « واسأل القرية » بقرينة تعلق فعل النقص بها ، لأن النقص لا يكون في ذات الأرض ولا يرى نقص فيها ولكنه يقع فيمن عليها . وهذا من باب قوله تعالى « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالأرض أرض الكافرين من قريش فيكون التعريف للعهد ، وتكون الرؤية بصرية . ويكون ذلك إيقاظا لهم بما غلب عليه المسلمون من أرض العدوّ فخرجت من سلطانه فتنقص الأرض التي كانت في تصرفهم وتزيد الأرض الخاضعة لأهل الإسلام . وبنوا على ذلك أن هذه الآية نزلت بالمدينة وهو الذي حمل فريقا على القول بأن سورة الرعد مدنية فإذا اعتبرت مدنية صح أن تفسر الأطراف بطرفين وهما مكة

والمدينة فإنهما طرفا بلاد العرب ، فمكة طرفها من جهة اليَمن ، والمدينة طرف البلاد من جهة الشام ، ولم يزل عدد الكفار في البلدين في انتقاص بإسلام كفارها إلى أن تمحضت المدينة للإسلام ثم تمحضت مكة له بعد يوم الفتح .

وأيّاما كان تفسير الآية وسبب نزولها ومكانه فهي للإنذار بأنهم صائرون إلى زوال وأنهم مغلوبون زائلون ، كقوله في الآية الأخرى في سورة الأنبياء « أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون » ، أي ما هم الغالبون . وهذا إمهال لهم وإعذار لعلهم يتداركون أمرهم.

وجملة « والله يحكم لا معقب لحكمه » عطف على جملة « أو لم يروا » مؤكدة للمقصود منها، وهو الاستدلال على أن تأخير الوعيد لا يدل على بطلانه ، فاستدل على ذلك بجملة « وإما نرينك بعض الذي نعدهم » ثم بجملة « أو لم يروا أنّا نأتي الأرض » ثم بجملة « والله يحكم » ، لأن المعنى : أن ما حكم الله به من العقاب لا يبطله أحد وأنه واقع ولو تأخر .

ولذلك فجملة « لا معقب لحكمه » في موضع الحال ، وهي المقيدة للفعل المراد إذ هي مصب الكلام إذ ليس الغرض الإعلام بأن الله يحكم إذ لا يكاد يخفى ، وإنما الغرض التنبيه إلى أنه لا معقب لحكمه . وأفاد نفي جنس المعقب انتفاء كل ما من شأنه أن يكون معقبا من شريك أو شفيع أو داع أو راغب أو مستعصم أو مفتد .

والمعقب: الذي يعقب عملا فيبطله، مشتق من العَقِب ، وهو استعارة غلبت حتى صارت حقيقة . وتقدم عند قوله تعالى « له معقبات » في هذه السورة، كأنه يجيء عقب الذي كان عمل العمل .

وإظهار اسم الجلالة بعد الإضمار الذي في قوله « أنّا نأتي الأرض » لتربية المهابة ، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الإلهية

والوحدانية المقتضية عدم المنازع ، وأيضا لتكون الجملة مستقلة بنفسها لأنها بمنزلة الحكمة والمثل .

وجملة « وهو سريع الحساب » يجوز أن تكون عطفا على جملة « والله يحكم » فتكون دليلا رابعا على أن وعده واقع وأن تأخره وإن طال فما هو إلا سريع باعتبار تحقق وقوعه ؛ ويجوز أن يكون عطفا على جملة الحال . والمعنى : يحكم غير منقوص حكمه وسريعا حسابه . ومآل التقديرين واحد .

والحساب : كناية عن الجزاء .

والسرعة : العجلة ؛ وهي في كل شيء بحسبه .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

لما كان قوله « أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » تهديدا وإنذارا مثل قوله « فقد جاء أشراطها » وهو إنذار بوعيد على تظاهرهم بطلب الآيات وهم يضمرون التصميم على التكذيب والاستمرار عليه . شبه عملهم بالمكر وشبه بعمل المكذبين السابقين كقوله « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ».وفي هذا التشبيه رمز إلى أن عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرّفوها . فنقص أرض هؤلاء من أطرافها من مكر الله بهم جزاء مكرهم ، فلذلك أعقب بقوله « وقد مكر الذين من قبلهم » أي كما مكر هؤلاء .

فجملة « وقد مكر الذين من قبلهم » حال أو معترضة .

وجملة « فلله المكر جميعا » تفريع على جملة « أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » وجملة « والله يحكم لا معقب لحكمه » .

والمعنى : مكرَ هؤلاء ومكرَ الذين من قبلهم وحل العذاب بالذين من قبلهم فمكر الله بهم وهو يمكر بهؤلاء مكرًا عظيما كما مكر بمن قبلهم .

وتقديم المجرور في قوله « فلله المكر جميعاً » للاختصاص ، أي له لا لغيره ، لأن مكره لا يدفعه دافع فمكر غيره كلاَ مكر بقرينة أنه أثبت لهم مكرًا بقوله «وقد مكر الذين من قبلهم». وهذا بمعنى قوله تعالى « والله خير الماكرين ».

وأكد مدلول الاختصاص بقوله « جميعا » وهو حال من المكر. وتقدم في قوله تعالى « إليه مرجعكم جميعا » في سورة يونس .

وإنما جعل جميع المكر لله بتنزيل مكر غيره منزلة العدم، فالقصر في قوله « فللّه المكر » ادعائي ، والعموم في قوله « جميعا » تنزيليّ.

وجملة « يعلم ما تكسب كل نفس » بمنزلة العلة لجملة « فلله المكر جميعا » ، لأنه لما كان يعلم ما تكسب كل نفس من ظاهر الكسب وباطنه كان مكره أشدّ من مكر كل نفس لأنه لا يفوته شيء مما تضمره النفوس من المكر فيبقى بعض مكرهم دون مقابلة بأشد منه فإن القوي الشديد الذي لا يعلم الغيوب قد يكون عقابه أشد ولكنه قد يفوقه الضعيف بحيلته .

وجملة « وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار » عطف على جملة « فلله المكر جميعا » . والمراد بالكافر الجنس ، أي الكفار . و«عقبى الدار» تقدم آنفا ، أي سيعلم أن عقبى الدار للمؤمنين لا للكافرين ، فالكلام تعريض بالوعيد .

وقرأ الجمهور : « وسيعلم الكافر » بإفراد الكافر. وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة ، والكسائي ، وخلف « وسيعلم الكفار » بصيغة الجمع . والمفرد والجمع سواء في المعرف بلام الجنس .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

عطف على ما تضمنته جملة « وقد مكر الذين من قبلهم » من التعريض بأن قولهم « لولا أنزل عليه آية من ربه» ضَرْب من المكر بإظهارهم أنهم يتطلبون الآيات الدالة على صدق الرسول – صلى الله عليْه وسلم – ، مظهرين أنهم في شك من صدقه وهم يبطنون التصميم على التكذيب . فذكرت هذه الآيةُ أنهم قد أفصحوا تارات بما أبطنوه فنطقوا بصريح التكذيب وخرجوا من طور المكر إلى طور المجاهرة بالكفر فقالوا « لست مرسلا » .

وقد حكي قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق ، كما عبر بالمضارع في قوله تعالى « ويصنع الفلك » وقوله « يجادلنا في قوم لوط ».

ولما كانت مقالتهم المحكية هنا صريحة لا مواربة فيها أمر الرسول – صلى الله عليْه وسلم – بجواب لا جدال فيه وهو تحكيم الله بينه وبينهم .

وقد أمر الرسول – عليْه الصلاة السلام – بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع

ولما كانت الشهادة للرسول – عليْه الصلاة السلام – بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم .

وإشهاد الله في معنى الحلف على الصدق كقول هود – عليْه السلام – « إنّي أشهد الله » .

والباء الداخلة على اسم الجلالة الذي هو فاعل « كفى » في المعنى للتأكيد .

وأصل التركيب : كفى اللهُ . و « شهيدا » حال لازمة أو تمييز ، أي كفى الله من جهة الشاهد .

« ومَن عنده علم الكتاب » معطوف على اسم الجلالة .

والموصول في « ومن عنده علم الكتاب » يجوز أن يراد به جنس من يتصف بالصلة . والمعنى : وكل من عندهم علم الكتاب . وإفراد الضمير المضاف إليه (عِنْدَ) لمراعاة لفظ (من) . وتعريف « الكتاب » تعريف للعهد ، وهو التوراة . أي وشهادة علماء الكتاب . وذلك أن اليهود كانوا قبل هجرة النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – إلى المدينة يستظهرون على المشركين بمجيء النبيء المصدق للتوراة .

ويحتمل أن يكون المراد بمن عنده علم الكتاب معيّنا . فهو ورقة بن نوفل إذ علم أهل مكة أنه شهد بأن ما أوحي به إلى رسول الله – صلّى الله عليْه وسلّم – هو الناموس الذي أنزل على موسى – عليْه السلام – كما في حديث بدء الوحي في الصحيح . وكان ورقة منفردا بمعرفة التوراة والإنجيل . وقد كان خبر قوله للنبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – ما قاله معروفا عند قريش .

فالتعريف في « الكتاب » تعريف الجنس المنحصر في التوراة والإنجيل .

وقيل : أريد به عبد الله بن سلام الّذي آمن بالنبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – في أول مقدمه المدينة . ويبعده أن السورة مكية كما تقدم .

ووجه شهادة علماء الكتاب برسالة محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – وجدانهم البشارة بنبيء خاتم للرسل – صلّى الله عليْه وسلّم – ، ووجدانهم ما جاء في القرآن موافقا لسنن الشرائع الإلهية ومفسرا للرموز الواردة في التوراة والإنجيل في صفة النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – المصدق الموعود به . ولهذا المعنى كان التعبير في هذه الآية بـ « من عنده علم الكتاب » دون أهل الكتاب لأن تطبيق ذلك لا يدركه إلا علماؤهم . قال تعالى « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة إبراهيم

أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم – عليه السلام – فكان ذلك اسما لها لا يعرف لها غيره . ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيء – صلى الله عليه وسلم – ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول .

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم – عليه السلام – جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات « الـر ». وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء – عليهم السلام – التي جاءت قصصهم فيها . أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة الحجر . ولذلك لم تضف سورة الرعد إلى مثل ذلك لأنها متميزة بفاتحها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء .

وهي مكية كلها عند الجمهور . وعن قتادة إلا آيتي « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا – إلى قوله – وبئس القرار » ، وقيل : إلى قوله « فإن مصيركم إلى النار » . نزل ذلك في المشركين في قضية بدر ؛ وليس ذلك إلا توهما كما ستعرفه .

نزلت هذه السور بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء . وقد عدت السبعين في ترتيب السور في النزول .

وعدت آياتها أربعا وخمسين عند المدنيين، وخمسا وخمسين عند أهل الشام ، وإحدى وخمسين عند أهل البصرة . واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة .

واشتملت من الأغراض على أنها ابتدئت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن ، وبالتنويه بشأنه ، وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة . والامتنان بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله تعالى الذي أنزله .

ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه .

وإيقاظ المعاندين بأن محمدا – صلّى الله عليْه وسلّم – ما كان بدعا من الرسل. وأن كونه بشرا أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل .

وضرب له مثلا برسالة موسى – عليْه السلام – إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل .

وتذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها .

وموعظته إياهم بما حلّ بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب .

وكيف كانت عاقبة المكذبين .

وإقامة الحجة على تفرد الله تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته.

وذكر البعث .

وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان .

وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر .

ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ .

وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر .

ثم التعجيب من حال قوم كفرُوا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك .

والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين .

وعدّ بعض نعمه على الناس تفضيلا ثم جمعها إجمالا .

ثم ذكر الفريقين بحال إبراهيم – عليْه السّلام – ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم – عليْه السّلام – ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام .

وتحذيرهم من كفران النعمة .

وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالذين ظلموا من قبل .

وتثبيت النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – بوعد النصر .

وما تخلل ذلك من الأمثال .

وختمت بكلمات جامعة من قوله « هذا بلاغ للنّاس » إلى آخرها .

﴿ أَلَـــــرَ ﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فاتحة سورة البقرة وعلى نظير هذه الحروف في سورة يونس .

﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

الكلام على تركيب « ألــر كتاب أنزلناه إليك » كالكلام على قوله تعالى « ألــمــص كتاب أنزل إليك » عدا أن هذه الآية ذكر فيها فاعل الإنزال وهو معلوم من مادة الإنزال المشعرة بأنه وارد من قبل العالم العلوي ، فللعلم بمنزله حذف الفاعل في آية سورة الأعراف ، وهو مقتضى الظاهر والإيجاز ؛ ولكنه ذكر هنا لأن المقام مقام الامتنان على الناس المستفاد من التعليل بقوله « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ، ومن ذكر صفة الربوبية بقوله « بإذن ربهم »، بخلاف آية سورة الأعراف فإنها في مقام الطمأنة والتصبير للنبيء – عليه الصلاة والسّلام – المنزّل إليه الكتاب، فكان التعرّض لذكر المنْزل إليه والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام مع ما فيه من قضاء حق الإيجاز .

أما التعرّض للمنزّل إليه هنا فللتنويه بشأنه، وليجعل له حظ في هذه المنة وهو حظ الوساطة ، كما دل عليه قوله « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ، ولما فيه من غمّ المعاندين والمبغضين للنبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – .

ولأجل هذا المقصد وقع إظهار صفات فاعل الإنزال ثلاث مرات في قوله « بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » بعد أن كان المقام للإضمار تبعا لقوله « أنزلناه » .

وإسناد الإخراج إلى النبي – عليْه الصلاة والسلام – لأنه يبلغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار فساد الشرك والكفر ، وهو مع التبليغ يبين للناس ويقرب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه ، ثم بما ينبنيه عليه من المواعظ والنذر والبشارة . وإذ قد أسند الإخراج إليه في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه عُلِم أن إخراجه إياهم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزل ، أي بما يشتمل عليه من معاني الهداية .

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دل على أن الهداية هي مراد الله تعالى من الناس ، وأنه لم يتركهم في ضلالهم ، فمن اهتدى فبإرشاد الله ومن ضلّ فبإيثار الضال هوى نفسه على دلائل الإرشاد، وأمرُ الله لا يكون إلا لحِكم ومصالح بعضها أكبر من بعض .

والإخراج : مستعار للنقل من حال إلى حال . شبه الانتقال بالخروج فشبه النقل بالإخراج .

و« الظلماتُ والنور » استعارة للكفر والإيمان، لأن الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك ، والإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل . وقد يستخلص السامع من ذلك تمثيل حال المنغمس في الكفر بالمتحير في ظلمة ، وحال انتقاله إلى الإيمان بحال الخارج من ظلمة إلى مكانٍ نيّر .

وجمع « الظلمات » وإفراد « النور » تقدم في أول سورة الأنعام .

والباء في « بإذن ربهم » للسببية ، والإذنُ : الأمر بفعل يتوقف على رضَى الآمر به ، وهو أمر الله إياه بإرساله إليهم لأنه هو الإذن الذي يتعلق بجميع الناس ، كقوله « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ». ولما كان الإرسال لمصلحتهم أضيف الإذن إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير الناس ، أي بإذن الذي يدبر مصالحهم .

وقوله « إلى صراط العزيز الحميد » بدل من « النور » بإعادة الجار للمبدل منه لزيادة بيان المبدل منه اهتماما به ، وتأكيد للعامل كقوله تعالى « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم » في سورة الأعراف .

ومناسبة الصراط المستعار للدين الحق ، لاستعارة الإخراج والظلمات والنور ولما يتضمنه من التمثيل ، ظاهرة .

واختيار وصف « العزيز الحميد » من بين الصفات العُلى لمزيد مناسبتها للمقام، لأن العزيز الذي لا يُغلب. وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس فهو به غالب للمخالفين مقيمٌ الحجة عليهم .

والحميد : بمعنى المحمود ، لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه ، وبذلك استوعبَ الوصفان الإشارة إلى الفريقين من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة ونفاد الحيلة .

﴿ اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر — برفع اسم الجلالة — على أنه خبر عن مبتدإ محذوف . والتقدير : هو (أي العزيزُ الحميد) اللهُ الموصوف

بـالـذي لـه مـا فـي السمـاوات الأرض . وهـذا الحـذف جـارٍ عـلى حذف المسند إليـه المسمى عند علمـاء المعـاني تبعـا للسكـاكـي بـالحَذف لمتـابعـة الاستعمـال، أي استعمـال العرب عند مـا يجري ذكـر موصوف بصفـات أن ينتقلـوا من ذلك إلى الإخبـار عنـه بمـا هو أعظم ممـا تقدم ذكره ليكسب ذلك الانتقـال تقريـرًا للغـرض، كقول إبـراهيم الصولـي :

سأشكر عَمْرا إن تـراخت مـنيـتـي ... أيـاديَ لـم تُمْنَنْ وإنْ هـيَ جلّت
فتـى غيرُ محجـوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهـر الشكـوى إذا النعـل زلـت

أي هـو فتـى مـن صفـتـه كـيت وكـيت.

وقـرأه البـاقـون إلاّ رُوَيْسًا عن يعقوب - بـالجرّ - على البدلية من « العزيـز الحميـد » ، وهي طريقـة عربيـة. ومـآل القراءتين واحـد وكلتـا الطريقتين تفيد أن المنتقـل إليـه أجدر بـالذكـر عقب مـا تقدمـه، فـإن اسم الجلالـة أعظم من بقيـة الصفـات لأنـه عَلَم الذات الذي لا يشاركـه موجود في إطلاقـه ولا في معنـاه الأصلي المنقـول منـه إلى العلميـة إلا أن الرفـع أقـوى وأفخم .

وقرأه رُوَيْس عن يعقوب - بـالرفـع - إذا وقف على قولـه « الحميـد » وابتـدئ بـاسم « الله » ، فـإذا وصل « الحميد » بـاسم « الله » جر اسم الجلالـة على البـدليـة .

وإجراء الوصف بـالموصول على اسم الجلالـة لـزيـادة التفخيـم لا للتعريف. لأن ملك سائر الموجودات صفـة عظيمـة والله معروف بهـا عند المخـاطبين . وفيه تعـريض بـأن صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بـواصل إلى المقصود لنقصان ذويـه. وفي ذكـر هذه الصلـة إدمـاجُ تعـريض بـالمشركين الذيـن عبدوا مـا ليس لـه السمـاوات والأرض .

﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَـٰئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾

لمّا أفاد قوله « إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » تعريضا بالمشركين الذين اتبعوا صراط غير الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض عطف الكلام إلى تهديدهم وإنذارهم بقوله « وويل للكافرين من عذاب شديد » . أي للمشركين به آلهة أخرى .

وجملة « وويل للكافرين » إنشاء دعاء عليهم في مقام الغضب والذم ، مثل قولهم : ويحك. فعطفه من عطف الإنشاء على الخبر .

« وويل » مصدر لا يعرف له فعل . ومعناه الهلاك وما يقرب منه من سوء الحالة ، ولأنه لا يُعرف له فعل كان اسم مصدر وعومل معاملة المصادر ، ينصب على المفعولية المطلقة ويرفع لإفادة الثبات ، كما تقدم في رفع « الحمد لله » في سورة الفاتحة . ويقال : ويل لك وويلك ، بالإضافة . ويقال : يا ويلك . بالنداء . وقد يذكر بعد هذا التركيب سببه فيؤتى به مجرورا بحرف (مِن) الابتدائية كما في قوله هنا « مِن عذاب شديد » ، أي هلاكا ينجر لهم من العذاب الشديد الذي يلاقونه وهو عذاب النار . وتقدم الويل عند قوله تعالى « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » في سورة البقرة .

والكافرون هم المعهودون وهم الذين لم يخرجوا من الظلمات إلى النور ، ولا اتبعوا صراط العزيز الحميد . ولا انتفعوا بالكتاب الذي أنزل لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

و « يستحبون » بمعنى يحبون ، فالسين والتاء للتأكيد مثل استقدم واستأخر . وضمن « يستحبون » معنى يؤثرون، لأن المحبة تعدّت إلى الحياة الدنيا عقب ذكر العذاب الشديد لهم ، فأنبأ ذلك أنهم يحبون خير الدنيا دون خير الآخرة إذ كان في الآخرة في شقاء . فنشأ من هذا معنى الإيثار ، فضُمّنه فعُدّي إلى مفعول آخر بواسطة حرف (على) في قوله « على الآخرة » أي يؤثرونها عليها .

وقوله « ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا » تقدم نظيره في قوله « أنْ لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا » في سورة الأعراف ، وعند قوله تعالى « يا أهل الكتاب لِم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء » في سورة آل عمران . فانظره هنالك.

والصدّ عن سبيل الله : منع الداخلين في الإسلام من الدخول فيه . شبه ذلك بمن يمنع المارّ من سلوك الطريق. وجعل الطريق طريقَ الله لأنه موصل إلى مرضاته فكأنه موصل إليه ، أو يصدّون أنفسهم عن سبيل الله لأنهم عطلوا مواهبهم ومداركهم من تدبر آيات القرآن ، فكأنهم صدّوها عن السير في سبيل الله ويبغون السبيل العَوجاء، فعلم أن سبيل الله مستقيم ، قال تعالى « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه » .

والإشارة في قوله « أولئك في ضلال بعيد » للتنبيه على أنهم أحرياء بما وصفوا به من الضلال بسبب صدّهم عن سبيل الحق وابتغائهم سبيل الباطل . فـ « أولئك » في محل مبتدأ و « في ضلال بعيد » خبر عنه . ودلّ حرف الظرفية على أن الضلال محيط بهم فهم متمكنون منه .

ووصف الضلال بالبعيد يجوز أن يكون على وجه المجاز العقلي ، وإنما البعيد هم الضالّون، أي ضلالا بعدوا به عن الحق فأسند البعد إلى سببه .

ويجوز أن يراد وصفه بالبعد على تشبيهه بالطريق الشاسعة التي يتعذر رجوع سالكها ، أي ضلال قوي يعسر إقلاع صاحبه عنه . ففيه استبعاد

لاهتداء أمثالهم كقوله « ألا إنّ الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » وقوله « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » . وتقدم في قوله « ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا » في سورة النساء .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

إذا كانت صيغة القصر مستعملة في ظاهرها ومسلّطة على متعلّقي الفعل المقصور كان قصرا إضافيا لقلب اعتقاد المخاطبين، فيتعين أن يكون ردّا على فريق من المشركين قالوا: هلا أنزل القرآن بلغة العجم. وقد ذكر في الكشاف في سورة فصلت عند قوله تعالى « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي » فقال : كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، وهو مروي في تفسير الطبري هنالك عن سعيد بن جبير أن العرب قالوا ذلك.

ثم يجوز أن يكون المراد بلغة العجم لغة غير العرب مثل العبرانية أو السريانية من اللغات التي أنزلت بها التوراة والإنجيل ، فكان من جملة ما موّهت لهم أوهامهم أن حسبوا أن للكتب الإلهية لغة خاصة تنزل بها ثم تُفسر للّذين لا يعرفون تلك اللّغة . وهذا اعتقاد فاش بين أهل العقول الضعيفة ، فهؤلاء الّذين يعالجون سرّ الحرف والطلسمات يموّهون بأنها لا تكتب إلا باللغة السريانية ويزعمون أنها لغة الملائكة ولغة الأرواح. وقد زعم السراج البلقيني : أن سؤال القبر يكون باللّغة السريانية وتلقاه عنه جلال الدّين السيوطي واستغربه فقال :

ومن عجيب ما ترى العينان   أن سُؤال القبر بالسرياني
أفتى بهذا شيخنا البلقيني   ولم أره لغيره بعيني

وقد كان المتنصرون من العرب والمتهودون منهم مثل عرب اليمن تترجم لهم بعض التّوراة والإنجيل بالعربية كما ورد في حديث ورقة بن نوفل في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري. فاستقرّ في نفوس المشركين من جملة مطاعنهم أن القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة الّتي جاءت بها الكتب السالفة. فصارت عربيته عندهم من وجوه الطعن في أنه منزل من الله. فالقصر هنا لرد كلامهم. أي ما أرسلنا من رسول بلسان إلا لسان قومه المرسل إليهم لا بلسان قوم آخرين.

فموقع هذه الآية عقب آية «كتاب أنزلناه إليك» بيّن المناسبة.

وتقدير النظم: كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ وأنزلناه بلغة قومك لتبيّن لهم الذي أوحينا إليك وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم فيخرجهم من الظلمات إلى النور.

وإذا كانت صيغة القصر جارية على خلاف مقتضى الظاهر ولم يكن ردّاً لمقالة بعض المشركين يكُن تنزيلا للمشركين منزلة من ليسوا بعرب لعدم تأثرهم بآيات القرآن. ولقولهم «قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه» وكان مناط القصر هو ما بعد لام العلّة. والمعنى: ما أرسلناك إلاّ لتبيين لهم وما أرسلنا من رسول إلا ليبين لقومه. وكان قوله «إلا بلسان قومه» إدْماجا في الاستثناء المتسلّط عليه القصرُ؛ أو يكون متعلقا بفعل «ليبين» مقدما عليه. والتقدير: ما أرسلناك إلا لتبين لهم بلسانهم؛ وما أرسلنا من رسول إلا ليبين لقومه بلسانهم، فما لقومك لم يهتدوا بهذا القرآن وهو بلسانهم؛ وبذلك يتضح موقع التفريع في قوله «فيُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء».

واللسان: اللغة وما به التخاطب. أطلق عليها اللسان من إطلاق اسم المحل على الحالّ به؛ مثل: سَال الوادي.

والباء للملابسة؛ فلغة قومه ملابسة لكلامه والكتابِ المنزل إليه لإرشادهم.

والقوم : الأمة والجماعة . فقوم كلُ أحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة . وقوم كل رسول أمته المبعوث إليهم ، إذ كان الرسُل يبعثون إلى أقوامهم ؛ وقوم محمّد — صلّى الله عليْه وسلّم — هم العرب ، وأما أمته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم الناس كافة .

وإنما كان المخاطب أولا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذر نزونه بلغات الأمم كلها . فاختار الله أن يكون رسوله — عليْه الصلاة والسّلام — من أمة هي أفصح الأمم لسانا . وأسرعهم أفهاما ، وألمعهم ذكاء . وأحسنهم استعداداً لقبول الهدى والإرشاد ، ولم يؤمن برسول من الرسل في حياته عددٌ من الناس مثل الذين آمنوا بمحمّد — صلّى الله عليْه وسلّم — في حياته فقد عم الإسلامُ بلاد العرب وقد حج مع النبيء — صلّى الله عليْه وسلّم — في حجة الوداع نحو خمسين ألفا أو أكثر . وقيل مائة ألف وهم الرجال المستطيعون .

واختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب؛ لأنها أصلح اللغات جمعَ معان . وإيجاز عبارة ، وسهولة جري على الألسن ، وسرعة حفظ ، وجمال وقع في الأسماع . وجعلت الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادىء ذي بدء، وعهد إليها نشره بين الأمم .

وفي التعليل بقوله « ليبين لهم » إيماء إلى هذا المعنى . لأنه لما كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين من بين لغات الأمم المرسل إليهم هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها ، قال تعالى « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » . فهذا كله من مطاوي هذه الآية .

ولكن لما كان المقصود من سياقها الرد على طعنهم في القرآن بأنه نزل بلغة لم ينزل بها كتاب قبله اقتُصر في رد خطئهم على أنه إنما كان كذلك ليبيّن لهم لأن ذلك هو الّذي يهمهم .

وتفريع قوله « فيُضلّ الله من يشاء » الخ على مجموع جملة « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم » ، ولذلك جاء فعل « يضلّ » مرفوعا غير منصوب إذ ليس عطفا على فعل « ليبيّنَ » لأن الإضلال لا يكون معلولا للتبيين ولكنه مفرع على الإرسال المعلل بالتبيين . والمعنى أن الإرسال بلسان قومه لحكمة التبيين . وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبيّن لهم .

والإضلال والهدى من الله بما أعد في نفوس الناس من اختلاف الاستعداد .

وجملة « وهو العزيز الحكيم » تذييل لأن العزيز قويّ لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عمّا خُلق له . والحكيم يضع الأشياء مواضعها ، فموضع الإرسال والتبيين يأتي على أكمل وجه من الإرشاد . ومَوْقع الإضلال والهدى هو التكوين الجاري على أنسب حال بأحوال المرسل إليهم ، فالتبيين من مقتضَى أمر التشريع والإضلالُ من مقتضَى أمر التكوين .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّـٰمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

لما كانت الآيات السابقة مسوقة للرد على من أنكروا أن القرآن منزل من الله أعقب الرد بالتمثيل بالنظير وهو إرسال موسى – عليْه السّلام – إلى قومه بمثل ما أرسل به محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – وبمثل الغاية الّتي أرسل لها محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – ليخرج قومه من الظلمات إلى النور .

وتأكيد الإخبار عن إرسال موسى – عليْه السّلام – بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المنكرين رسالة محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – منزلة من

ينكر رسالة موسى – عليْه السّلام – لأن حالهم في التكذيب برسالة محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – يقتضي ذلك التنزيل ، لأن ما جاز على المِثل يجوز على المماثل . على أن منهم من قال « ما أنزلَ الله على بشر من شيء » .

والباء في « بآياتنا » للمصاحبة . أي إرسالا مصاحبا للآيات الدالة على صدقه في رسالته . كما أرسل محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – مصاحبا لآية القرآن الدال على أنه من عند الله ، فقد تمّ التنظير وانتهض الدليل على المنكرين .

و (أنْ) تفسيرية . فسّر الإرسال بجملة « أخْرِج قومك » الخ ، والإرسال فيه معنى القول فكان حقيقا بموقع (أن) التفسيرية .

و « الظلمات » مستعار للشرك والمعاصي ، و « النور » مستعار للإيمان الحق والتقوى ، وذلك أن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد في مصر بعد وفاة يوسف – عليْه السّلام – سرَى إليهم الشرك واتّبعوا دين القبط ، فكانت رسالة موسى – عليْه السّلام – لإصلاح اعتقادهم مع دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله الواحد ، وكانت آيلة إلى إخراج بني إسرائيل من الشرك والفساد وإدخالهم في حظيرة الإيمان والصلاح .

والتذكير : إزالة نسيان شيء . ويستعمل في تعليم مجهول كانَ شأنُه أن يُعلم . ولما ضمن التذكير معنى الإنذار والوعظ عُدّي بالباء ، أي ذكرهم تذكير عظة بأيام الله .

و « أيام الله » أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره ، وتأييده المؤمنين على عدوّهم ، فإن ذلك كله مظهر من مظاهر عزّة الله تعالى . وشاع إطلاق اسم اليوم مضافا إلى اسم شخص أو قبيلة على يوم انتصر فيه مسمى المضاف إليه على عدوه ، يقال : أيام تميم ، أي أيام انتصارهم ، « فأيّام الله » أيام ظهور قدرته وإهلاكه الكافرين به ونصْره أولياءه والمطيعين له .

فالمراد بِ « أيام الله » هنا الأيام الّتي أنجى الله فيها بني إسرائيل من أعدائهم ونصرهم وسخر لهم أسباب الفوز والنصر وأغدق عليهم النعم في زمن موسى – عليه السلام – . فإن ذلك كله مما أمر موسى – عليْه السّلام – بأن يذكّرهمُوه ، وكله يصح أن يكون تفسيرا لمضمون الإرسال . لأن إرسال موسى – عليْه السلام – ممتدّ زمنه . وكلما أوحى الله إليه بتذكيرٍ في مدة حياته فهو من مضمون الإرسال الذي جاء به فهو مشمول لتفسير الإرسال . فقول موسى – عليْه السّلام – « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة الّتي كتب الله لكم » هو من التذكير المفسّر به إرسال موسى – عليه السّلام – . وهو وإن كان واقعا بعد ابتداء رسالته بأربعين سنة فما هو إلا تذكير صادر في زمن رسالته . وهو من التذكير بأيام نعم الله العظيمة التي أعطاهم ، وما كانوا يحصلونها لولا نصر الله إياهم . وعنايتِه بهم ليعلموا أنه رُبّ ضعيفٍ غلب قويّا ونجا بضعفه ما لم ينجُ مثلَه القوي في قوته .

واسم الإشارة في قوله « إن في ذلك لآيات» عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير . فالإخراج من الظلمات بعد توغلهم فيها وانقضاء الأزمنة الطويلة عليها آية من آيات قدرة الله تعالى .

والتذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله وعزته وتأييد مَن أطاعه . وكل ذلك آيات كائنة في الإخراج والتذكير على اختلاف أحواله .

وقد أحاط بمعنى هذا الشمول حرف الظرفية من قوله « في ذلك » لأن الظرفية تجمع أشياء مختلفة يحتويها الظرف . ولذلك كان لحرف الظرفية هنا موقع بليغ .

ولكون الآيات مختلفة . بعضها آيات موعظة وزجر وبعضها آيات منة وترغيب . جُعلت متعلقة بـ « كل صبّار شكور » إذ الصبر مناسب للزجر

لأن التخويف يبعث النفس على تحمل معاكسة هواها خيفة الوقوع في سوء العاقبة ، والإنعام يبعث النفس على الشكر ؛ فكان ذكر الصفتين توزيعا لما أجمله ذكر أيام الله من أيام بؤس وأيام نعيم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُم مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

عطف على جملة « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا » باعتبار غرض الجملتين ، وهو التنظير بسنن ما جاء به الرسل السابقون من إرشاد الأمم وتذكيرها ، كما أنزل القرآن لذلك .

« وإذ » ظرف للماضي متعلّق بفعل تقديره : اذكر ؛ دل عليه السياق الذي هو ذكر شواهد التاريخ بأحوال الرسل – عليهم السلام – مع أممهم . والمعنى : واذْكر قول موسى لقومه الخ .

وهذا مما قاله موسى لقومه بعد أن أنجاهم الله من استعباد القبط وإهانتهم . فهو من تفاصيل ما فسّر به إرسال موسى – عليْه السّلام – وهو من التذكير بأيام الله الذي أمر الله موسى – عليْه السلام – أن يذكّره قومه .

و « إذ أنجاكم » ظرف للنعمة بمعنى الإنعام ، أي الإنعام الحاصل في وقت إنجائه إياكم من آل فرعون . وقد تقدم تفسير نظيرها في قوله تعالى « وإذ أنجيناكم من آل فرعون » في سورة البقرة . وكذا في سورة الأعراف « يقتلون » . سوى أن هذه الآية عُطفت فيها جملة « و يذبحون » على جملة « يسومونكم » وفي آية البقرة والأعراف جعلت جملة « يذبحون » وجملة « يقتلون » بدون عطف على أنها بدل اشتمال من جملة « يسومونكم

سوء العذاب » . فكان مضمون جملة « و يذبحون » هنا مقصودا بالعدّ كأنه صنف آخر غير سوء العذاب اهتماما بشأنه ، فعطفه من عطف الخاص على العامّ . وعلى كلا النظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذكر ، فالقرآنُ حكى مراد كلام موسى – عليْه السلام – من ذكر العذاب الأعم وذكر الأخص للاهتمام به ، وهو حاصل على كلا النظمين . وإنما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة تفنّنا في إعادة القصة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي ، وهو ذكر سوء العذاب مجملا ، وذكر أفظع أنواعه مبيّنا

وأما عطف جملة « ويستحيون نساءكم » في الآيات الثلاث فلأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب ، لأن استحياء النساء في ذاته نعمة ولكنه يصير من العذاب عند اقترانه بتذبيح الأبناء ، إذ يُعلم أن مقصودهم من استحياء النساء استرقاقهن وإهانتهن فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهن . ولذلك سمي جميع ذلك بلاء .

وأصل البلاء : الاختبار . والبلاء هنا المصيبة بالشرّ ، سمي باسم الاختبار لأنه اختبار لِمقدار الصبر ، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل . وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلاّ على المكروه . وما ورد منه مستعملا في الخير فإنما ورد بصيغة الفعل كقوله « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، وقوله « ونَبْلُوَ أخباركم » . وتقدم في نظيرها من سورة البقرة .

وجعل هذا الضر الذي لحقهم واردا من جانب الله لأن تخليّه آل فرعون لفعل ذلك وعدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله ، وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحق الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب – عليهم السلام – واتبّاعهم دين القبط وعبادة آلهتهم .

واختيار وصف الربّ هنا للإيماء إلى أنه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين كقوله « وإن عدتم عدنا » .

وهذه الآية تضمنت ما في فقرة 17 من الإصحاح 12. وفقرة 3 من الإصحاح 13 من سفر الخروج. وما في فقرة 13 من الإصحاح 26 من سفر اللاّويين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

عطف على «إذْ أنجاكم من آل فرعون» فهو من كلاَم موسى — عليْه السلام —. والتقدير: واذكروا نعمة الله عليكم إذ تأذّن ربكم لئن شكرتم الخ. لأن الجزاء عن شكر النعمة بالزيادة منها نعمةٌ وفضل من الله. لأن شكر المنعم واجب فلا يستحق جزاءً لولا سعة فضل الله. وأما قوله «ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» فجاءت به المقابلة.

ويجوز أن يعطف «وإذ تأذن» على «نعمة الله عليكم». فيكون التقدير: واذكروا إذ تأذن ربكم. على أن (إذ) منصوبة على المفعولية وليست ظرفا وذلك من استعمالاتها. وقد تقدم عند قوله تعالى في سورة الأعراف «وإذ تأذّن ربك ليَبْعثَنّ عليهم» وقوله «واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم».

ومعنى «تأذّن ربكم» تكلّم كلاما علَنا. أي كلم موسى — عليْه السلام — بما تضمنه هذا الذي في الآية بمسمع من جماعة بني إسرائيل. ولعل هذا الكلام هو الذي في الفقرات 9 ـ 20 من الإصحاح 19 من سفر الخروج. والفقرات 18، 22 من الإصحاح 20 منه، والفقرات من 20 إلى 30 من الإصحاح 23 منه.

والتأذن مبالغة في الأذان يقال: أذن وتأذّن كما يقال: توعّد وأوعد. وتفضّل وأفضل. ففي صيغة تفعّل زيادة معنى على صيغة أفْعَلَ.

وجملة «لئن شكرتم» موطئة للقسم والقسم مستعمل في التأكيد. والشكر مؤذن بالنعمة. فالمراد: شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها. ولذلك حذف مفعول «شكرتم» ومفعول «لأزيدنكم» ليقدر عامّا في الفعلين.

والكفر مراد به كفر النعمة وهو مقابلة المنعم بالعصيان . وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك ، كما أن الشكر مقابلة النعمة بإظهار العبودية والطاعة .

واستغنى بـ « إن عذابي لشديد » عن (لأعذبنكم عذابا شديدا) لكونه أعم وأوجز ، ولكون إفادة الوعيد بضرب من التعريض أوقع في النفس . والمعنى : إن عذابي لشديد لمن كفر فأنتم إذن منهم .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

أعيد فعل القول في عطف بعض كلام موسى ـ عليه السّلام ـ على بعض لئلا يتوهّم أن هذا مما تأذّن به الرب وإنما هو تنبيه على كلام الله . وفي إعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتى تبرز مستقلة وحتى يصغي إليها السامعون للقرآن.

ووجه الاهتمام بها أن أكثر الكفار يحسبون أنهم يحسنون إلى الله بإيمانهم، وأن أنبياءهم حين يلحّون عليهم بالإيمان إنما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرصَ على مصلحتهم. فلمّا وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خشي أن يحسبوا ذلك لانتقام المثيب بما أثاب عليه ، ولتضرّره مما عاقب عليه ، فنبّههم إلى هذا الخاطر الشيطاني حتى لا يسري إلى نفوسهم فيكسبهم إدْلالاً بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر .

و « أنتم » فصل بين المعطوف والمعطوف عليه إذ كان هذا المعطوف عليه ضميرا متّصلا .

و « جميعا » تأكيد لمن في الأرض للتنصيص على العموم . وتقدم نظيره ونصبه غيرَ بعيد .

والغنيّ : الذي لا حاجة له في شيء ، فدخل في عموم غناه أنه غني عن الذين يكفرون به .

والحميد : المحمود . والمعنى: أنه محمود من غيركم مستغن عن حمدكم ؛ على أنهم لو كفروا به لكانوا حامدين بلسان حالهم كرها ، فإنّ كل نعمة تنالهم فيحمدونها فإنما يحمدون الله تعالى ، كقوله تعالى « ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها » . وهذه الآية تضمنت ما في الفقرات 30 إلى 33 من الإصحاح 32 من سفر الخروج .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

هذا الكلام استئناف ابتدائيّ رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة الالتفات في قوله « ألم يأتكم » ، لأن الموجّه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيون بقوله « وويل للكافرين من عذاب شديد » ، وهم معظم المعنيّ من الناس في قوله « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ، فإنهم بعد أن أُجمل لهم الكلام في قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » الآية ، ثم فُصّل بأن ضُرب المثل للإرسال إليهم لغرض الإخراج من الظلمات إلى النور بإرسال موسى – عليْه السّلام – لإخراج قومه ، وقُضي حق ذلك عقبه بكلام جامع لأحوال الأمم ورسلهم ، فكان بمنزلة الحوصلة

والتذييل مع تمثيل حالهم بحال الأمم السالفة وتشابه عقلياتهم في حججهم الباطلة وردّ الرسل عليهم بمثل ما رَدّ به القرآن على المشركين في مواضع ؛ ثم ختم بالوعيد .

والاستفهام إنكاري لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ؛ فأما قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان ، وأما عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضا بها ، قال تعالى « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » وقال « وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » .

« والذين من بعدهم » يشمل أهل مدين وأصحابَ الرس وقومَ تُبّع وغيرَهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلا الله . وهذا كقوله تعالى « وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا » .

وجملة « لا يعلمهم إلا الله » معترضة بين « والذين من بعدهم » وبين جملة « جاءتهم رسلهم بالبينات » الواقعة حالا من « الذين من بعدهم » . وهو كناية عن الكثرة التي يستلزمها انتفاء علم الناس بهم .

ومعنى « جاءتهم رسلهم » جاءَ كلّ أمة رسولُها .

وضمائر « ردّوا » و « أيديهم » و « أفواههم » عائدٌ جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه .

وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن .

ومعنى « فردّوا أيديهم في أفواههم » يحتمل عدة وجوه أنهاهَا في الكشاف إلى سبعة وفي بعضها بُعدٌ . وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاءً لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم . وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل .

والردّ: مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه كما أشار إليه الراغب . أي وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها ثم أعادوا وضعها فتلك الإعادة ردّ .

وحرف (في) للظرفية المجازية المراد بها التمكين ، فهي بمعنى (على) كقوله « أولئك في ضلال مبين » . فمعنى « ردّوا أيديهم في أفواههم » جعلوا أيديهم على أفواههم .

وعطفه بفاء التعقيب مشير إلى أنهم بادروا بردّ أيديهم في أفواههم بفور تلقيهم دعوة رسلهم ؛ فيقتضي أن يكون ردّ الأيدي في الأفواه تمثيلا لحال المتعجب المَستهزىء ؛ فالكلام تمثيل للحالة المعتادة وليس المراد حقيقته ، لأن وقوعه خبرا عن الأمم مع اختلاف عوائدهم وإشاراتهم واختلاف الأفراد في حركاتهم عند التعجب قرينة على أنه ما أريد به إلاّ بيان عَربي .

ونظير هذا قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة « وقالوا الحمد لله الذي صدّقنا وعده وأورثنا الأرض » ، فميراث الأرض كناية عن حسن العاقبة جريا على بيان العرب عند تنافس قبائلهم أن حسن العاقبة يكون لمن أخذ أرض عدوّه .

وأكّدوا كفرهم بما جاءت به الرسل بما دلّت عليه (إنّ) وفعل المضيّ في قوله « إنّا كفرنا » . وسموا ما كفروا به مُرسلا به تهكما بالرسل ، كقوله تعالى « وقالوا يأيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون » ، فمعنى ذلك : أنهم كفروا بأن ما جاءوا به مرسل به من الله ، أي كفروا بأن الله أرسلهم . فهذا مما أيقنوا بتكذيبهم فيه .

وأما قولهم « وإنّا لفي شك ممّا تدعوننا إليه » فذلك شك في صحة ما يدعونهم إليه وسداده ؛ فهو عندهم معرض للنظر وتمييز صحيحه من سقيمه ، فمورد الشك مّا يدعونهم إليه ، ومورد التكذيب نسبة دعوتهم إلى الله . فمرادهم : أنهم وإن كانوا كاذبين في دعوى الرسالة فقد يكون في بعض ما يدعون إليه ما هو صدق وحقّ فإن الكاذب قد يقول حقّا .

وجعلوا الشك قويا فلذلك عبر عنه بأنهم مَظروفون فيه . أي هو محيط بهم ومتمكن كمال التمكن .

و « مُريب » تأكيد لمعنى « في شك » . والمريب : المُوقع في الريب . وهو مرادف الشك . فوصف الشك بالمريب من تأكيد ماهيته . كقولهم : لَيل أَلْيَل . وشِعر شَاعر .

وحذفت إحدى النونين من قوله « إنّا » تخفيفا تجنبا للثقل الناشيء من وقوع نونين آخرين بعد في قوله « تَدعوننا » اللازم ذكرهما . بخلاف آية سورة هود « وإنّنا لفي شك مما تدعُونا » إذ لم يكن موجب للتخفيف لأن المخاطب فيها بقوله « تدعونا » واحد .

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

استفهام إنكاري . ومورد الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله . فقدم متعلق الشك للاهتمام به . ولو قال : أشك في الله . لم يكن له هذا الوقع ، مثل قول القطامي :

أكفرا بعد رد الموت عني وبعدَ عطائك المائةَ الرتاعا

فكان أبلغ له لو أمكنه أن يقول : أبعد رد الموت عني كفرٌ .

وعلق اسم الجلالة بالشك ، والاسم العَلَم يدلّ على الذات . والمراد : إنكار وقوع الشك في أهم الصفات الإلهية وهي صفة التفرد بالإلهية ، أي صفة الوحدانية .

وأتبع اسم الجلالة بالوصف الدالّ على وجوده وهو وجود السماوات والأرض الدالّ على أن لهما خالقا حكيما لاستحالة صدور تلك المخلوقات

العجيبة المنتظمة عن غير فاعل مختار . وذلك معلوم بأدنى تأمل . وذلك تأييد لإنكار وقوع الشك في انفراده بالالهية لأن انفراده بالخلق يقتضي انفراده باستحقاقه عبادة مخلوقاته .

وجملة « يدعوكم » حال من اسم الجلالة . أي يدعوكم أن تنبذوا الكفر ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك ويدفع عنكم عذاب الاستئصال فيؤخّركم في الحياة إلى أجل معتاد .

والدعاء : حقيقته النداء . فأطلق على الأمر والإرشاد مجازاً لأن الآمر ينادي المأمور .

ويعدى فعل الدعاء إلى الشيء المدعو إليه بحرف الانتهاء غالبا وهو (إلى) ، نحو قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون « ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار » .

وقد يعدّى بلام التعليل داخلةً على ما جُعل سببا للدعوة فإن العلة تدل على المعلول ، كقوله تعالى « وإني كلما دعوتُهم لتغفر لهم » ، أي دعوتهم إلى سبب المغفرة لتغفر ، أي دعوتهم إلى الإيمان لتغفر لهم ، وهو في هذه الآية كذلك ، أي يدعوكم إلى التوحيد ليغفر لكم من ذنوبكم .

وقد يعدى فعل الدعوة إلى المدعو إليه باللام تنزيلا للشيء الذي يُدعى إلى الوصول إليه منزلة الشيء الذي لأجله يدعى ، كقول أعرابي من بني أسد :

دعَوْتُ لِمَا نَابني مِسْوَرا فلبّى فلبيْ يديْ مسور

﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُبِينٍ ﴾

أرادوا إفحام الرسل بقطع المجادلة النظرية ، فنفوا اختصاص الرسل بشيء زائد في صورتهم البشرية يُعلم به أن الله اصطفاهم دون غيرهم بأن جعلهم رسلا عنه ، وهؤلاء الأقوام يحسبون أن هذا أقطع لحجة الرسل لأن المماثلة بينهم وبين قومهم محسوسة لا تحتاج إلى تطويل في الاحتجاج ، فلذلك طالبوا رسلهم أن يأتوا بحجة محسوسة تثبت أن الله اختارهم للرسالة عنه ، وحسبانهم بذلك التعجيز .

فجملة « تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا » في موضع الحال ، وهي قيد لما دل عليه الحصر في جملة « إن أنتم إلا بشر مثلنا » من جحد كونهم رسلا من الله بالدّين الذي جاءوهم به مخالفا لدينهم القديم ، فبذلك الاعتبار كان موقع التفريع لجملة « فائتُونا بسلطان مبين » لأن مجرّد كونهم بشرا لا يقتضي مطالبتهم بالإتيان بسلطان مبين وإنما اقتضاه أنهم جاءوهم بإبطال دين قومهم ، وهو مضمون ما أرسلوا به .

وقد عبّروا عن دينهم بالموصولية لما تؤذن به الصلة من التنويه بدينهم بأنه متقلَّد آبائهم الذين يحسبونهم معصومين من اتّباع الباطل ، ولـلأمم تقديس لأسلافها فلذلك عدلوا عن أن يقولوا : تريدون أن تصدّونا عن ديننا .

والسلطان : الحجة . وقد تقدّم في قوله « أتجادلونني في أسماء سمّيتُموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان » في سورة الأعراف .

" . . . الواضح الذي لا احتمال فيه لغير ما دل عليه .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

قول الرسل « إن نحن إلا بشر مثلكم » جواب بطريق القول بالموجَب في علم آداب البحث . وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع ببيان محل الاستدلال غيرُ تام الإنتاج . وفيه إطماع في الموافقة . ثم كرّ على استدلالهم المقصود بالإبطال بتبيين خطئهم .

ونظيره قوله تعالى « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَن الأعزّ منها الأذلّ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وهذا النوع من القوادح في علم الجدل شديد الوقع على المناظر . فليس قول الرسل « إن نحن إلاّ بشر مثلكم » تقريرا للدليل ولكنه تمهيد لبيان غلط المستدلّ في الاستنتاج من دليله . ومحل البيان هو الاستدراك في قوله « ولكن الله يَمنّ على من يشاء من عباده » . والمعنى : أن المماثلة في البشرية لا تقتضي المماثلة في زائد عليها فالبشر كلهم عباد الله والله يمُنّ على من يشاء من عباده بنِعَم لم يعطها غيرهم .

فالاستدراك رفع لما توهموه من كون المماثلة في البشرية مقتضى الاستواء في كل خصلة .

وأورد الشيخ محمّد بن عرفة في التفسير وجها للتفرقة بين هذه الآية إذ زيد فيها كلمة (لهم) في قوله « قالت لَهم رسلهم » وبين الآية التي قبلها إذ قال فيها « قالت رسلهم » بوجهين :

أحدهما : أن هذه المقالة خاصة بالمكذّبين من قومهم يقولونها لغيرهم إذ هو جواب عن كلام صدر منهم والمقالة الأولى يقولونها لهم ولغيرهم ، أي للمصدقين والمكذبين .

وثانيهما : أن وجود الله أمر نظري . فكان كلام الرسل في شأنه خطابا لعموم قومهم . وأما بعثة الرسل فهي أمر ضروري ظاهر لا يحتاج إلى نظر ، فكأنه قال : ما قالوا هذا إلا للمكذبين لغباوتهم وجهلهم لا لغيرهم .

وأجاب الأبي أن « أفي الله شك » خطاب لمن عاند في أمر ضروري ، فكأنّ المجيب عن ذلك يجيب به من حيث الجملة ولا يُقبل بالجواب على المخاطب لمعاندته فيجيب وهو مُعْرِض عنه بخلاف قولهم « إن نحن إلا بشر مثلكم » فإنه تقرير لمقالتهم فهم يُقبلون عليهم بالجواب لأنهم لم يبطلوا كلامهم بالإطلاق بل يقررونه ويزيدون فيه اه .

والحاصل أن زيادة « لهم » تؤذن بالدلالة على توجه الرسل إلى قومهم بالجواب لما في الجواب عن كلامهم من الدقة المحتاجة إلى الاهتمام بالجواب بالإقبال عليهم إذ اللامُ الداخلة بعد فعل القول في نحو : أقول لك ، لام تعليل ، أي أقول قولي لأجلك .

ثم عطفوا على ذلك تبيين أن ما سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين ليس ذلك إليهم ولكنه بمشيئة الله وليس الله بمكرَه على إجابة من يتحداه .

وجملة « وعلى الله فليتوكّل المؤمنون » أمر لمَن آمن من قومهم بالتوكّل على الله ، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليّا لأنهم أول المؤمنين بقرينة قولهم « وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا » إلى آخره .

ولما كان حصول إذنَ الله تعالى بتأييد الرسل بالحجة المسؤولة غيرَ معلوم السيقات ولا متعيّنَ الوقوع وكانت مدة ترقب ذلك مظنة لتكذيب

الذين كفروا رسلَهم تكذيبا قاطعا وتَوَقّعَ الرسلُ أذاة قومهم إياهم شأن القاطع بكذب من زَعم أنه مرسل من الله ، ولأنهم قد بدأوهم بالأذى كما دل عليه قولهم « وَلنصبرنّ على ما آذيتمونا ». أظهر الرسل لقومهم أنهم غير غافلين عن ذلك وأنهم يتلقون ما عسى أن يواجهَهُم به المكذّبون من أذى بتوكّلهم على الله هم ومن آمن معهم ؛ فابتدأوا بأن أمروا المؤمنين بالتوكل تذكيرا لهم لئلا يتعرّض إيمانهم إلى زعزعة الشك حرصا على ثبات المؤمنين ، كقول النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – لعمر – رضي الله عنه – : « أفي شك أنتَ يابنَ الخطّاب » . وفي ذلك الأمر إيذان بأنهم لا يعبأون بما يضمره لهم الكافرون من الأذى ، كقول السحرة لفرعون حين آمنوا « لا ضَيْر إنّا إلى ربنا منقلبون » .

وتقديم المجرور في قوله « وعلى الله فليتوكّل المؤمنون » مؤذن بالحصر وأنهم لا يرجون نصرا من غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم . وفيه إيماء إلى أنهم واثقون بنصر الله .

والجملة معطوفة بالواو عطف الإنشاء على الخبر .

والفاء في قوله « فليتوكّل المؤمنون » رابطة لجملة « ليتوكّل المؤمنون » بما أفادهُ تقديم المجرور من معنى الشرط الذي يدل عليْه المقام . والتقدير : إن عجبتم من قلّة اكتراثنا بتكذيبكم أيها الكافرون . وإن خشيتم هؤلاء المُكذّبين أيها المؤمنون فليتوكل المؤمنون على الله فإنهم لن يضيرهم عدوّهم . وهذا كقوله تعالى « وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين » كما تقدم في سورة العقود .

والتوكّل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بأنه أعلم بما يصلح ، فالتوكل على الله تحقق أنه أعلم بما ينفع أولياءَه من خير الدنيا والآخرة . وقد تقدم الكلام على التوكّل عند قوله تعالى « فإذا عزمت فتوكّل على الله » في سورة آل عمران .

وجملة « وما لنا ألاّ نتوكل على الله » استدلال على صدق رأيهم في تفويض

أمرهم إلى الله . لأنهم رأوا بوارق عنايته بهم إذ هداهم إلى طرائق النجاة والخير . ومبادىء الأمور تدل على غاياتها .

وأضافوا السبل إلى ضميرهم للاختصار لأن أمور دينهم صارت معروفة لدى الجميع فجمعها قولهم « سبُلَنا » .

« وما لنا ألاّ نتوكّل » استفهام إنكاري لانتفاء توكلهم على الله . أتوا به في صورة الإنكار بناء على ما هو معروف من استحقاق الكفار إيّاهم في توكّلهم على الله . فجاءوا بإنكار نفي التوكل على الله . ومعنى « وما لنا أن لا نتوكّل » ما ثبت لنا من عدم التوكل . فاللام للاستحقاق .

وزادوا قومهم تأييسا من التأثر بالأذى فأقسموا على أن صبرهم على أذى قومهم سيستمر . فصيغة الاستقبال المستفادة من المضارع المؤكد بنون التوكيد في « لنصبرن » دلت على أذى مستقبل . ودلّت صيغة المضيّ المنتزع منها المصدر في قوله « ما آذيتمونا » على أذى مضى : فحصل من ذلك معنى نصبر على أذى متوقع كما صبرنا على أذى مضى . وهذا إيجاز بديع .

وجملة « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » يحتمل أن تكون من بقية كلام الرسل فتكون تذييلا وتأكيدا لجملة « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، فكانت تذييلا لما فيها من العموم الزائد في قوله « المتوكلون » على عموم « فليتوكل المؤمنون » . وكانت تأكيدا لأن المؤمنين من جملة المتوكلين . والمعنى : من كان متوكلا في أمره على غيره فليتوكل على الله .

ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى . فهي تذييل للقصة وتنويه بشأن المتوكلين على الله . أي لا ينبغي التوكل إلا عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّـٰلِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾

تغيير أسلوب الحكاية بطريق الإظهار دون الإضمار يؤذن بأن المراد بـ « الذين كفروا » هنا غير الكافرين الذين تقدمت الحكاية عنهم فإن الحكاية عنهم كانت بطريق الإضمار . فالظاهر عندي أن المراد بـ « الذين كفروا » هنا كفار قريش على طريقة التوجيه . وأن المراد بـ « رُسُلِهم » الرسولُ محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – . أجريت على وصفه صيغة الجمع على طريقة قوله « الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون » في سورة غافر . فإن المراد المشركون من أهل مكّة كما هو مقتضى قوله « فسوف يعلمون » وقوله « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » إلى قوله « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . فإن المراد بالرسل في الموضعين الأخيرين الرسول محمد – عليه الصلاة والسّلام – لأنه الرسول الذي أنزل معه الحديد ، أي القتال بالسيف لأهل الدعوة المكذبين ، وقوله « فكذبوا رسلي » في سورة سبا على أحد تفسيرين في المراد بهم وهو أظهرهما .

وإطلاق صيغة الجمع على الواحد مجاز : إما استعارة إن كان فيه مراعاة تشبيه الواحد بالجمع تعظيما له كما في قوله تعالى « قال رب ارجعون » .

وإما مجاز مرسل إذا روعي فيه قصد التعمية ، فعلاقته الإطلاق والتقييد . والعدول عن الحقيقة إليه لقصد التعمية .

فلا جرم أن يكون المراد بـ « الذين كفروا » هنا كفار مكة ويؤيده قوله بعد ذلك « ولَنُسْكِنَنَّكم الأرض من بعدهم » فإنه لا يعرف أن رسولا

من رسل الأمم السالفة دخل أرض مكذّبيه بعد هلاكهم وامتلكها إلاّ النبيء محمّدا ــ صلّى الله عليْه وسلّم ــ ، قال في حجّة الوداع « متزلُنا إن شاء الله غدًا بالخَيْف خَيْفَ بني كنانة حيثُ تقاسموا على الكفر » .

وعلى تقدير أن يكون المراد بـ « الذين كفروا » في هذه الآية نفس المراد من الأقوام السالفين فالإظهار في مقام الإضمار لزيادة تسجيل اتصافهم بالكفر حتى صار الخصلة التي يعرفون بها . وعلى هذا التقدير يكون المراد من الرسل ظاهرَ الجمع فيكون هذا التوعد شنشنة الأمم ويكون الإيماء إليهم به سنة الله مع رسله .

وتأكيد توعدهم بالإخراج بلام القسم ونون التوكيد ضراوة في الشر .

و (أو) لأحد الشيئين ، أقسموا على حصول أحد الأمرين لا محالة ، أحدهما من فعل المقسمين ، والآخر من فعل مَن خوطب بالقسم ، وليست هي (أو) التي بمعنى (إلى) أو بمعنى (إلاّ) .

والعود : الرجوع إلى شيء بعد مفارقته . ولم يكن أحد من الرسل متبعًا ملّة الكفر بل كانوا منعزلين عن المشركين دون تغيير عليهم . فكان المشركون يحسبونهم موافقين لهم ، وكان الرسُل يتجنبون مجتمعاتهم بدون أن يشعروا بمجانبتهم ، فلما جاءُوهم بالحق ظنّوهم قد انتقلوا من موافقتهم إلى مخالفتهم فطلبوا منهم أن يعودوا إلى ما كانوا يحسبونهم عليه .

والظرفية في قوله « في ملّتنا » مجازية مستعملة في التمكّن من التلبس بالشيء المتروك فكأنه عاد إليه .

والملّة : الدين . وقد تقدم عند قوله تعالى « دينا قيما ملّة إبراهيم حنيفا » في آخر سورة الأنعام ، وانظر قوله « فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا » في أوائل سورة آل عمران .

وتفريع جملة « فأوحى إليهم ربهم لَنُهلِكَنّ الظالمين » على قول الذين كفروا لرسلهم « لنخرجنكم من أرضنا » الخ تفريع على ما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض ؛ أي أوحى الله إلى الرسل ما يثبت به قلوبهم : وهو الوعد بإهلاك الظالمين .

وجملة « لنهلكن الظالمين » بيان لجملة « أوحى ... » .

وإسكان الأرض : التمكين منها وتخويلها إياهم ؛ كقوله « وأورثكم أرضهم وديارهم » .

والخطاب في « لنسْكنَنّكم » للرسل والذين آمنوا بهم ؛ فلا يقتضي أن يسكن الرسول بأرض عدوّه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون : كما مكن الله لرسوله مكّة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها .

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

« ذلك » إشارة إلى المذكور من الإهلاك والإسكان المأخوذين من « لنُهلكن ـ ولنسْكنَنّكم » . عاد إليهما اسم الإشارة بالإفراد بتأويل المذكور . كقوله « ومن يفعل ذلك يلق آثاما » .

واللام للملك ؛ أي ذلك عطاء وتمليك لمن خاف مقامي ، كقوله تعالى ذلك لمن خشي ربه » .

والمعنى : ذلك الوعد لمن خاف مقامي ، أي ذلك لكم لأنكم خفتم مقامي ، فعدل عن ضمير الخطاب إلى « من خاف مقامي » لدلالة الموصول على الإيماء إلى أن الصلة علة في حصول تلك العطية .

ومعنى « خاف مقامي » خافني . فلفظ « مقام » مقحم للمبالغة في تعلق الفعل بمفعوله . كقوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » . لأن المقام أصله مكان القيام . وأريد فيه بالقيام مطلق الوجود لأن الأشياء تعتبر قائمة . فإذا قيل « خاف مقامي » كان فيه من المبالغة ما ليس في (خافني) بحيث إن الخوف يتعلق بمكان المخوف منه. كما يقال: قصّر في جانبي . ومنه قوله تعالى « على ما فرطت في جنب الله » . وكل ذلك كناية عن المضاف إليه كقول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى في قُبّة ضُربت على ابن الحشرج

أي في ابن الحشرج من غير نظر إلى وجود قبة . ومنه ما في الحديث « إن الله لما خلق الرحم أخذت بساق العرش وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ». أي هذا العائذ بك القطيعة .

وخوف الله : هو خوف غضبه لأن غضب الله أمر مكروه لدى عبيده .

وعطف جملة « وخاف وعيد » على « خاف مقامي » مع إعادة فعل « خاف » دون اكتفاء بعطف « وعيدي » على « مقامي » لأن هذه الصلة وإن كان صريحها ثناء على المخاطبين فالمراد منها التعريض بالكافرين بأنهم لا يخافون وعيد الله . ولولا ذلك لكانت جملة « خاف مقامي » تغني عن هذه الجملة، فإن المشركين لم يعبأوا بوعيد الله وحسبوه عبثا. قال تعالى «ويستعجلونك بالعذاب» ؛ ولذلك لم يجمع بينهما في سورة البينة « ذلك لمن خشي ربّه ». لأنه في سياق ذكر نعيم المؤمنين خاصة .

وهذه الآية في ذكر إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم فكان المقام للفريقين . فجَمع في جزاء المؤمنين بإدماج التعريض بوعيد الكافرين. وفي الجمع بينهما دلالة على أن من حق المؤمن أن يخاف غضب ربه وأن يخاف

وعيده. والذين يخافون غضب الله ووعيده هم المتقون الصالحون. فآل معنى الآية إلى معنى الآية الأخرى «أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون».

وقرأ الجمهور «وعيد» بدون ياء وصلا ووقفا. وقرأه ورش عن نافع - بدون ياء - في الوقف وبإثباتها في الوصل. وقرأه يعقوب - بإثبات الياء - في حالي الوصل والوقف. وكل ذلك جائز في ياء المتكلم الواقعة مضافا إليها في غير النداء. وفيها في النداء لغتان أخريان.

﴿ وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

جملة «واستفتحوا» يجوز أن تكون معطوفة على جملة «فأوحى إليهم ربهم». أو معترضة بين جملة «ولنسكننّكم الأرض من بعدهم» وبين جملة «وخاب كل جبّار عنيد». والمعنى: أنهم استعجلوا النصر. وضمير «استفتحوا» عائد إلى الرسل. ويكون جملة «وخاب كل جبار عنيد» عطفا على جملة «فأوحى إليهم ربهم» الخ. أيْ فوعدهم الله النصر وخاب الذين كفروا. أي لم يتحقق توعدهم الرسل بقولهم «لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنّ في ملّتنا». ومقتضى الظاهر أن يقال: وخاب الذين كفروا. فعدل عنه إلى «كل جبّار عنيد» للتنبيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة عنداء وأن كل جبّار عنيد يخيب.

ويجوز أن تكون جملة «واستفتحوا» عطفا على جملة «وقال الذين كفروا لرسلهم» ويكون ضمير «استفتحوا» عائدا على الذين «كفروا»، أي وطلبوا النصر على رسلهم فخابوا في ذلك. ولكون في قوله «وخاب كل جبّار

عنيد » إظهار في مقام الإضمار عدل عن أن يقال : وخابوا ، إلى قوله « كل جبار عنيد » لمثل الوجه الذي ذكر آنفا .

والاستفتاح : طلب الفتح وهو النصر ، قال تعالى « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » .

والجبار : المتعاظم الشديد التكبر .

والعنيد : المعاند للحق . وتقدما في قوله « واتّبعوا أمر كل جبار عنيد » في سورة هود . والمراد بهم المشركون المتعاظمون ، فوصف « جبار » خلُق نفساني ، ووصف « عنيد » من أثر وصف « جبار » لأن العنيد المكابر المعارض للحجة .

وبين « خاف وعيد » و « خاب كل جبّار عنيد » جناس مصحف .

وقوله « من ورائه جهنم » صفة لـ « جبار عنيد » ، أي خاب الجبّار العنيد في الدنيا وليس ذلك حظه من العقاب بل وراءه عقاب الآخرة .

والوراء : مستعمل في معنى ما ينتظره ويحل به من بعد ، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول كالشيء الذي يكون من وراء المرء لا يشعر به لأنه لا يراه ، كقوله تعالى « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ، أي وهم غافلون عنه ولو ظفر بهم لافتك سفينتهم ، وقول هدبة بن خشرم :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءَه فرج قريب

وأما إطلاق الوراء على معنى (من بَعْد) فاستعمال آخر قريب من هذا وليس عينه .

والمعنى : أن جهنم تنتظره ، أي فهو صائر إليها بعد موته .

والصديد : المُهلة . أي مثل الماء يسيل من الدمل ونحوه ، وجعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء. لأن شأن الماء أن يُسْقى. والمعنى : ويسقى صديدا عوض الماء إن طلب الإسقاء ؛ ولذلك جعل « صديد » عطفَ بيان لـ « ماء » . وهذا من وجوه التشبيه البليغ .

وعطف جملة « يسقى » على جملة « من ورائه جهنم » لأن السقي من الصديد شيء زائد على نار جهنم .

والتجرع : تكلف الجرْع ، والجرع : بلع الماء .

ومعنى « يُسيغه » يفعل سوغه في حلقه . والسوغ : انحدار الشراب في الحلق بدون غصة ، وذلك إذا كان الشراب غير كريه الطعم ولا الريح ، يقال : ساغ الشراب ، وشراب سائغ . ومعنى « لا يكاد يسيغه » لا يقارب أن يسيغه فضلا عن أن يسيغه بالفعل ، كما تقدم في قوله تعالى « وما كادوا يفعلون » في سورة البقرة .

وإتيان الموت : حلوله ، أي حلول آلامه وسكراته ، قال قيس بن الخطيم :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة   لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

بقرينة قوله « وما هو بميّت » ، أي فيستريح .

والكلام على قوله « ومِن ورائه عذاب غليظ » مثل الكلام في قوله « من ورائه جهنم » ، أي ينتظره عذاب آخر بعد العذاب الذي هو فيه .

والغليظ : حقيقته الخشن الجسم ، وهو مستعمل هنا في القوة والشدة بجامع الوفرة في كل ، أي عذاب ليس بأخف مما هو فيه . وتقدم عند قوله « ونجيناهم من عذاب غليظ » في سورة هود .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَـٰلُ الْبَعِيدُ ﴾

تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة . وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق من شدة عذابهم ، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أن لهم أعمالا من الصلة والمعروف : من إطعام الفقراء ، ومن عتق رقاب ، وقرى ضيوف ، وحمالة ديات ، وفداء أسارى ، واعتمار ، ورفادة الحجيج ، فهل يجدون ثواب ذلك ؟ وأن المسلمين لما علموا أن ذلك لا ينفع الكافرين تطلبت نفوسهم وجهَ الجمع بين وجود عمل صالح وبين عدم الانتفاع به عند الحاجة إليه ، فضُرب هذا المثل لبيان ما يكشف جميع الاحتمالات .

والمثل : الحالة العجيبة ، أي حال الذين كفروا العجيبة أن أعمالهم كرماد الخ . فالمعنى : حال أعمالهم ، بقرينة الجملة المخبر عنها لأنه مهما أطلق مَثَل كذا إلا والمراد حال خاصة من أحواله يفسرها الكلام ، فهو من الإيجاز الملتزم في الكلام .

فقوله « أعمالهم » مبتدأ ثان ، و « كرمَاد » خبر عنه ، والجملة خبر عن المبتدإ الأول .

ولما جعل الخبر عن « مثَل الذين كفروا » « أعمالهم » آل الكلام إلى أن مَثَل أعمال الذين كفروا كرماد .

شبهت أعمالهم المتجمعة العديدة برماد مكدّس فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتثر وتفرق تفرقا لا يُرجى معه اجتماعُه . ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه ، والهيئة المشبهة معقولة .

ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلي . أي عاصف ريحه . كما يقال: يوم ماطر ، أي سحابه .

والرماد : ما يبقى من احتراق الحطب والفحم . والعاصف تقدم في قوله « جاءتها ريح عاصف » في سورة يونس .

ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمع ،لأن الرماد أثرٌ لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قِرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم .

وقرأ نافع وأبو جعفر « اشتدت به الرياح » . وقرأه البقية « اشتدت به الرّيح » بالإفراد . وهما سواء لأن التعريف تعريف الجنس .

وجملة « لا يقدرون مما كسبوا على شيء » بيان لجملة التشبيه . أي ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها.

وجملة « ذلك هو الضلال البعيد » تذييل جامع لخلاصة حالهم . وهي أنها ضلال بعيد .

والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيتُه . أي بعيد في مسافات الضلال. فهو كقولك : أقصى الضلال أو جِدّ ضَلال . وقد تقدم في قوله تعالى « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » في سورة النساء .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

استئناف بيانيّ ناشيء عن جملة « فأوحى إليهم ربّهم لنُهلِكَنّ الظالمين » فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمرة أمر عجيب يثير في النفوس السؤال :

كيف تهلك فئة مثل هؤلاء ؟ فيجاب بأن الله الذي قدر على خلق السماوات والأرض في عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونها، فمبدأ الاستئناف هو قوله « إن يشأْ يذهبكم ويأت بخلق جديد » .

وموقع جملة « ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق » موقع التعليل لجملة الاستئناف ، قدم عليها كما تجعل النتيجة مقدّمة في الخطابة والجدال على دليلها . وقد بيناه في كتاب أصول الخطابة .

ومناسبة موقع هذا الاستئناف ما سبقه من تفرق الرماد في يوم عاصف .

والخطاب في « ألم تر » لكلّ من يصلح للخطاب غير معيّن، وكل مَن يظن به التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين .

والرؤية : مستعملة في العلم الناشىء عن النظر والتأمل ، لأن السماوات والأرض مشاهدة لكل ناظر ، وأما كونها مخلوقة لله فمحتاج إلى أقل تأمل لسهولة الانتقال من المشاهدة إلى العلم ، وأما كون ذلك ملتبسا بالحق فمحتاج إلى تأمل عميق . فلمّا كان أصل ذلك كله رؤية المخلوقات المذكورة علق الاستدلال على الرؤية، كقوله تعالى « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض » .

والحق هنا : الحكمة ، أي ضد العبث ، بدليل مقابلته به في قوله تعالى « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وقرأ الجمهور « خَلَقَ » بصيغة الفعل على أن « السماوات » مفعوله « والأرض » عطف على المفعول بالنصب .

وقرأه حمزة ، والكسائيّ ، وخلَف « خَالِقُ السّماواتِ والأرض » بصيغة اسم الفاعل مضافا إلى « السّماوات » وبخفض « الأرض » .

والخطاب في « يذهبكم » لجماعة من جملتهم المخاطب بـ « ألم تر » . والمقصود : التعريض بالمشركين خاصة. تأكيداً لوعيدهم الذي اقتضاه قوله « لنُهلِكَنّ الظالمين ولنُسكِنَنّكم الأرض من بعدهم » ، أي إن شاء أعدم الناس كلهم وخلق ناسا آخرين .

وقد جيء في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدماجا للتعليم بالوعيد وإظهارا لعظيم القدرة . وفيه إيماء إلى أنه يذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين ليمكنهم من الأرض .

وجملة « وما ذلك على الله بعزيز » عطف على جملة « إن يشأ يُذهِبْكم » مؤكد لمضمونها ، وإنّما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكّد في الجملة بأنه يفيد أن هذا المَشيء سهل عليه هين ، كقوله « وهو الذي يبدأ الخلقَ ثم يعيدُه وهو أهْوَنُ عليه » .

والعزيز على أحدٍ : المتعاصي عليه الممتنع بقوته وأنصاره.

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

عطف على جملة « إنْ يشأ يُذهبكم » باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب ، وفي الكلام محذوف ، إذ التقدير : فأذْهبهم وبرزوا لله جميعا ، أي يوم القيامة .

وكان مقتضى الظاهر أن يقول : ويبرزون لله ، فعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع ، مثل قوله تعالى « أتى أمر الله » .

والبروز : الخروج من مكان حاجب من بيت أو قرية. والمعنى : حشروا من القبور.

و « جميعا » تأكيد ليشمل جميعهم من سادة ولفيفٍ .

وقد جيء في هذه الآية بوصف حال الفرق يوم القيامة ، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم ، ومجادلة الجميع للشيطان ، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بنُزل الكرامة . والغرض من ذلك تنبيه الناس إلى تدارك شأنهم قبل الفوات . فالمقصود : التحذير مما يفضي إلى سوء المصير .

واللام الجارة لاسم الجلالة معدية فعل « برزوا » إلى المجرور . يقال : برز لفلان ، إذا ظهر له ، أي حضر بين يديه . كما يقال : ظهر له .

والضعفاء : عوامّ الناس والأتباع . والذين استكبروا : السادة، لأنهم يتكبرون على العموم وكان التكبر شعار السادة . والسين والتاء للمبالغة في الكبر . والتَبَع : اسم جمع التابع مثل الخَدَم والخَوَل ، والفاء لتفريع الاستكبار على التبعية لأنها سبب يقتضي الشفاعة لهم .

وموجب تقديم المسند إليه على المسند في « فهل أنتم مُغْنون عنّا » أن المستفهم عنه هو كون المستكبرين يغنون عنهم لا أصل الغَنَاء عنهم ، لأنهم آيسون منه لما رأوا آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم . كما تدلّ عليه حكاية قول المستكبرين « سواءٌ علينا أجزعْنا أمْ صبرْنا ما لنا من محيص » ، فعلموا أنهم قد غرُّوهم في الدنيا ، فتعيّن أن الاستفهام مستعمل في التورّك والتوبيخ والتبكيت ، أي فأظهروا مكانتكم عند الله التي كنتم تدعونها وتغروننا بها في الدنيا . فإيلاء المسند إليه حرف الاستفهام قرينة على أنه استفهام غير حقيقي ، وبيّنه ما في نظيره من سورة غافر « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعًا فهلْ أنتم مُغنون عنّا نصيبًا من النار قال الذين استكبروا إنا كُلٌّ فيها إنّ الله قد حَكَم بين العباد » .

و (مِنْ) في قوله « مِن عذاب الله » بدلية ، أي غناء بدلا عن عذاب الله .

و(مِنْ) في قولـه « من شيء » مزيـدة لـوقـوع مدخـولهـا في سيـاق الاستفهـام بحرف هل . و« شيء » في معنى المصدر . وحقه النصب على أنه مفعول مطلق فوقع جرّه بحرف الجر الزائـد . والمعنى : هل تغنـون عـنـا شيئـا .

وجواب المستـكبريـن اعتـذار عن تغريـرهم بـأنهم ما قصدوا بـه تـوريط أتباعهم كيف وقد ورّطوا أنفسهم أيضا . أي لـو كنـا نـافعين لنفعنا أنفسنـا . وهذا الجـواب جـار على معنى الاستفهـام التوبيخي العتـابي إذ لم يجيبـوهم بـأنـا لا نملك لـكم غنـاء ولـكن ابتدأوا بـالاعتـذار عما صدر منهم نحوهم في الدنيا علمـا بـأن الضعفـاء عـالمـون بـأنهم لا يملكون لهم غَنَـاء من العذاب .

وجملة « سواء علينـا أجزعنـا أم صبرْنـا » من كلام الذين استـكبروا . وهي مستـأنفـة تبيين عن سؤال من الضعفـاء يستفتـون المستـكبرين أيصبرون أم يجزعـون تطلبا للخلاص من العذاب ، فأرادوا تأييسهم من ذلك يقولون : لا يفيدنا جزع ولا صبر، فلا نجاة من العذاب. فضمير المتكلم المشارك شامل للمتكلمين والمجابين، جمعـوا أنفسهم إتمـامـا لـلاعتذار عن توريطهم .

والجزع : حزن مشوب بـاضطراب . والصبر تقـدم .

وجملة « مـا لنـا من محيص » واقعة موقع التعليل لمعنى الاستـواء ، أي حيث لا محيص ولا نجـاة فسواء الجَزَع والصبر .

والمحيص : مصدر ميمي كـالمغيب والمشيب وهو النجـاة . يقـال : حـاص عنه ، أي نجا منـه . ويجـوز أن يـكون اسمَ مـكان من حاص أيضا، أي ما لنا ملجـأ ومـكـان نَنْجـو فيـه .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾

إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة وهو الشيطان : إما لأنهم بعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم بالحرمان من الهدى علموا أن سبب إضلالهم هو الشيطان لأن نفي الاهتداء يرادفه الضلال ، وإما لأن المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم ، وكل ذلك بعلم يقع في نفوسهم كالوجدان . على أن قوله « فلا تلوموني » يظهر منه أنه توجه إليه ملام صريح ، ويحتمل أنه توقّعه فدفعه قبل وقوعه وأنه يتوجه إليه بطريقة التعريض ، فجملة « وقال الشيطان » عطف على جملة « فقال الضعفاء » .

والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه لأن هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضماره الشرّ لهم فيما وعدهم في الدنيا ممّا شأنه أن يستفز غضبهم من كيده لهم وسخريته بهم ، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قِبَله . وذلك أصل عظيم في الموعظة والتربية .

ومعنى « قُضي الأمر » تُمّم الشأن ، أي إذن الله وحكمه . ومعنى إتمامه : ظهوره ، وهو أمره تعالى بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية ، قال تعالى « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » ، وذلك بتوجيه كل فريق إلى مقره الذي استحقه بعمله ؛ فيتصدى الشيطان للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلهم معه في تبعة ضلالهم . وقد أنطقه الله بذلك لإعلان الحق ، وشهادة عليهم بأن لهم كسبا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحق . فهذا

شبيه شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقولها لهم « أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » إظهارا للحقيقة وتسجيلا على أهل الضلالة وقمعا لسفسطتهم .

وأخبر الله بهذا الناس استقصاء في الإبلاغ ليحيط الناس علما بكل ما سيحل بهم . وإيقاظا لهم ليتأملوا الحقائق الخفية فتصبح بيّنة واضحة . فقول الشيطان « فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » إبطال لإفراده باللّوم أو لابتداء توجيه الملام إليه في حين أنهم أجدر باللّوم أو بابتداء توجيهه .

وأما وقع كلام الشيطان من نفوس الذين خاطبهم فهو موقع الحسرة من نفوسهم زيادة في عذاب النفس .

وإضافة « وعْد » إلى « الحق » من إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف . أي الوعد الحق الذي لا نقض له .

والحق : هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به . وضده : الإخلاف ، ولذلك قال « ووعدتُكُم فأخلفتُكُم » ، أي كذبتُ موعدي . وشمل وعد الحق جميع ما وعدهم الله بالقرآن على لسان رسوله – عليْه الصلاة والسّلام – . وشمل الخُلْف جميعَ ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه وما يعدهم إلا غرورا .

والسلطان : اسم مصدر تسلط عليه ، أي غلبه وقهره ، أي لم أكن مجبرا لكم على اتباعي فيما أمرتكم .

والاستثناء في « إلاّ أن دعوتكم » استثناء منقطع لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله . فالمعنى : لكني دعوتكم فاستجبتم لي .

وتفرع على ذلك « فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » . والمقصود : لوموا أنفسكم ، أي إذ قبلتم إشارتي ودعوتي . وقد تقدم بيانه صدْرَ الكلام على الآية .

ومجموع الجملتين يفيد معنى القصر، كأنه قال: فلا تلوموا إلاّ أنفسكم، وهو في معنى قصر قلب بالنسبة إلى إفراده باللّوم وحقهم التشريك فقلب اعتقادهم إفراده دون اعتبار الشركة ، وهذا من نادر معاني القصر الإضافي ، وهو مبني على اعتبار أجدر الطرفين بالرد، وهو طرف اعتقاد العكس بحيث صار التشريك كالملغى لأن الحظ الأوفر لأحد الشريكين .

وجملة « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » ، بيان لجملة النهي عن لَومه لأن لومه فيه تعريض بأنهم يتطلبون منه حيلة لنجاتهم ، فنفى ذلك عن نفسه بعد أن نهاهم عن أن يلوموه .

والإصراخ : الإغاثة ، اشتق من الصُراخ لأن المستغيث يصرخ بأعلى صوته ، فقيل : أصرخه، إذا أجاب صُراخه ، كما قالوا : أعتبه. إذا قبل استعتابه . وأما عطف « وما أنتم بمصرخي » فالمقصود منه استقصاء عدم غناء أحدهما عن الآخر .

وقرأ الجمهور « بِمُصْرِخِيَّ » بفتح التحتية مشددةً . وأصله بمصرخِيِيَ بياءين: أولاهما ياء جمع المذكر المجرور ، وثانيتهما ياء المتكلم ، وحقها السكون فلما التقت الياءان ساكنتين وقع التخلص من التقاء الساكنين بالفتحة لخفة الفتحة .

وقرأ حمزة وخلَف « بِمُصْرِخيِّ » – بكسر الياء – تخلّصا من التقاء الساكنين بالكسرة لأن الكسر هو أصل التخلص من التقاء الساكنين . قال الفراء : تحريك الياء بالكسر لأنه الأصل في التخلص من التقاء الساكنين ، إلاّ أن كسر ياء المتكلم في مثله نادر . وأنشد في تنظير هذا التخلص بالكسر قول الأغلب العِجْلي :

قال لها هل لكِ يا تَا فيِّ قالت له : ما أنتَ بالمرضيِّ

أراد هل لكِ فيّ يا هذه . وقال أبو علي الفارسي : زعم قطرب أنها لغة بني يربوع . وعن أبي عمرو بن العلاء أنه أجاز الكسر . واتفق الجميع على أن التخلص بالفتحة في مثله أشهر من التخلص بالكسرة وإن كان التخلص بالكسرة

هو القياس ، وقد أثبته سند قراءة حمزة . وقد تحامل عليه الزجاج وتبعه الزمخشري وسبقهما في ذلك أبو عُبيد والأخفش بن سعيد وابن النحاس ولم يطلع الزجاج والزمخشري على نسبة ذلك البيت للأغلب العِجلي .

والذي يظهر لي أن هذه القراءة قرأ بها بنو يَربوع من تميم ، وبنو عِجل ابن لُجيم من بكر بن وائل، فقرأوا بلهجتهم أخذا بالرخصة للقبائل أن يقرأوا القرآن بلهجاتهم وهي الرخصة التي أشار إليها قول النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » ، كما تقدم في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير، ثم نسخت تلك الرخصة بقراءة النبيء – – صلّى الله عليْه وسلّم – في الأعوام الأخيرة من حياته المباركة ولم يثبت ما ينسخها في هذه الآية . واستقر الأمر على قبول كل قراءة صح سندها ووافقت وجها في العربية ولم تخالف رسم المصحف الإمام . وهذه الشروط متوفرة في قراءة حمزة هذه كما علمت آنفا فقصارى أمرها أنها تتنزل منزلة ما ينطق به أحد فصحاء العرب على لغة بعض قبائلها بحيث لو قرىء بها في الصلاة لصحت عند مالك وأصحابه .

وجملة « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » استئنافُ تَنَصُّل آخر من تبعات عبادتهم إياه قصد منه دفع زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع لله تعالى . وأراد بقوله « كفرتُ » شدة التبرّي من إشراكهم إياه في العبادة، فإن أراد من مضي فعل « كفرت » مضيّ الأزمنة كلها ، أي كنت غير راض بإشراككم إياي فهو كذب منه أظهر به التذلل ؛ وإن كان مراده من المضي إنشاء عدم الرضى بإشراكهم إياه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يقبل متاب. و « من قبل » على التقديرين متعلق بـ « أشركتمون » .

والإشراك الذي كفر به إشراكهم إياه في العبادة بأن عبدوه مع الله لأن من المشركين من يعبدون الشياطين والجن ، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة ، ومنهممن يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته .

وجملة « إنَّ الظّالمين لَهم عَذَابٌ أليم » من الكلام المحكي عن الشيطان . وهي في موقع التعليل لما تقدم من قوله « ما أنا بمصرخكم » ، أي لأنه لا يدفع عنكم العذاب دافع فهو واقع بكم .

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾

عطف على جملة « وبرزوا لله جميعا » . وهو انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين لأن حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهارا لتفاوت الأحوال ، فلم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيها لهم عن الخوض في تلك الغمرة ، مع التنبيه على أنهم حينئذ في سلامة ودعة .

ويجوز جعل الواو للحال ، أي برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان إلخ وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ، فيكون إشارة إلى أنهم فازوا بنزل الكرامة من أول وهلة .

وقوله « بإذْن ربهم » إشارة إلى العناية والاهتمام ، فهو إذن أخص من أمر القضاء العام .

وقوله « تحيتهم فيها سلام » تقدم نظيره في أول سورة يونس .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ

حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ
مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾

استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية ابتداء من قوله تعالى « وبرزوا لله جميعا — إلى قوله — تحيتهم فيها سلام » . فضرب الله مثلا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك . فقوله « ألم تر كيف ضرب الله مثلا » إيقاظ للذهن ليترقب ما يرد بعد هذا الكلام ، وذلك مثل قولهم : ألم تعلم . ولم يكن هذا المثَل مما سبق ضربه قبل نزول الآية بل الآية هي التي جاءت به ، فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل . وصوغ التشويق إليه في صيغة الزمن الماضي الدال عليها حرف (لَمْ) التي هي لنفي الفعل في الزمن الماضي والدالّ عليها فعل « ضرب » بصيغة الماضي لقصد الزيادة في التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به .

والاستفهام في « ألم تر » إنكاري. نُزّل المخاطب منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم ، أو هو مستعمل في التعجيب من عدم العلم بذلك مع أنه مما تتوفر الدواعي على علمه. أو هو للتقرير . ومثله في التقرير كثير ، وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك .

والخطاب لكل من يصلح للخطاب . والرؤية علمية معلّق فعلها عن العمل بما وليها من الاستفهام بـ (كيف) . وإيثار (كيف) هنا للدلالة على أن حالة ضرب هذا المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه .

وتقدم المثَل في قوله « مثَلهم كمثل الذي استوقد نارا » في سورة البقرة .

وضَرْب المثل : نَظْم تركيبه الدال على تشبيه الحالة . وتقدم عند قوله « أنْ يضرب مثلاً ما » في سورة البقرة .

وإسناد « ضَرَب » إلى اسم الجلالة لأن الله أوحى به إلى رسوله — عليْه الصلاة والسّلام — .

والمثَل لما كان معنى متضمنا عدة أشياء صح الاقتصار في تعليق فعل « ضرب » به على وجه إجمال يفسره قوله « كلمة طيبة كشجرة » إلى آخره ، فانتصب « كلمةً » على البدلية من « مثلاً » بدلَ مفصّل من مجمل ؛ لأن المثل يتعلق بها لما تدل عليه الإضافة في نظيره في قوله « ومثل كلمة خبيثة » .

والكلمة الطيبة قيل : هي كلمة الاسلام ، وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والكلمة الخبيثة : كلمة الشرك .

والطيبة : النافعة. استعير الطيب للنفع لحُسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكية . وتقدم عند قوله تعالى « وجريْنَ بهم بريح طيبة » في سورة يونس .

والفَرع : ما امتد من الشيء وعَلا ، مشتق من الافتراع وهو الاعتلاء . وفرع الشجرة : غصنها ، وأصل الشجرة : جذرها .

والسماء : مستعمل في الارتفاع ، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر .

والأُكُل — بضم الهمزة — المأكول ، وإضافته إلى ضمير الشجرة على معنى اللام. وتقدم عند قوله « ونُفضّل بعضها على بعض في الأكل » في سورة الرعد .

فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحسّ والفرح في النفس ، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رُسوخ الأصل، وجمال المنظر. ونماء أغصان الأشجار. ووفرة الثمار. ومتعة أكلها. وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى . وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلا لجمع التشبيه وتفريقه .

وكذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضد بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد . وضيق الصدر ، وكدر

التفكير ، والضر المتعاقب. وقد اختصر فيها التمثيل اختصارا اكتفاءً بالمضاد ، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيّبة .

وفي جامع الترمذي عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — عن رسول الله — صلّى الله عليْه وسلّم — قال « مثل كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذْن ربها » قال : هي النخلة . « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار » قال : هي الحَنْظَل .

وجملة « اجْتُثّتْ من فوق الأرض » صفة لـ « شجرة خبيثة » لأن الناس لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها . والاجتثاث : قطع الشيء كلّه ، مشتق من الجُثّة وهي الذات. و« من فوق الأرض » تصوير لـ « اجتثت » . وهذا مقابل قوله في صفة الشجرة الطيبة « أصلها ثابت وفرعها في السماء » .

وجملة « ما لها من قرار » تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن الاجتثاث من انعدام القرار .

والأظهر أن المراد بالكلمة الطيّبة القرآن وإرشاده ، وبالكلمة الخبيثة تعاليم أهل الشرك وعقائدهم ، فـ (الكلمة) في الموضعين مطلقة على القول والكلام. كما دل عليه قوله « يُثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » . والمقصود معَ التمثيل إظهارُ المقابلة بين الحالين إلا أن الغرض في هذا المقام بتمثيل كل حالة على حدة بخلاف ما يأتي عند قوله تعالى في سورة النحْل « ضرب الله مثَلا عبدًا مملوكا — إلى قوله — ومن رزقناه منّا رزقا حسنا » ، فانظر بيانه هنالك .

وجملة « ويضرب الله الأمثال للناس » معترضة بين الجملتين المتعاطفتين . والواو واو الاعتراض . ومعنى (لعل) رجاء تذكرهم ، أي تهيئة التذكر لهم ، وقد مضت نظائرها .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عما أثاره تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الثابتة الأصل بأن يسأل عن الثبات المشبه به : ما هو أثره في الحالة المشبهة ؟ فيجاب بأنّ ذلك الثبات ظهر في قلوب أصحاب الحالة المشبهة وهم الذين آمنوا إذ ثبتوا على الدين ولم يتزعزعوا فيه لأنهم استثمروا من شجرة أصلها ثابت .

والقول : الكلام . والثابت : الصادق الذي لا شك فيه . والمراد به أقوال القرآن لأنها صادقة المعاني واضحة الدليل . فالتعريف في « القول » لاستغراق الأقوال الثابتة . والباء في « بالقول » للسببية .

ومعنى تثبيت الذين آمنوا بها أن الله يسّر لهم فهم الأقوال الإلهية على وجهها وإدراك دلائلها حتى اطمأنت إليها قلوبهم ولم يخامرهم فيها شك فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين وعاملين بها غير مترددين .

وذلك في الحياة الدنيا ظاهر، وأما في الآخرة فبإلفائهم الأحوال على نحو ما علموه في الدنيا ، فلم تعترهم ندامة ولا لهف. ويكون ذلك بمظاهر كثيرة يَظهر فيها ثباتهم بالحق قولا وانسياقا ، وتظهر فيها فتنة غير المؤمنين في الأحوال كلها .

وتفسير ذلك بمقابلته بقوله « ويضلّ الله الظالمين » . أي المشركين ، أي يجعلهم في حيرة وعَماية في الدنيا وفي الآخرة . والضلال : اضطراب وارتباك ، فهو الأثر المناسب لسببه ، أعني الكلمة التي اجتثت من فوق الأرض كما دلت عليه المقابلة .

والظالمون : المشركون . قال تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » .

ومن مظاهر هذا التثبيت فيهما ما ورد من وصف فتنة سؤال القبر . روى البخاريّ والترمذيّ عن البَرَاء بن عازب أن رسول الله - صلّى الله عليْه وسلّم - قال : « المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدا رسول الله » فذلك قوله تعالى « يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

وجملة « ويفعل الله ما يشاء » كالتذييل لما قبلها . وتحت إبهام « ما يشاء » وعمومه مطاوٍ كثيرة : من ارتباط ذلك بمراتب النفوس . وصفاء النيات في تطلب الإرشاد ، وتربية ذلك في النفوس بنمائه في الخير والشر حتى تبلغ بذور تيْنك الشجرتين منتهى أمدهما من ارتفاع في السماء واجتثاث من فوق الأرض المعبر عنهما بالتثبيت والإضلال . وفي كل تلك الأحوال مراتب ودرجات لا تبلغ عقول البشر تفصيلها .

وإظهار اسم الجلالة في « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » لِقصد أن تكون كل جملة من الجمل الثلاث مستقلة بدلالتها حتى تسير مسير المثَل .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾

أعقب تمثيل الدينين ببيان آثارهما في أصحابهما . وابتُدىء بذكر أحوال المشركين لأنها أعجب والعبرة بها أولى والحذر منها مقدّم على التحلي بضدها ، ثم أعقب بذكر أحوال المؤمنين بقوله « قل لعبادي الذين آمنوا » الخ .

والاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ذلك .

والرؤية : هنا بصرية لأن متعلقها مما يرى ، ولأنّ تعدية فعلها بـ (الى) يرجح ذلك ؛ كما في قوله « ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه » .

وقد نزل المخاطب منزلة من لم يـر . والخطاب لمن يصح منه النظر إلى حال هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله مع وضوح حالهم .

والكفر : كفران النعمة ، وهو ضد الشكر ، والإشراك بالله من كفران نعمته .

وفي قوله « بدلوا نعمة الله كفرا » محسن الاحتباك . وتقدير الكلام : بدلوا نعمة الله وشُكرَها كفرًا بها ونقمةً منه ، كما دل عليه قوله « وأحلّوا قومهم دار البوار » الخ .

واستعير التبديل لوضع الشيء في الموضع الذي يستحقه شيء آخر، لأنه يشبه تبديل الذات بالذات .

والذين بدلوا هذا التبديل فريق معروفون . بقرينة قوله « ألم تر إلى الذين »، وهم الذين تلقوا الكلمة الخبيثة من الشيطان، أي كلمة الشرك ، وهم الذين استكبروا من مشركي أهل مكة فكابروا دعوة الإسلام وكذّبوا النبيء — صلّى الله عليْه وسلّم — . وشرّدوا من استطاعوا ، وتسبّبوا في إحلال قومهم دار البوار ، فإسناد فعل « أحلوا » إليهم على طريقة المجاز العقلي .

ونعمة الله التي بدّلوها هي نعمة أنْ بوّأهُم حرمه ، وأمنهم في سفرهم وإقامتهم ، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، وسلّمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان ، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة . ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه — صلّى الله عليهم جميعا — وهداهم إلى الحق ، وهيّأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة ، فبدّلوا شكر ذلك بالكفر به . فنعمة الله الكبرى هي رسالة محمّد — صلّى الله عليْه وسلّم — ، ودعوة إبراهيم وبنيّته — عليهم السّلام — .

وقومهم : هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتى ماتوا كفارا ، فهم أحق بأن يضافوا إليهم .

والبوار : الهلاك والخسران . وداره : محله الذي وقع فيه .

والإحلال بها : الإنزال فيها . والمراد بالإحلال التسبب فيه ، أي كانوا سببا لحلول قومهم بدار البوار . وهي جهنم في الآخرة . ومواقع القتل والخزي في الدنيا مثل : موقع بدر . فيجوز أن يكون «دار البوار» جهنّم ، وبه فسر علي وابن عبّاس وكثير من العلماء . ويجوز أن تكون أرض بدر وهو رواية عن علي وعن ابن عبّاس .

واستعمال صيغة المضي في « أحلوا » لقصد التحقيق لأن الإحلال متأخر زمنه فإن السورة مكّية .

والمراد بـ « الذين بدلوا نعمة الله وأحلوا قومهم دار البوار » صناديد المشركين من قريش. فعلى تفسير « دار البوار » بدار البوار في الآخرة يكون قوله « جهنم » بدلا من « دار البوار » وجملة « يصْلَوْنها » حالا من « جهنم »، فتخص « دار البوار » بأعظم أفرادها وهو النار ، ويجعل ذلك من ذكر بعض الأفراد لأهميته .

وعلى تفسير « دار البوار » بأرض بدر يكون قوله « جهنم يصلونها » جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا . وانتصابُ جهنم على أنه مفعول لفعل محذوف يدل عليه فعل « يصلونها » على طريقة الاشتغال .

وما يروون عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وعن عليّ — كرّم الله وجهه — أن « الذين بدلوا نعمة الله كفرا » هم الأفجران من قريش: بَنُو أميّة وبنو المغيرة بن مخزوم ، قال : فأما بنو أميّة فمُتّعوا إلى حين وأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر » . فلا أحسبه إلا من وضع بعض المغرضين المضادين لبني أميّة . وفي روايات عن عليّ — كرّم الله وجهه — أنه قال : هم كفار قريش ، ولا يريد عمر ولا علي — رضي الله عنهما — من أسلموا من بني أميّة فإن ذلك لا يقوله مسلم فاحذروا الأفهام الخطئة . وكذا ما روي عن ابن عباس :

أنهم جبَلة بن الأيهم ومن اتبعوه من العرب الذين تنصّروا في زمن عُمر وحلّوا ببلاد الروم ، فإذا صح عنه فكلامه على معنى التنظير والتمثيل وإلا فكيف يكون هو المراد من الآية وإنما حدث ذلك في خلافة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – .

وجملة « وبئس القرار » عطف على جملة « يصلونها » ، أو حال من « جهنم » . والتقدير : وبئس القرار هي .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

عطف على « بدلوا » و « أحلوا »، فالضمير راجع إلى « الذين » وهم أئمة الشرك . والجعل يصدق باختراع ذلك كما فعل عمرو بن لُحي وهو من خُزاعة . ويصدق بتقرير ذلك ونشره والاحتجاج له ، مثل وضع أهل مكّة الأصنام في الكعبة ووضع هُبل على سطحها .

والأنداد : جمع نِدّ بكسر النون ، وهو المماثل في مجد ورفعة ، وتقدم عند قوله تعالى « فلا تجعلوا لله أندادا » في سورة البقرة .

وقرأ الجمهور « ليُضلّوا » – بضم الياء التحتية – من أضل غيره إذا جعله ضالاّ ، فجعل الإضلال علة لجعلهم لله أندادا ، وإن كانوا لم يقصدوا تضليل الناس وإنما قصدوا مقاصد هي مساوية للتضليل لأنها أوقعت الناس في الضلال ، فعبّر على مساوي التضليل بالتضليل لأنه آيل إليه وإن لم يقصدوه ، فكأنه قيل : للضلال عن سبيله ، تشنيعا عليهم بغاية فعلهم وهم ما أضلوا إلا وقد ضَلّوا ، فعلم أنهم ضلوا وأضلوا ، وذلك إيجاز .

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورُويْس عن يعقوب « ليَضلّو » – بفتح الياء – والمعنى : ليستمر ضلالهم فإنهم حين جعلوا الأنداد كان ضلالهم حاصلا في

زمن الحال . ومعنى لام التعليل أن تكون مستقبلة لأنها بتقدير (أن) المصدرية بعد لام التعليل .

ويعلم أنهم أضلوا الناس من قوله « واحلّوا قومهم دار البوار » .

وسبيل الله : كلّ عمل يجري على ما يرضي الله . شبه العمل بالطريق الموصلة إلى المحلة ، وقد تقدم غير مرة .

وجملة « قل تمتعوا » مستأنفة استئنافا بيانيا لأن المخاطب بـ « ألم تر إلى الذين بدلوا » إذا علم هذه الأحوال يتساءل عن الجزاء المناسب لجرمهم وكيف تركهم الله يرفلون في النعيم . فأجيب بأنهم يصيرون إلى النار ، أي يموتون فيصيرون إلى العذاب .

وأُمر بأن يبلغهم ذلك لأنهم كانوا يزدهون بأنهم في تنعم وسيادة، وهذا كقوله « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » في سورة آل عمران .

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴾

استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقّت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله ، وهو الفريق الذي حقت عليه الكلمة الطيّبة . فلما ابتدىء بالفريق الأول لقصد الموعظة والتخلي ثُنّي بالفريق الثاني على طريقة الاعتراض بين أغراض الكلام كما سيأتي في الآية عقبها .

ونظيره قوله تعالى في سورة الإسراء « وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا إنّا لمبعوثون خلقا جديدا قُل كونوا حجارة — إلى أن قال — وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » .

ولما كانوا متحلّين بالكمال صِيغَ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان ، وبصيغة الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك ، فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين .

ولما كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعيّن أن المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأن المضارع دالّ على التجدّد ، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (افعل) فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسا به ، فأصل « يقيموا الصلاة » ليقيموا، فحذفت لام الأمر تخفيفا .

وهذه هي نكتة ورود مثل هذا التركيب في مواضع وروده ، كما في هذه الآية وفي قوله « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » في سورة الإسراء ، أي قل لهم ليقيموا وليقولوا ، فحكي بالمعنى .

وعندي : أن منه قوله تعالى « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » في سورة الحجر ، أي ذرهم ليأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل . فهو أمر مستعمل في الإملاء والتهديد ، ولذلك نوقن بأن الأفعال هذه معمولة للام أمر محذوفة . وهذا قول الكسائي إذا وقع الفعل المجزوم بلام الأمر محذوفة بعد تقدم فعل (قل) ، كما في مغني اللبيب ووافقه ابن مالك في شرح الكافية . وقال بعضهم : جزم الفعل المضارع في جواب الأمر بـ (قل) على تقدير فعل محذوف هو المقول دل عليه ما بعده . والتقدير : قل لعبادي أقيموا يقيموا وأنفقوا ينفقوا . وقال الكسائي وابن مالك إن ذلك خاص بما يقع بعد الأمر بالقول كما في هذه الآية ، وفاتهم نحو آية « ذرهم يأكلوا ويتمتّعوا » .

وزيادة « ممّا رزقناهم » للتذكير بالنعمة تحريضا على الإنفاق ليكون شكرا للنعمة .

و « سرّا وعلانية » حالان من ضمير « ينفقوا » . وهما مصدران . وقد تقدم عند قوله تعالى « سرّا وعلانية » في سورة البقرة . والمقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق لكيلا يظنّوا أن الإعلان يجر إلى الرياء كما كان حال الجاهلية ، أو أن الإنفاق سرّا يفضي إلى إخفاء الغني نعمة الله فيجر إلى كفران النعمة. فربما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل نفع كثير وثواب جزيل ، فبين الله للناس أن الإنفاق بِرّ لا يكدّره ما يحف به من الأحوال ، «وإنما الأعمال بالنيات» . وقد تقدم شيء من هذا عند قوله « الذين يلْمِزون المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم » الآية .

وقيل المقصود من السر الإنفاق المتطوع به ، ومن العلانية الإنفاق الواجب .

وتقديم السر على العلانية تنبيه على أنه أولى الحالين لبعده عن خواطر الرياء ، ولأن فيه استبقاءً لبعض حياء المتصدّق عليه .

وقوله « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه » الخ متعلق بفعل « يقيموا الصلاة وينفقوا » ، أي ليفعلوا ذينك الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذر فيه المعاوضات والإنفاق . وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنّون أن يكونوا ازدادوا من ذينك لما يسرهم من ثوابهما. فلا يجدون سبيلا للاستزادة منهما، إذ لا بيعَ يومئذ فيُشترى الثواب ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف بالثواب . فالمراد بالبيع المعاوضة وبالخلال الكناية عن التبرع .

ونظيره قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » في سورة البقرة .

وبهذا تبين أن المراد من الخلال هنا آثارها ، بقرينة المقام ، وليس المراد نفي الخلة ، أي الصحبة والمودّة لأن المودّة ثابتة بين المتقين. قال تعالى « الأخلاّء

يومئذ بعضُهم لبعض عدوّ إلا المتّقين » . وقد كني بنفي البيع والخلال التي هي وسائل النـوال والإرفـاد عن انتفـاء الاستـزادة .

وإدخـال حرف الجرّ على اسم الزمـان وهو (قبل) لتـأكيد القبليـة ليفهم معنى المبـادرة .

وقرأ الجمهور « لا بـيعٌ » بـالرفـع . وقرأ ابـن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب بـالبنـاء على الفتح . وهمـا وجهـان في نفي النكرة بحرف (لا) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَءَاتَٰكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

استئنـاف واقع موقع الاستدلال على مـا تضمنتـه جملة « وجعلـوا لله أنـداداً » الآيـة . وقد فصل بينـه وبين المستدل عليـه بجملـة « قُل لعبـادي الذيـن آمنـوا يقيموا الصلاة » الآية . وأدمج في الاستدلال تعدادهم لنعم تستحق الشكر عليها ليظهر حـال الذيـن كفروهـا ، وبـالضد حـال الذين شكروا عليهـا ، وليـزداد الشاكـرون شكـرا . فـالمقصود الأول هو الاستدلال على أهل الجاهليـة ، كما يدل عليـه تعقيبه بقولـه « وإذ قـال إبراهيم رب اجعـل هذا البلـد آمنـا واجْنُبْنِي وبنيّ أن نعبد الأصنـام » . فجيء في هذه الآيـة بنِعم عـامّة مشهـودة محسوسة لا يستطـاع إنكـارهـا إلا أنهـا محتـاجة للتذكير بـأن المنعم بهـا وموجدهـا هو الله تعـالى .

وافتُتِح الكلام باسم الموجِد لأن تعيينه هو الغرض الأهمّ . وأخبر عنه بالموصول لأن الصلة معلومة الانتساب إليه والثبوت له ـ إذ لا ينازع المشركون في أن الله هو صاحب الخلق ولا يدعون أن الأصنام تخلق شيئاً ، كما قال « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله » . فخلق السماوات والأرض دليل على إلهية خالقهما وتمهيد للنعم المودعة فيهما ؛ فإنزال الماء من السماء إلى الأرض ، وإخراج الثمرات من الأرض ، والبحارُ والأنهارُ من الأرض . والشمس والقمر من السماء ، والليل والنهار من السماء ومن الأرض . وقد مضى بيان هذه النعم في آيات مضت .

والرزق : القوت . والتسخير : حقيقته التذليل والتطويع ، وهو مجاز في جعل الشيء قابلاً لتصرف غيره فيه ، وقد تقدم عند قوله تعالى « والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخرات بأمره » في سورة الأعراف. وقوله « لتجري في البحر » هو علة تسخير صنعها .

ومعنى تسخير الفلك : تسخير ذاتها بإلهام البشر لصنعها وشكلها بكيفية تجري في البحر بدون مانع .

وقوله « بأمره » متعلق بـ « تجري » .

والأمر : هنا الإذن ، أي تيسير جريها في البحر ، وذلك بكف العواصف عنها وبإعانتها بالريح الرخاء ، وهذا كقوله « ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره » . وعبر عن هذا الأمر بالنعمة في قوله « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله »، وقد بينته آية « ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام إن يشأ يُسكنِ الرياح فيظْلَلْنَ رواكد على ظهره » الآية .

وتسخير الأنهار : خلقها على كيفية تقتضي انتقال الماء من مكان إلى مكان وقراره في بعض المنخفضات فيستقي منه مَن تمرّ عليه وينزل على ضفافه

حيث تستقرّ مياهه ، وخلق بعضها مستمرة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها .

وتسخير الشمس والقمر : خلقهما بأحوال ناسبت انتفاع البشر بضيائهما ، وضبطَ أوقاتهم بسيرهما .

ومعنى « دائبين » دائبين على حالات لا تختلف إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها فوقعوا في حيرة وشك .

والفلك : جمع لفظه كلفظ مفرده . وقد تقدم عند قوله تعالى « والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس » في سورة البقرة .

ومعنى « وآتاكم من كل ما سألتموه » أعطاكم بعضا من جميع مرغوباتكم الخارجة عن اكتسابكم بحيث شأنكم فيها أن تسألوا الله إياها ، وذلك مثل توالدا الأنعام ، وإخراج الثمار والحب ، ودفع العوادي عن جميع ذلك : كدفع الأمراض عن الأنعام ، ودفع الجوائح عن الثمار والحب .

فجملة « وآتاكم من كل ما سألتموه » تعميم بعد خصوص ، فهي بمنزلة التذييل لما قبلها لحكم يعلمها الله ولا يعلمونها « ولو بسط الله الرزق لعباده لبَغَوْا في الأرض ولكنْ ينزّل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » ، وأن الإنعام والامتنان يكون بمقدار البذل لا بمقدار الحرمان . وبهذا يتبيّن تفسير الآية .

وجملة « وإن تعُدّوا نعمة الله لا تحصوها » تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم ، تنبيها على أنّ ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أو لا يتذكرونه عند إرادة تعداد النعم .

فمعنى « إن تعُدّوا » إن تحاولوا العَدّ وتأخذوا فيه . وذلك مثل النعم المعتاد بها التي ينسى الناس أنها من النعم ، كنعمة التنفس ، ونعمة الحواس ، ونعمة هضم الطعام والشراب ، ونعمة الدورة الدموية ، ونعمة الصحة . وللفخر هنا تقرير نفيس فانظره .

والإحصاء : ضبط العدد ، وهو مشتق من الحَصَا اسما للعدد ، وهو منقول من الحصى . وهو صغار الحجارة لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للغلط .

وجملة « إن الإنسان لظلوم كفار » تأكيد لمعنى الاستفهام الإنكاري المستعمل في تحقيق تبديل النعمة كُفرا . فلذلك فصلت عنها .

والمراد بـ « الإنسان » صنف منه ، وهو المتصف بمضمون الجملة المؤكّدة وتأكيدها ، فالإنسان هو المشرك ، مثل الذي في قوله تعالى « ويقول الإنسان أإذا ما مِتُّ لسوف أخرج حيّا » ، وهو استعمال كثير في القرآن .

وصيغتا المبالغة في « ظلوم كفار » اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله « وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تحصوها » ، إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها إذْ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئا ، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

عطف على جملة « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا » فإنهم كما بدّلوا نعمة الله كفرًا أهملوا الشكر على ما بوّأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم – عليه السّلام – ، وبدّلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداءً بأسلافهم من أهل الضلالة ، وبدّلوا دُعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرا بمفيض تلك النِّعَم .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة « اللهُ الذي خلق السماوات »والأرض بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس التي يدخل تحت مِنّتها أهل مكة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خصّ الله بها أهل مكة . وغيّر الأسلوب في الامتنان بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم – عليه السّلام – والتعريض بذريته من المشركين .

(وإذا) اسم زمان ماض منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله ، تقديره : واذكر إذ قال إبراهيم ، زيادة في التعجيب من شأن المشركين الذي مرّ في قوله « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا »، فموقع العبرة من الحالين واحد .

و « رب » منادى محذوف منه حرف النداء . وأصله (ربي) ، حذفت ياء المتكلم تخفيفا ، وهو كثير في المنادى المضاف إلى الياء .

والبلد : المكان المعيّن من الأرض،ويطلق على القرية . والتعريف في « البلد » تعريف العهد لأنه معهود بالحضور . و « البلد » بدل من اسم الإشارة .

وحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يرد بعده البيان بقوله « عند بيتك المحرم »، أو هو حوالة على ما في علم العرب من أنّه مكة . وقد مضى في سورة البقرة تفسير نظيره . والتعريف هنا للعهد، والتنكير في آية البقرة تنكير النوعية، فهنا دعَا للبلد بأن يكون آمنا ، وفي آية سورة البقرة دعَا لِمشار إليه أن يجعله الله من نوع البلاد الآمنة ، فمآل المفادين متّحد .

« واجنُبني » أمر من الثلاثي المجرد ، يقال : جنبه الشيء ، إذا جعله جانبا عنه ، أي باعده عنه ، وهي لغة أهل نجد . وأهلُ الحجاز يقولون : جنّبه بالتضعيف أو أجنبه بالهمز . وجاء القرآن هنا بلغة أهل نجد لأنها أخف .

وأراد ببنيه أبناء صلبه ، وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق ، فهو من استعمال الجمع في التثنية،أو أراد جميع نسله تعميما في الخير فاستجيب له في البعض .

والأصنام : جمع صنم ، وهو صورة أو حجارة أو بناء يتخذ معبودا ويُدعى إلهًا . وأراد إبراهيم – عليه السلام – مثل ودّ وسواعٍ ويغوثَ ويعوقَ ونَسْرٍ ، أصنام قوم نوح ، ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم .

وإعادة النداء في قوله «رب إنهن أضللن كثيرا من النّاس» لإنشاء التحسر على ذلك .

وجملة «إنهن أضللن كثيرا من النّاس» تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها بأنها ضلال راج بين كثير من الناس. فحق للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفه فتنتها . فافتتاح الجملة بحرف التوكيد لما يفيده حرف (إنّ) في هذا المقام من معنى التعليل .

وذلك أن إبراهيم – عليْه السّلام – خرج من بلده أُور الكلدانيين إنكارا على عبدة الأصنام . فقال «إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين» وقال لقومه «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله» . فلمّا مرّ بمصر وجدهم يعبدون الأصنام ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام ، ثم جاء عَرَبَةَ تهامة فأسكن بها زوجه فوجدها خالية ووجد حولها جُرْهمَ قومًا على الفطرة والسذاجة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل – عليْه السلام –. ثم أقام هنالك مَعلَم التوحيد، وهو بيت الله الكعبة بناه هو وابنه إسماعيل . وأراد أن يكون مأوى التوحيد ، وأقام ابنه هنالك ليكون داعية للتوحيد. فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلدا آمنا حتى يسلم ساكنوه وحتى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقنوه أصول التوحيد .

ففرّع على ذلك قوله «فمن تبعني فإنه منّي»، أي فمن تبعني من الناس فتجنب عبادة الأصنام فهو منّي. فدخل في ذلك أبوه وقومه، ويدخل فيه ذريته لأن الشرط يصلح للماضي والمستقبل .

و (مِن) في قوله «منّي» اتصالية . وأصلها التبعيض المجازي، أي فإنه متصل بي اتصال البعض بكله .

وقوله « ومن عصاني فإنك غفور رحيم » تأدب في مقام الدعاء ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه . والمعنى : ومن عصاني أفوّض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى. وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم – عليْه السّلام – وخشية من استئصال عصاة ذريته . ولذلك متعهم الله قليلا في الحياة الدنيا ، كما أشار إليه قوله تعالى « قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » وقوله « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني براء مما تعبدون إلاّ الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون بل متّعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ». وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنهم لم يبرّوا بأبيهم إبراهيم – عليْه السّلام –.

وإذ كان قوله « فإنك غفور رحيم » تفويضا لم يكن فيه دلالة على أن الله يغفر لمن يشرك به .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

جملة « إني أسكنت من ذريتي » مستأنفة لابتداء دعاء آخر . وافتتحت بالنداء لزيادة التضرّع . وفي كون النداء تأكيدا لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله .

وأضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافا لسابقيه لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه . ولعل إسماعيل – عليْه السّلام – حاضر معه حين الدعاء كما تدل له الآية الأخرى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد

من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم – إلى قوله – واجعلنا مسلمين لك » . وذلك من معنى الشكر المسؤول هنا .

و (مِن) في قوله « من ذريتي » بمعنى بعض، يعني إسماعيلَ – عليه السّلام – ، وهو بعض ذريته. فكأن هذا الدعاء صدر من إبراهيم – عليه السلام – بعد زمان من بناء الكعبة وتقري مكّة ، كما دلّ عليه قوله في دعائه هذا « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق » ، فذكر إسحاق – عليه السّلام – .

والواد : الأرض بين الجبال ، وهو وادي مكّة . « وغير ذي زرع » صفة ،أي بواد لا يصلح للنبت لأنه حجارة ، فإن كلمة (ذُو) تدلّ على صاحبِ ما أضيفت إليه وتمكّنه منه . فإذا قيل : ذو مال ، فالمال ثابت له ، وإذا أريد ضد ذلك قيل:غير ذي كذا ، كقوله تعالى « قرآنا عربيا غيرَ ذي عِوج » ، أي لا يعتريه شيء من العوج. ولأجل هذا الاستعمال لم يقل بواد لا يزرع أو لا زرع به .

و « عند بيتك » صفة ثانية لوادٍ أو حال .

والمحرّم : الممنّع من تناول الأيدي إياه بما يفسده أو يضر أهله بما جعل الله له في نفوس الأمم من التوقير والتعظيم ، وبما شاهدوه من هلكة من يريد فيه بإلحاد بظلم . وما أصحاب الفيل منهم ببعيد .

وعلق « ليقيموا » بـ « أسكنت » ، أي علة الإسكان بذلك الوادي عند ذلك البيت أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معمورا أبدا .

وتوسيط النداء للاهتمام بمقدمة الدعاء زيادة في الضراعة. وتهيأ بذلك أن يفرّع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، لأن همة الصالحين في إقامة الدين .

والأفئدة : جمع فؤاد ، وهو القلب . والمراد به هنا النفس والعقل .

والمراد : فاجعل أناسًا يهوون إليهم . فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوْق ومحبة حتى كأنّ المسرع هو الفؤاد لا الجسد.

فلما ذكر «أفئدة» لهذه النكتة حسن بيانه بأنهم «من الناس» : فـ (من) بيانية لا تبعيضية ؛ إذ لا طائل تحته . والمعنى: فاجعل أناسا يقصدونهم بحبات قلوبهم .

وتهوي – مضارع هوَى بفتح الواو – : سقط . وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة ؛ كقول امرىء القيس :

كجلمود صخْرٍ حطّه السيلُ من عل

ولذلك عدّي باللام دون (على) .

والإسراع : جُعل كناية عن المحبة والشوق إلى زيارتهم .

والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردّد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم .

والتنكيرُ مطلقٌ يحمل على المتعارف في عمران المدن والأسواق بالواردين ، فلذلك لم يقيّده في الدعاء بما يدل على الكثرة اكتفاء بما هو معروف .

ومحبة الناس إياهم يحصل معها محبة البلد وتكرير زيارته ؛ وذلك سبب لاستئناسهم به ورغبتهم في إقامة شعائره؛ فيؤول إلى الدعوة إلى الدين .

ورجاء شكرهم داخل في الدعاء لأنه جُعل تكملة له تعرضا للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين . والمقصود : توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾

جاء بهذا التوجه إلى الله جامعا لما في ضميره ؛ وفذلكةً للجمل الماضية لما اشتملت عليه من ذكر ضلال كثير من الناس ، وذكر من اتبع دعوته

ومن عصاه ، وذكر أنه أراد من إسكان أبنائه بمكة رجاء أن يكونوا حراس بيت الله ، وأن يقيموا الصلاة ، وأن يشكروا النعم المسؤولة لهم . وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النية إليه .

وجملة « وما يخفى على الله من شيء » تذييل لجملة « إنك تعلم ما نخفي وما نعلن »، أي تعلم أحوالنا وتعلم كل شيء . ولكونها تذييلا أظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلا بنفسه بمنزلة المَثل والكلام الجامع .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَـاءِ ﴾

لما دعا الله لأَهَمّ ما يهمه وهو إقامة التوحيد وكان يرجو إجابة دعوته وأن ذلك ليس بعجب في أمر الله خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدَيْن في إبان الكِبَر وحين اليأس من الولادة فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء ، أي مجيب ، أي متصف بالإجابة وصفًا ذاتيا ، تمهيدا لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوتَه سلفا . فهذا مناسبة مَوقع هذه الجملة بعد ما قبلها بقرينة قوله « إنّ ربّي لسميع الدعاء » .

واسم الموصول إيماء إلى وجه بناء الحمد . و (على) في قوله « على الكبر » للاستعلاء المجازي بمعنى (مع) ، أي وهب ذلك تعليا على الحالة التي شأنها أن لا تسمح بذلك. ولذلك يفسرون (على) هذه بمعنى (مع)، أي مع الكِبَر الذي لا تحصل معه الولادة . وكان عُمُر إبراهيم حين ولد له إسماعيل – عليهما السّلام – ستا وثمانين سنة (86) . وعمره حين وُلد له إسحاق – عليهما السّلام – مائة سنة (100) . وكان لا يولد له من قبل .

وجملة « إنّ ربّي لسميع الدعاء » تعليل لجملة « وهب » ، أي وهب ذلك لأنه سميع الدعاء . والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية ، وصيغ

بمثال المبالغة أو الصفة المشبهة ليدلّ على كثرة ذلك وأن ذلك شأنه ، فيفيد أنه وصف ذاتي لله تعالى .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرِ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾

جملة مستأنفة من تمام دعائه . وفعل « اجعلني » مستعمل في التكوين ، كما تقدم آنفا ، أي اجعلني في المستقبل مقيم الصلاة .

والإقامة : الإدامة ، وتقدم في صدر سورة البقرة .

« ومن ذريتي » صفة لموصوف محذوف معطوف على ياء المتكلم . والتقدير : واجعل مقيمين للصلاة من ذريتي .

و (من) ابتدائية وليست للتبعيض ، لأن إبراهيم – عليه السّلام – لا يسأل الله إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته . ويجوز أن تكون (من) للتبعيض بناء على أن الله أعلمه بأن يكون من ذريته فريق يقيمون الصلاة وفريق لا يقيمونها، أي لا يؤمنون . وهذا وجه ضعيف لأنه يقتضي أن يكون الدعاء تحصيلا لحاصل ، وهو بعيد ، وكيف وقد قال « واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام » ولم يقل: ومن بَنِيّ .

ودعاؤه بِتَقَبّل دعائه ضراعة بعد ضراعة .

وحُذفت ياء المتكلم في «دعاءِ» في قراءة الجمهور تخفيفا كما تقدم في قوله تعالى « وإليه متاب» في سورة الرعد .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة بإثبات الياء ساكنة .

ثم دعا بالمغفرة لنفسه وللمؤمنين ولوالديه ما تقدم منه ومن المؤمنين قبل نبوءته وما استمر عليه أبُوه بعد دعوته من الشرك ، أما أمه فلعلها توفيت

قبل نبوءته . وهذا الدعاء لأبويه قبل أن يتبين له أن أباه عدوّ لله كما في آية سورة براءة .

ومعنى « يقوم الحساب » : يثبت . استعير القيام للثبوت تبعا لتشبيه الحساب بإنسان قائم ؛ لأن حالة القيام أقوى أحوال الإنسان إذ هو انتصاب للعمل . ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق، إذا قويت واشتدت. وقولهم : ترجلت الشمس، إذا قوي ضوءها. وتقدم عند قوله تعالى « ويقيمون الصلاة » في أول سورة البقرة .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَـٰرُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾

عطف على الجمل السابقة، وله اتصال بجملة « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » الذي هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأن لا يغتروا بسلامتهم وأمنهم تنبيها لهم على أن ذلك متاع قليل زائل . فأكد ذلك الوعيد بهذه الآية، مع إدماج تسلية الرسول — عليه الصلاة والسّلام — على ما يتطاولون به من النعمة والدعة، كما دل عليه التفريع في قوله « فلا تحسبن الله مُخلف وعده رسله » . وفي معنى الآية قوله « وذَرْني والمكذبين أولي النّعمة ومهّلهم قليلا » .

وباعتبار ما فيه من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر حسن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل .

وصيغة « لا تحسبن » ظاهرها نهي عن حسبان ذلك . وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه في المقام الذي من شأنه أن يثير للناس ظَنّ وقوع المنهي عنه لقوة الأسباب المثيرة لذلك . وذلك أن إمهالهم وتأخير

عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم ، أي تحقق أن الله ليس بغافل، وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة، فهو كناية بمرتبتين . ذلك لأن النهي عن الشيء يؤذن بأن المنهي عنه بحيث يتلبس به المخاطب ، فنهيه عنه تحذير من التلبس به بقطع النظر عن تقدير تلبس المخاطب بذلك الحسبان . وعلى هذا الاستعمال جاءت الآية سواء جعلنا الخطاب لكل من يصح أن يخاطب فيدخل فيه النبيء – عليه الصلاة والسلام – أم جعلناه للنبيء ابتداء ويدخل فيه أمته .

ونفي الغفلة عن الله ليس جاريًا على صريح معناه لأن ذلك لا يظنه مؤمن بل هو كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين . ومنه جاء معنى التسلية للرسول – صلّى الله عليْه وسلّم – .

والغفلة : الذهول، وتقدم في قوله تعالى « وإنْ كنّا عن دراستهم لغافلين » في سورة الأنعام .

والمراد بالظلم هنا الشرك ، لأنه ظلم للنفس بإيقاعها في سبب العذاب المؤلم، وظلم لله بالاعتداء على ما يجب له من الاعتراف بالوحدانية . ويشمل ذلك ما كان من الظلم دون الشرك مثل ظلم الناس بالاعتداء عليهم أو حرمانهم حقوقهم فإن الله غير غافل عن ذلك . ولذلك قال سفيان بن عُيَيْنة : هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم .

وقوله « فيه الأبصار » مبنية لجملة « ولا تحسبنّ الله غافلا ... » الخ .

وشخوص البصر : ارتفاعه كنظر المبهوت الخائف .

وأل في « الأبصار » للعموم ، أي تشخص فيه أبصار الناس من هول ما يرون . ومن جملة ذلك مشاهدة هول أحوال الظالمين .

والإهطاع : إسراع المشي مع مد العنق كالمتختّل ، وهي هيئة الخائف .

وإقناع الرأس : طأطأته من الذلّ ، وهو مشتق من قَنَع من باب مَنَع إذا تذلّل . و « مهطعين مقنعي رؤوسهم » حالان .

وجملة « لا يرتد إليهم طرفهم » في موضع الحال أيضا . والطَّرْف : تحرك جفن العين .

ومعنى « لا يرتد إليهم » لا يرْجع إليهم ، أي لا يعود إلى معتاده ، أي لا يستطيعون تحويله . فهو كناية عن هول ما شاهدوه بحيث يبقون ناظرين إليه لا تطرف أعينهم .

وقوله « وأفئدتهم هواء » تشبيه بليغ ، إذ هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدة الهول .

والهواءُ في كلام العرب : الخلاء. وليس هو المعنى المصطلح عليه في علم الطب وعلم الهيئة .

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾

عطف على جملة « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون »، أي تَسَلَّ عنهم ولا تملل من دعوتهم وأنذرهم .

والناس : يعم جميع البشر . والمقصود : الكافرون ، بقرينة قوله « يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ». ولك أن تجعل الناس ناسا معهودين وهم المشركون.

و« يوم يأتيهم العذاب » منصوب على أنه مفعول ثان لـ « أنذر »، وهو مضاف إلى الجملة . وفعل الإنذار يتعدى إلى مفعول ثان على التوسّع لتضمينه معنى التحذير . كما في الحديث « ما من نبيء إلا أنذر قومه الدجال » .

وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه مجازا مرسلا .

والعذاب : عذاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا الذي هُدّد به المشركون. و « الذين ظلموا » : المشركون .

وطلب تأخير العذاب إن كان مرادا به عذاب الآخرة فالتأخير بمعنى تأخير الحساب ، أي يقول الذين ظلموا : أرجعنا إلى الدنيا لنجيب دعوتك . وهذا كما في قوله تعالى « رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت » ، فالتأخير مستعمل في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازا مرسلا بعلاقة الأوْل . والرسل : جميع الرسل الذين جاءُوهم بدعوة الله .

وإن حمل على عذاب الدنيا فالمعنى : أن المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم . فالتأخير على هذا حقيقة . والرسل على هذا المحمل مستعمل في الواحد مجازا ، والمراد به محمّد – صلّى الله عليْه وسلّم – .

والقريب : القليل الزمن . شبه الزمان بالمسافة ، أي أخّرنا مقدار ما نجيب به دعوتك .

﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـٰكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾

لما ذُكر قبل هذه الجملة طلب الذين ظلموا من ربهم تعيّن أن الكلام الواقع بعدها يتضمن الجواب عن طلبهم فهو بتقدير قول محذوف ، أي يقال لهم . وقد عُدل عن الجواب بالإجابة أو الرفض إلى التقرير والتوبيخ لأن ذلك يستلزم رفض ما سألوه .

وافتتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيها على معطوف عليه مقدر هو رفض ما سألوه ، حُذف إيجازا لأن شأن مستحق التوبيخ أن لا يعطى سؤله . فالتقدير : كلا وألَم تكونوا أقسمتم . . . الخ .

والزوال : الانتقال من المكان . وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب

وحذف متعلّق «زوال» لظهور المراد. قال تعالى « وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » .

وجملة « ما لكم من زوال » بيان لجملة « أقسمتم » . وليست على تقدير قول محذوف ولذلك لم يراع فيها طريق ضمير المتكلم فلم يقل : ما لنا من زوال . بل جيء بضمير الخطاب المناسب لقوله « أوَ لَمْ تكونوا » .

وهذا القسم قد يكون صادرا من جميع الظالمين حين كانوا في الدنيا لأنهم كانوا يتلقون تعاليم واحدة في الشرك يتلقاها الخلف عن سلفهم .

ويجوز أن يكون ذلك صادرا من معظم هذه الأمم أو بعضها ولكن بقيتهم مضمرون لمعنى هذا القسم .

وكذلك الخطاب في قوله « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم » فإنه يعم جميع أمم الشرك عدا الأمة الأولى منهم . وهذا من تخصيص العموم بالعقل إذ لا بد أن تكون الأمة الأولى من أهل الشرك لم تسكن في مساكن مشركين .

والمراد بالسكنى : الحلول ، ولذلك عُدّي بحرف الظرفية خلافا لأصل فعله المتعدي بنفسه . وكان العرب يمرون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام ويحطون الرحال هنالك ، ويمرون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن .

وتبيّنُ ما فعل الله بهم من العقاب حاصل من مشاهدة آثار العذاب من خسف وفناء استئصال .

وضَرب الأمثال بأقوال المواعظ على ألسنة الرسل – عليهم السّلام – ، ووصف الأحوال الخفية .

وقد جمع لهم في إقامة الحجة بين دلائل الآثار والمشاهدة ودلائل الموعظة .

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

يجوز أن يكون عطفَ خبر على خبر ، ويجوز أن يكون حالا من « الناس » في قوله « وأنذر الناس » ، أي أنذرهم في حال وقوع مكرهم .

والمكر : تبييت فعل السوء بالغير وإضمارُهُ . وتقدم في قوله تعالى « ومكروا ومكر الله » في سورة آل عمران ، وفي قوله « أفأمنوا مكر الله » في سورة الأعراف .

وانتصب « مَكرهم » الأول على أنه مفعول مطلق لفعل « مكروا » لبيان النوع ، أي المكر الذي اشتهروا به ، فإضافة (مكر) إلى ضمير (هم) من إضافة المصدر إلى فاعله . وكذلك إضافة (مكر) الثاني إلى ضمير (هم) .

والعندية إما عندية علم ، أي وفي علم الله مكرهم ، فهو تعريض بالوعيد والتهديد بالمؤاخذة بسوء فعلهم ، وإما عندية تكوين ما سُمي بمكر الله وتقديره في إرادة الله ، فيكون وعيدا بالجزاء على مكرهم .

وقرأ الجمهور « لِتزول » – بكسر اللام وبنصب الفعل المضارع بعدها – فتكون (إنْ) نافية ولام « لِتزول » لام الجحود ، أي وما كان مكرهم زائلة منه الجبال ، وهو استخفاف بهم ، أي ليس مكرهم بمتجاوز مكر أمثالهم ، وما هو بالذي تزول منه الجبال . وفي هذا تعريض بأن الرسول – صلّى الله عليْه وسلّم – والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنهم كالجبال الرواسي .

وقرأ الكسائي وحده – بفتح اللام الأولى – من « لَتزولُ » ورفع اللام الثانية على أن تكون (إنْ) مخففة من إنّ المؤكدة وقد أكمل إعمالها ، واللام فارقة بينها وبين النافية ، فيكون الكلام إثباتا لزوال الجبال من مكرهم ، أي هو

مكر عظيم لتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول، أي جديرة ، فهو مستعمل في معنى الجدارة والتأهل للزوال لو كانت زائلة . وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيع أو شديد في نوعه على نحو قوله تعالى « يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا » .

﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾

تفريع على جميع ما تقدم من قوله « ولا تحسبَنّ اللهَ غافلا عما يعمل الظالمون » . وهذا محل التسلية . والخطاب للنبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – . وتقدم نظيره آنفا عند قوله « ولا تحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون » ، لأن تأخير ما وعد الله رسوله – عليْه الصلاة والسّلام – من إنزال العقاب بأعدائه يشبه حال المخلف وعده ، فلذلك نهي عن حُسبانه .

وأضيف « مُخلف » إلى مفعوله الثاني وهو « وعْده » وإن كان المفعول الأول هو الأصل في التقديم والإضافة إليه لأن الاهتمام بنفي إخلاف الوعد أشد ، فلذلك قدم « وعده » على « رسله » .

و « رسله » جمع مراد به النبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – لا محالة ، فهو جمع مستعمل في الواحد مجازا . وهذا تثبيت للنبيء – صلّى الله عليْه وسلّم – بأن الله منجز له ما وعده من نصره على الكافرين به . فأما وعده للرسل السابقين فذلك أمر قد تحقق فلا يناسب أن يكون مرادا من ظاهر جمع « رسله » .

وجملة « إن الله عزيز ذو انتقام » تعليل للنهي عن حُسبانه مُخلف وعده .

والعزة : القدرة . والمعنى : أن موجب إخلاف الوعد منتف عن الله تعالى لأن إخلاف الوعد يكون إمّا عن عَجز وإمّا عن عدم اعتياد الموعود به ، فالعزة

تنفي الأول وكونُه صاحب انتقام ينفي الثاني . وهذه الجملة تذييل أيضا وبها تمّ الكلام .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

استئناف لزيادة الإنذار بيوم الحساب، لأن في هذا تبيين بعض ما في ذلك اليوم من الأهوال ؛ فلك أن تجعل « يومَ تُبدّل الأرض » متعلّقا بقوله « سريع الحساب » قُدّم عليه للاهتمام بوصف ما يحصل فيه ، فجاء على هذا النظم ليحصل من التشويق إلى وصف هذا اليوم لما فيه من التهويل.

ولك أن تجعله متعلقا بفعل محذوف تقديره : اذكُرْ يوم تبدل الأرض ، وتجعل جملة « إن الله سريع الحساب » على هذا تذييلا.

ولك أن تجعله متعلقا بفعل محذوف دل عليه قوله « ليجزيَ الله كلّ نفس ما كسبت ». والتقدير: يجزي اللهُ كلّ نفس بما كسبت يومَ تبدل الأرض. . الخ.

وجملة « إن الله سريع الحساب » تذييل أيضا .

والتبديل : التغيير في شيء إمّا بتغيير صفاته ، كقوله تعالى « فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات »، وقولك : بدلتُ الحَلقة خاتما؛ وإمّا بتغيير ذاته وإزالتها بذات أخرى، كقوله تعالى « بدّلناهم جلودا غيرها »، وقوله « وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتيْ أكْل خمط » .

وتبديل الأرض والسماوات يوم القيامة : إما بتغيير الأوصاف التي كانت لها وإبطال النُظم المعروفة فيها في الحياة الدنيا ، وإما بإزالتها ووجدان أرض وسماوات أخرى في العالم الأخروي . وحاصل المعنى : استبدال العالم المعهود بعالم جديد .

ومعنى « وبرزوا لله الواحد القهّار » مثل ما ذكر في قوله « وبرزوا لله جميعا » . والوصف بـ « الواحد القهار » للرد على المشركين الذين أثبتوا له شركاء وزعموا أنهم يدافعون عن أتباعهم . وضمير « برزوا » عائد إلى معلوم من السياق . أي وبرز الناس أو برز المشركون .

والتقرين : وضع اثنين في قَرن . أي حبل .

والأصفاد : جمع صِفاد بوزن كتاب . وهو القيد والغلّ .

والسرابيل : جمع سربال وهو القميص . وجملة « سرابيلهم من قَطِرَان » حال من « المجرمين » .

والقطران : دهن من تركيب كيمياوي قديم عند البشر يصنعونه من إغلاء شَجر الأرْز وشجر السّرو وشجر الأبْهُل – بضم الهمزة والهاء وبينهما موحدة ساكنة – وهو شجر من فصيلة العرعر ، ومن شجر العرعر: بأن تقطع الأخشاب وتجعل في قبة مبنية على بلاط سَوِي وفي القبة قناة إلى خارج ، وتُوقد النار حول تلك الأخشاب فتصعد الأبخرة منها ويسري ماء البخار في القناة فتصب في إناء آخر موضوعٍ تحت القناة فيتجمع منه ماء أسود يعلوه زَبَد خاثر أسود ، فالماء يعرف بالسائل والزّبَد يعرف بالبرقي. ويتخذ للتداوي من الجرب للإبل ولغير ذلك مما هو موصوف في كتب الطب وعلم الاَقْرَبَاذين .

وجعلت سرابيلهم من قطران لأنه شديد الحرارة فيؤلم الجِلدَ الواقعَ هو عليه ، فهو لباسهم قبل دخول النار ابتداء بالعذاب حتى يقعوا في النار .

وجملة « إن الله سريع الحساب » مستأنفة ، إما لتحقيق أن ذلك واقع كقوله « إنما توعدون لصادق وإنّ الدين لواقع » . وإما استئناف ابتدائي . وأخرت إلى آخر الكلام لتقديم « يوم تبدل الأرض » إذا قُدر معمولا لها كما ذكرناه آنفا .

﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَـٰبِ ﴾

الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلها من أيْنَ ابتدأتهُ أصبت مراد الإشارة ، والأحسن أن يكون للسورة كلها .

والبلاغ : اسم مصدر التبليغ ، أي هذا المقدار من القرآن في هذه السورة تبليغ للناس كلهم .

واللام في « للناس » هي المعروفة بلام التبليغ ، وهي التي تدخل على اسم من يَسمع قولا أو ما في معناه .

وعطف« ولينذروا » على « بلاغ » عطف على كلام مقدر يدل عليه لفظ (بلاغ)، إذ ليس في الجملة التي قبله ما يصلح لأن يعطف هذا عليه فإن وجود لام الجر مع وجود واو العطف مانع من جعله عطفا على الخبر ، لأن المجرور إذا وقع خبرا عن المبتدإ اتصل به مباشرة دون عطف إذ هوَ بتقدير كائن أو مستقر ، وإنما تعطف الأخبار إذا كانت أوصافا . والتقدير : هذا بلاغ للناس ليستيقظوا من غفلتهم ولينذروا به .

واللام في « ولِيُنْذَروا » لام كي . وقد تقدم قريب من نظم هذه الآية في قوله تعالى « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدّق الذي بين يديه ولتُنذرَ أمّ القرى ومن حولها » في سورة الأنعام .

والمعنى : وليعلموا مما ذكر فيه من الأدلة مَا الله إلا إلهٌ واحد ، أي مقصور على الإلهية الموحّدة . وهذا قصر موصوف على صفة وهو إضافي ، أي أنه تعالى لا يتجاوز تلك الصفة إلى صفة التعدد بالكثرة أو التثليث ، كقوله « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد » .

والتذكر : النظر في أدلة صدق الرسول – عليْه الصلاة والسّلام – ووجوب اتباعه . ولذلك خص بذوي الألباب تنزيلا لغيرهم منزلة من لا عقول لهم « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

وقد رتبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض ، فابتدىء بالصفة العامة وهي حصول التبليغ . ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار ، ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانية لما في خلال هذه السورة من الدلائل . ثم بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل . وهذه المراتب هي جامع حكمة ما جاء به الرسول – صلّى الله عليْه وسلّم – موزعة على من بلّغ إليهم . ويختص السلمون بمضمون قوله « وليذّكّر أولوا الألباب » .

فهـرس الجـزء الثـالث عشر
من التحرير والتنوير

سورة يـوسف

سورة الـرعـد

هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال .. وهو شديد المحال	102
له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ... الا فى ضلال	107
ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وضلالهم بالغدو والآصال	110
قل من رب السماوات والأرض قل الله .. لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا	112
قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور	114
أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم .. وهو الواحد القهار	115
أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها .. كذلك يضرب الله الأمثال	116
للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا .. وبئس المهاد	122
أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الألباب	123
الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون .. لهم عقبى الدار	124
جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم .. فنعم عقبى الدار	131
والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .. ولهم سوء الدار	133
الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع	133
ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه .. ويهدى اليه من أناب	135
الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله .. طوبى لهم وحسن مآب	137
كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم .. واليه متاب	139
ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض .. لهدى الناس جميعا	142
ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة .. ان الله لا يخلف الميعاد	145
ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب	147
أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا الله شركاء ... فما له من هاد	148
لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق	154
مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار .. وعقبى الكافرين النار	155
والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه	156
قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعو واليه مآب	158
وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم .... من ولى ولا واق	159
ولقد أرسلنا رسلا من قبلك .. وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله	161

سورة ابراهيم